الإرهاب

ريتشارد كارتيه

Bibliotheca Alexandrina
0027723

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الانكليز والأميركيّون يدخلون إلى «سان–لو» .

قد بات من الواجب المبادرة إلى التفاوض مع الغربيّين على الأقلّ .

أتراه كان يعلّل النفس بالأوهام ؟ أكان يعتقد أنّ بإمكان «هتلر» أن يضحّي بنفسه ، بعد التحقّق من الإخفاق ، لينقذ «ألمانيا» ؟ وإليك السؤال الذي طرحه عليه الأميرال «روغي» : «أتراه يقدم على الانتحار ؟» فأجاب «رومل» : « كلا. أنا أعرف الرجل . سوف يتابع الحرب ، ولن يشعر تجاه الشعب الألمانيّ بأيّة شفقة ، حتى لا يبقى في «ألمانيا» بيت واحد » . ومع هذا ، وفي الأمر ما فيه من التناقض ، ظلّ «رومل» يرفض الموافقة على الاغتيال ، قائلاً «لشبيدل» : « أنا أعطيه فرصته الأخيرة . فإذا لم يفعل شيئاً ، سأنتقل إلى العمل ...» كان «رومل» يفكّر بالتفاوض بشأن الهدنة مع القيادة الحليفة العليا ، وقد أعدّ في ذهنه أسماء أعضاء الوفد الذي ينوي إرساله إلى «أيزنهاور» .

ولكنْ ، هل سيقتفي الآخرون أثره ؟ شكّلت الجولات التي أخذ يقوم بها عمليّات جس نبض واستفتاء . لم يتردّد بضعة جنرالات في تقديم أنفسهم ، وتجاسر الكونت «شفيرن» ، قائد فرقة الدبّابات ١١٦ ، فوقّع مذكّرة أعلن فيها أنّه يتكلّم باسم جنوده ، وطالب بوضع حدّ للحرب وقلب النظام القائم . وصادق البارون «فون لوتفيتز» ، قائد فرقة الدبّابات ٢ . على قول زميله . وانتصب أولئك الذين يدعوهم «هتلر» بحقد «أشراف التقويم» في وجه مغامر نصف سلافيّ ، ولقيط من غير شكّ ، يجرّ «ألمانيا» إلى الهاوية . فأنكر «أدولف هتلر» ، أحدُ أحفاد «بيسمارك» . وأحدُ أحفاد «مولتكي» ، وسليلو «يورك فارتيمبورغ» الأكبر و«سايد ليتز» العظيم . وأسماء لا تُحصى قد اشتركت في صنع

سيّارة «رومل» تحترق تحت أنظار «ديتريش» ، قائد وحدات الصاعقة في «أوروبا» ، بعدما أصابتها المطاردات القاذفات الحليفة .

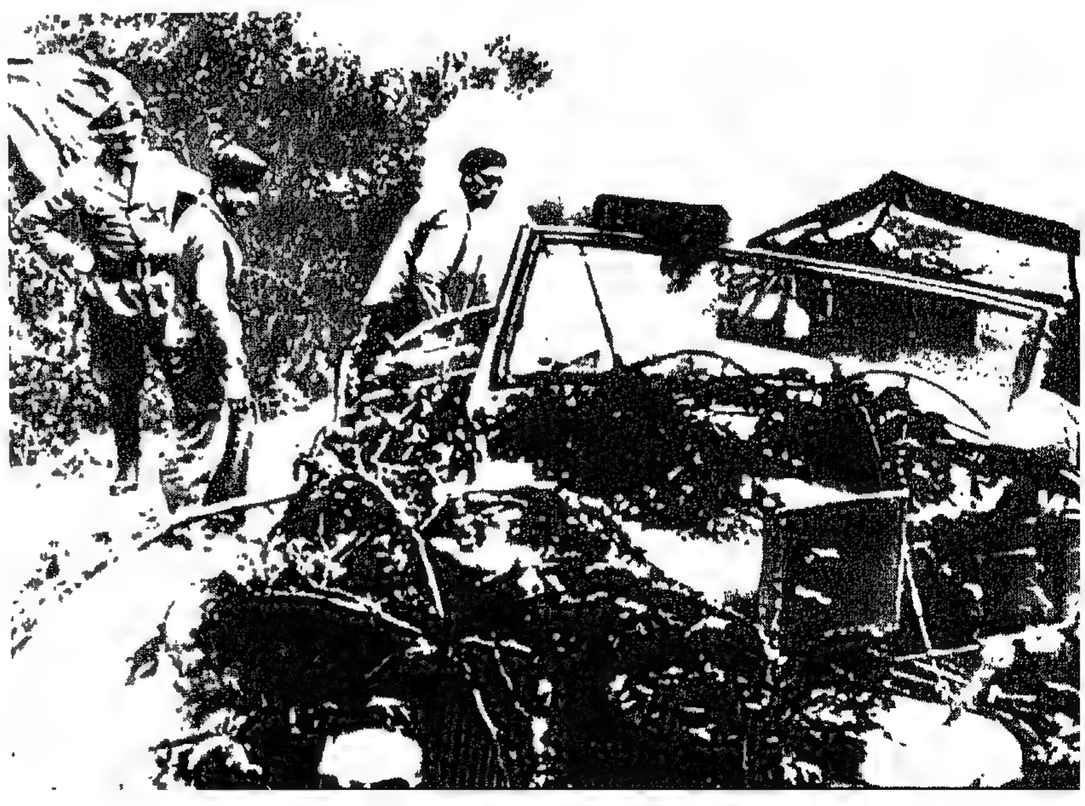

مجد «بروسيا – ألمانيا» وعظمتها .

وهناك الآخرون . وبخاصّة جنرالات فرق الصاعقة ؛ فهم أيضاً قد فقدوا ثقتهم . في ١٧ تموز تفقّد «رومل» الفيلق الصاعق الأوّل . وكان رئيسه . «جوزف ديتريش» . هو سائق «هتلر» القديم ، ومرافقه القديم ، وصفيّه القديم . فأعلن هذا بحنق أنّ الوضع بات لا يطاق . وأنّه قد بات غير معقول ، وأنّه لا يمكن الاستمرار في الحرب بلا تموين ولا استبدال . وخاصّة بلا طيران . وأنّ الوصول إلى نهاية ، أيّاً كانت . قد أمسى ضرورياً . وقد عبّر قائدا فرقتيه عن رأيهما بالقوّة عينها . وهكذا فقد رجال الحرس أنفُسهم تعصّبَهم ، وأخذوا يرتابون من الفوهرر .

سافر «رومل» نحو الساعة ١٦ عائداً إلى «لاروش–غويون» . وكان الجوّ حارّاً صافياً كأجمل ما يكون الطقس القاتل . كان السائق «دانيلز» يقود السيّارة وإلى جانبه الرقيب «هولكي» يراقب السماء ، وقد جلس مع «رومل» في المقعد الخلفيّ الميجر «نويهاوس» والكابتن «لانغ» . إستدارت السيّارة في طريق فرعيّة حول «ليفارو» التي يعمل في سمائها بعضُ الطائرات المعادية ، ولكنّها أفضت إلى الطريق رقم ١٧٩ بين «ليفارو» و«فيرموتييه» ، على مقربة من قرية «مونتغومري» . صرخ «هولكي» : «طائرات» ! وحاول «دانيلز» أن يقذف بعربته في طريق منخفض ، بيد أنّ المطاردتين القاذفتين برزتا بسرعة هائلة مخيفة وأسلحتهما تقذف الرصاص ما أمكنها ، فأُصيب «دانيلز» بجرح مميت ، وانحرفت السيّارة فجأة نحو اليسار ، ثمّ عادت فقفزت واجتازت الطريق وتحطّمت في الحفرة اليمنى ؛ فانطرح «رومل» من غير وعي على بعد عشرين خطوة وقد أُصيبت جمجمته بكسر مزدوج . ولن يستعيد وعيه إلاّ في مستشفى «برني» حيث عبّر الأطبّاء عن يأسهم من شفائه .

في اليوم التالي لإصابة «رومل» شنّ الجيش البريطانيّ هجومه شرقيّ «الأورن» لإتمام فتح «كين» وتحطيم مفصّلة الجبهة الألمانيّة . وفي اليوم التالي ، ١٩ تموز ، تمّ تحرير محافظة فرنسيّة ثانية هي «سان–لو» . كانت «سان–لو» قد قُصفت بقوّة خارقة ، فوفّرت أنقاضها الشاملة . التي دُفن تحتها ١،٢٠٠ ضحيّة مدنيّة ، للصحف الهتلريّة في «باريس» صوراً مريعة عن «كيفيّة تحرير فرنسا» . دخلها الأميركيّون حاملين جثّة الميجر «توماس د. هووي» الذي قُتل في الهجوم الأخير ، فعرضوه في أنقاض الكتدرائيّة قائلين إنّ الأموات ينبغي أن يحضروا أفراح النصر مع الأحياء . إنّه لنصر ، ولكنْ طالما أرجيء . فنحن في اليوم الـ ٤٤ من معركة «نورماندیا» ، وكان على الحلفاء أن يحتلّوا «سان–لو» في اليوم السادس .

في ٢٠ تموز: "هتلر" معافى لقد أخفقت المؤامرة العسكريّة

لقد بدأ يوم العشرين من تموز مشعّاً على «أوروبا» بكاملها . وبصورة استثنائيّة لم تُقصَف «برلين» خلال الليل . وفي الساعة ٧ أقلعت طائرة اتّصال من مطار «رانغسدورف» ، وعلى متنها الكولونيل «فون شتاوفنبرغ» ومساعده الملازم «فرنر فون هافتن» ، وقد حمل كلّ منهما في يده حقيبة ثقيلة ، وكانت كلّ حقيبة تحتوي على قنبلة . إنّهما القنبلتان اللتان قامتا بالسفر ذهاباً وإياباً إلى «برشتسغادن» في ١١ ، وبعد مضيّ أربعة أيّام قامتا برحلة مماثلة ذهاباً وإياباً إلى «رستنبورغ» التي عاد إليها «هتلر» لتوّه ؛ إلاّ أنّ مؤتمر الفوهرر قد أُلغي في آخر لحظة . كانت تلك هي المرّة الثالثة التي يطير «شتاوفنبرغ» فيها في غضون

عشرة أيّام لقتل «هتلر» .

كان يعلم أنّ تلك المحاولة كانت الأخيرة ، لأنّ الخناق قد بدأ يضيق : فلقد أُوقف أحد أهمّ المتآمرين وهو «يوليوس ليبير» النائب الاشتراكيّ السابق في البرلمان . فلم يبقَ ممكناً أن تدوم مؤامرة واسعة ومكشوفة كتلك وقتاً طويلاً .

واجتمعت الحكومة المؤقّتة في «برلين» ، وقد تشكّلت على الوجه التالي : للرئاسة «بيك» ، للمستشاريّة «غوردلر» ، للشؤون الخارجيّة «فون هاسل» ، للقيادة العليا المارشال «فون فيتزليبن» ، الخ . وأمّا «شتاوفنبرغ» فكان من المفروض أن يلحق بهم كسكرتير دولة لشؤون الحرب ، وذلك بعد الظهر ، بعد إنجاز مهمّته . وأمّا قائد موقع «برلين» وضواحيها ، الجنرال «فون هاسي» ، ومدير البوليس الكونت «هيلدورف» ، وهو أحد متآمري ١٩٣٨ ، فكانا قد انضمّا إليهم . وكان «هاسي» يأمل أن ينال المتآمرون موافقة مدرسة المشاة في «دوبنتز» ، ومدرسة جنود المصفّحات في «كرامبنتز» وكتيبة فرقة «ألمانيا الكبرى» المصفّحة . لم يكن انضمام «فروم» أمراً مشبوهاً به ، على الرغم من أنّه كان يجهل النيّات التي حدت رئيس أركانه العامّة إلى الطيران إلى «بروسيا الشرقيّة» . وفي حال تهرّبه سوف يحلّ محلّه على رأس الجيش الداخليّ واحدٌ من الذين ضحّى بهم «هتلر» ، الكولونيل جنرال «هوبنر» .

إستغرق الطيران فوق «براندبورغ» و «بروسيا» ثلاث ساعات في جوّ مشمس . وكانت أوّل زيارة قام بها «شتاوفنبرغ» بعد هبوطه هي زيارة للجنرال «إريك فيلغيبل» رئيس الاتّصالات في القيادة الحربيّة العليا ، وهو حلقة هامّة في المؤامرة ، إذ أنّه كان عليه أن يعزل المقرّ العامّ للفوهرر القتيل بعد نجاح المحاولة . ومن خلال مراكز المراقبة عديدة راحت تدقّق في الهويّات غير مبالية للحمولة ، تقدّمت السيّارة المرسلة إلى المطار وأنزلت «شتاوفنبرغ» أمام مقرّ «كيتل» ، فترجّل من السيّارة وهو يحمل حقيبته بصعوبة بالأصابع الثلاث الباقية في يده الوحيدة ، فيما بقيت القنبلة الأخرى في السيّارة مع «هافتن» ، وكانت بمثابة نسخة عديمة الجدوى . إذ أنّ «شتاوفنبرغ» كان عاجزاً من الناحية البدنيّة عن الدخول إلى «هتلر» حاملاً حقيبتين بيد واحدة . هذا فضلاً عن أنّ صانعي المتفجّرات في المؤامرة قد أكّدوا أنّ قنبلة واحدة ، تنفجر في مكان مغلق ، كانت كفيلة بالقضاء على الحاضرين أجمعين ... وراح «شتاوفنبرغ» يموّه أمام «كيتل» حقيقة الموضوع الذي أتى به إلى «رستنبورغ» ، فيتحدّث عن الفرق الجديدة التي أنشأها الاحتياط الحربيّ ، وعن غيرها من الموضوعات . وحين تناول «كيتل» قبّعته وهو همّ بالخروج انتقل «شتاوفنبرغ» إلى غرفة الملابس فاختلى بنفسه ، وبواسطة كلاّبته حطّم الكبسولة المحتوية على الحامض الذي كان من شأنه أن يحرّر القادح . لم يكن هنالك أيّ عامل يمكن أن يحول دون انفجار القنبلة بعد عشر دقائق .

وفي الخارج عيل صبر الفيلد مارشال «كيتل» . فقد كان جدول الأعمال مرهقاً بسبب زيارة يقوم بها «موسوليني» الذي سوف يصل إلى محطّة «رستنبورغ» في مستهلّ فترة بعد الظهر ، بعد عرضه أربع فرق إيطاليّة كانت قيد الإعداد في «ألمانيا» . وخرج «شتاوفنبرغ» معتذراً ، فعرض عليه «كيتل» أن يحمل له حقيبته ، فرفض وعلى شفتيه ابتسامة لطيفة .

وجرى الاجتماع في «لاغيباراك» . كما في كلّ مرّة لا تكون فيه المنطقة في وضع إنذار جويّ . إنه منبر خشبيّ يحميه بعض حواجز الإسمنت الخفيفة يتسرّب الضوء إليه من خلال عشر نوافذ ، يتقدّمه مركز للهاتف يقوم بالحراسة أمامه ضابطُ صفّ . قال له «شتاوفنبرغ» بصوت واضح هادىء إنّه ينتظر مكالمة هاتفيّة مستعجلة من «برلين» . ثمّ دخل إلى قاعة المحاضرات وراء «كيتل» والجنرال «بوهلي» . وفي الساعة ١٢:٣٠ كانت الجلسة قد افتُتحت منذ دقائق قليلة ، وكان الجنرال «هويزنغر» يعرض آخر الأحداث على الجبهة الشرقيّة ، فقاطعه «كيتل» موضحاً سبب وجود «شتاوفنبرغ» ؛ فما كان من «هتلر» ، الذي كان جالساً بمفرده وسط عشرين شخصاً واقفين من حوله ، إلاّ أن وجّه إلى الكولونيل تحيّة سريعة ، ثمّ طلب إلى «هويزنغر» أن ينهي عرضه . وأسند «شتاوفنبرغ» حقيبته إلى إحدى الدعائم الخشبيّة المتينة التي تحمل الطاولة ، من الجهة الداخليّة ، أي في اتّجاه الفوهرر . وبعد ذلك خطا خطوة إلى الوراء ، ثمّ انتظر بضع ثوان وخرج .

لم يتمكّن «كيتل» من رؤيته إبّان خروجه ، ولكنّه تنبّه إلى غيابه . فخرج بدوره وهو يعتزم أن يخبر «شتاوفنبرغ» بأنّ دوره في الكلام قد اقترب ، وبأنّ عليه أن يكون على استعداد ، فلم يجده في ردهة الانتظار . فعاد أدراجه مرتبكاً .

وفي تلك اللحظة بالذات ، في الساعة ١٢:٤٢ ، انفجرت القنبلة . كان «شتاوفنبرغ» و«هافتن» قد غادرا مقام الفوهرر المحصّن ، وباتا ينتظران ، وهما يدخّنان سيجارة ، على مقربة من مكتب «فيلغيبل» . وأمّا الانفجار الذي سمعاه فكان شبيهاً بانفجار قنبلة من عيار ١٥٠ . وقد أبصرا اللهيب يتصاعد . وبلغت مسمعهما صيحاتُ الألم . لقد أُنجزت المهمّة !

لقد أخفقت المحاولة : « إنّها العناية الإلهيّة » (من كلام «موسوليني» إلى «هتلر»)

وانطلقت السيّارة باتّجاه المطار يقودها «هافتن» ، ولكنّ غيرة الوظيفة دفعت رئيساً لمركز المراقبة أمام الحاجز الخارجيّ إلى احتجازها برهة بعدما سمع دويّ الانفجار ، إلاّ أنّ «شتاوفنبرغ» اتّصل بالكابتن «مولندورف» ، وهو مساعد قائد مقرّ القيادة العليا ، فمنحه إذناً بالانصراف . ولم تمضِ دقائق حتّى كان يطير نحو «برلين» .

هبطت طائرة «شتاوفنبرغ» في الساعة ١٥،٤٥ في «رانغسدورف» ، فاتّصل هاتفيّاً بالجنرال «أولبرخت» ناقلاً إليه النبأ السعيد : لقد مات «هتلر» !

وهرع «أولبرخت» إلى «فروم» يبلغه الحدث العظيم . وطلب إليه أن يوقّع أمراً بتحقيق مخطّط «فالكوري» قدّمه له . وأمّا «فروم» ، الرجل الحوت ، وطوله متران و٤ سم ، وهو صاحب أفرع قامة بين الجنرالات الألمان ، فقد طالب بالحصول على إثبات ، فتناول «أولبرخت» سمّاعة الهاتف وطلب الاتّصال «بكيتل» بسرعة البرق ، وهو على يقين من أنّ «رستنبورغ» لن تجيب ، إذ المفروض أن يكون «فيلغيبل» قد شلّ حركة

مراكز الهاتف . ومع ذلك فقد سُمع صوت «كيتل» عبر الخطّ بعد ثوان قليلة ! قال له «فروم» ، الذي أخذ السمّاعة ، إنّ شائعة حول محاولة لاغتيال «هتلر» قد سرت في «برلين» ، فأكّد له «كيتل» ذلك ، وقال إنّ الفوهرر لم يصب بجروح بليغة والحمد لله . وقد ذهب ينتظر «موسوليني» في محطّة «رستنبورغ» . وسأل «فروم» عمّا إذا كان يعرف شيئاً عن مكان وجود الكولونيل «فون شتاوفنبرغ» رئيس أركانه العامّة . فأجاب «فروم» بحسن نيّة إنّه لا يعرف عنه شيئاً .

لم يرتب أحد في أمر «شتاوفنبرغ» للحال . كان الانفجار شديد العنف ، ولقد قُتل من جرّائه على الأثر أربعة هم : المساعد الجنرال «شمونت» ، وجنرال الطيران «كورتن» ، وكولونيل اسمه «براندث» كان قد غيّر اتّجاه الحقيبة بعدما تعثّر بها ، منقذاً بذلك ولا ريب حياة «هتلر» ، وأخيراً المختزل «بيرجر» . وخرج الناجون تغطّيهم الدماء . وقد تمزّقت ملابسهم ، سوداً كالزنوج ، وهم يولولون ؛ لقد ظنّوا لأوّل وهلة أنّ طائرة قد تمكّنت من إصابة هدفها . وبما أنّ المقرّ ذاك كان قد بُني حديثاً ، فقد ساد الاعتقاد بأنّ عمّالاً أجانب من منظّمة «تودت» قد دسّوا آلة جهنميّة تحت الأخشاب التي تغطّي الحضيض . ولكنّ «كيتل» ، وهو الوحيد الذي لم يُصب بخدش واحد ، تذكّر بعدئذ «شتاوفنبرغ» ...

«كنت أشعر بالحيانة تهيمن عليهم» .

وأعاد ظهور «هتلر» بعض الحشمة . وانصرف «هملر» إلى «برلين» وقد عيّن قائداً أعلى لجيش الداخل . وبعد ذلك راح «هتلر» للمرّة العشرين يعرض «الموسوليني» - الذي كان في هذه المرّة أكثر إذعاناً - ثقته بالنصر . ولم يتفجّر الغيظ المكبوت إلاّ في ساعة تناول الشاي . أصابت «هتلر» إذ ذاك نوبةٌ هستيريا ناقمة ، فراح يتوعّد الخونة وعائلاتهم وطبقتهم الاجتماعيّة ، منذراً بأرهب وسائل العقاب ... وفي «برلين» كان مشهد آخر قيد التمثيل . فبعدما وصل «شتاوفنبرغ» راح يقسم «لفروم» بأنّ «كيتل» كان يكذب ، وبأنّ «هتلر» قد مات ، وبأنّه شاهد جثّته تُخرج من بطن المقرّ المبقور . ورفض «فروم» التصديق . وكان «هوبنر» ، الذي طرده «هتلر» من الجيش في ١٩٤١ ، قد وصل وهو يحمل بزّته في حقيبته ، فدخل إلى المراحيض وغيّر ملابسه . أراد أن يطرد «فروم» من مكتبه ، ولكنّ «فروم» قاوم . وانتصب الاثنان الواحد في وجه الآخر ، وصوّب كلّ مسدّسه إلى خصمه من غير أن يطلق الرصاص . ولكنّ «فروم» جُرّد من سلاحه وألقي القبض عليه . وأذاع الحرس أوامر «أولبرخت» ، فسدّوا المنافذ وراحوا يجوبون الأروقة في دوريّات منتظمة . وكان مئات من الضبّاط يعملون في مكاتبهم من غير أن يشعروا بالمأساة التي كانت تجري على مقربة منهم .

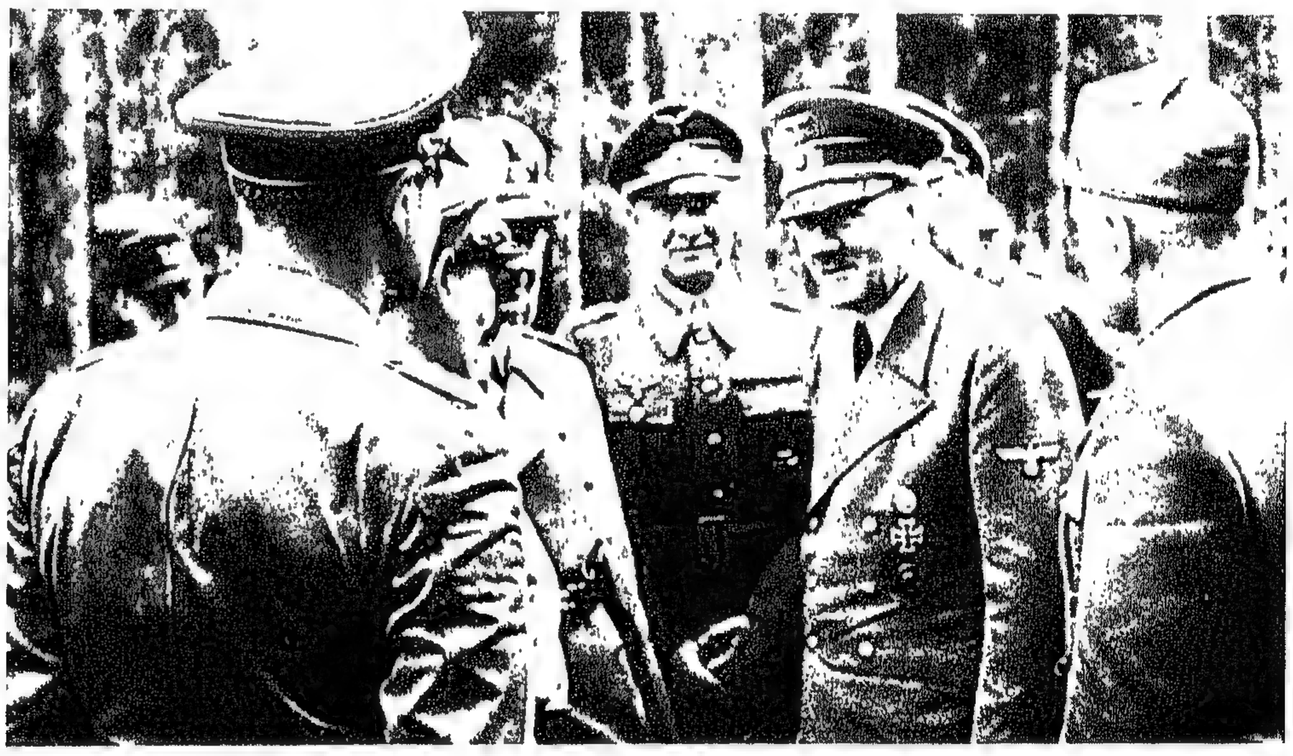

كانت الخيانة تهيمن على الحاضرين ...

«شتاوفنبرغ» محرّك المؤامرة .

في تلك اللحظات كان «هتلر» أهدأ الحاضرين جميعاً . وعندما دخل قطار «موسوليني» إلى المحطّة ، بعد توقّف طويل حدا الركّاب إلى الشكّ بحدوث أمر غير اعتياديّ ، كان «هتلر» واقفاً على الرصيف ، ملتفّاً برداء أسود طويل ، أمام «غورنغ» و«هملر» و«ريبنتروب» و«بورمان» وغيرهم ، الذين سارعوا في القدوم من مقرّات قياداتهم القريبة . وأمّا التحيّة التي أطلقها «هتلر» بيده اليسرى ، والخدش الظاهر فوق يده ، وسدّة القطن المندوف المدسوسة في أذنه اليمنى إلى الطبلة المنقورة ، فقد كانت الآثار الظاهرة الوحيدة لمحاولة الاغتيال . قال «هتلر» : «أيّها الدوتشي ، لقد فجّروا منذ لحظات آلة جهنميّة بقصد قتلي . ولكنّ العناية الإلهيّة قد حرستني» . وبعد الوصول إلى مكان الإجتماع اعتذر لضيفه واختلى «بهملر» ، فيما راح القوّاد النازيّون الآخرون الكبار يتشاجرون و«غورنغ» يهدّد «ريبنتروب» بعصا مارشاليّته ، وذلك أمام الإيطاليّين المشدوهين . ولقد قال المارشال «غرازياني» في ذلك فيما بعد :

كانت هذه المأساة تسير سيراً وئيداً . فقد خاب ظنّ «شتاوفنبرغ» إذ لم يرَ أيّ تحرّك للقوّات أثناء عبوره «برلين» . وعندما وصل اعتقد العالم أنّ كلمة السرّ «فالكوري» لم تُطلق إلاّ منذ لحظات وجيزة ، وذلك بفضل حزم الكولونيل «ميرتزفون كويرهايم» الذي قام مقام رؤسائه المتردّدين . ولم يصل «بيك» إلى الوزارة إلاّ في الساعة ١٦.٣٠ . وقد أضناه السقم . وكان «فيتزليبن» قد ذهب إلى «روستن» على بعد ٤٠ كلم من «برلين» للتشاور مع العريف البحريّ العامّ الأوّل «فاغنر» . ولم تكن مديرية مشاة «دوبيريتز» قد تلقّت الإنذار بعد . وأمّا الجنرالات الذين نحوا نحو «فروم» فأظهروا عداءهم للمؤامرة ، مثل «كورتزفلايش» . فقد أوفدوا بلاّ من أن يُعدّموا للحال بلا محاكمة . لقد شاهد المتآمرون بأمّ عينهم وسائل القوميّة الاشتراكيّة العاتية وهم يدركون أنّ عقابهم ، إذا أخفقوا ، سيكون موتاً شنيعاً . ومع ذلك كانوا يخوضون تجربتهم الحاسمة بحسن تدبير يليق برجال المجتمع ، وبتباطؤ يشبه تباطؤ الشيوخ .

بيك

فون هاسل

فروم

غوردلر

كانت كتيبة حرس «برلين» تحت إمرة الماجور «أوتو إرنست ريمر»؛ إنّه ضابط من الجبهة في الثانية والثلاثين من عمره، في جسده ندوب تسعة . قد قلّده الفوهرر بيده منذ مدة وجيزة صليب الفرسان . وقد نبّه «هيلدورف» «بيك» و«فيتزليبن» إلى أنّه يُستحسن إبعاد هذا الرجل بسبب ميوله السياسيّة المريبة ؛ ولكنّ السيّدين الوقورين لم يكترثا لهذا الإنذار ؛ فهما يفكّران بموجب القياس المنطقيّ التالي: ألجنديّ يطيع ، و«ريمر» جنديّ ، إذاً فسيبادر «ريمر» إلى الطاعة . ولمّا استُدعي «ريمر» إلى مقرّ القيادة أُبلغ أنّ الفوهرر قد مات ، وأُحيط علماً بالمهمّات الثلاثين التي أُوكلت إلى كتيبته للحفاظ على الأمن ، ومنها : السيطرة على مراكز الإذاعة، وتطويق حيّ الوزارات، واحتلال مركز الغستابو، وإلقاء القبض على الدكتور «غوبلز»، الخ... فلم يبدِ أي اعتراض ، ولم يطرح أي سؤال، وعاد إلى «دوبيريتز» يصدر أوامره، وانطلق بنفسه على رأس بعض المصفّحات لإلقاء القبض على «غوبلز» . ولسوف يقول بعد فوات الحين إنّ القضيّة كانت تبدو له مريبة ، ولكنْ ، حتى تلك اللحظة ، كان «فيتزليبن» و«بيك» مصيبين: فلقد أطاع الجنديّ «ريمر» الأوامر .

بيد أنّ «غوبلز» أنذر في الوقت المناسب ؛ فلقد أبلغه الخبرَ ملازمُ احتياط يُدعى «هاغن»، وهو ضابط إرشاد في الكتيبة. ولمّا دخل «ريمر» شاهراً مسدّسه وجد «غوبلز» رابط الجأش . ماذا يريد السيّد الماجور؟ توقيفه . ولماذا؟ لأنّ الفوهرر قد مات. فشال «غوبلز» بكتفيه : إنّ السيّد الماجور كان ضحيّة خدعة . ولكنّه كان يحمل حول عنقه صليب الفرسان. هل الفوهرر هو الذي قلّده إيّاه؟ أجل، بالفعل. إنّه ، إذاً ، يعرف صوت الفوهرر؟ حسناً ، فليصغ إليه .

وبظرف ثلاثين ثانية تمكّن «غوبلز» من الاتّصال «بجحر الذئب»، فأعطى «ريمر» السمّاعة . وإذا «بهتلر» يقول للضابط الشابّ إنّ بعض خونة الوطن الألمانيّ قد حاولوا بالواقع اغتياله ، وإنّه لم يُصب بجرح ولو طفيفاً . وإنّ العقاب كان يأخذ مجراه . وكلّفه شخصياً باعتقال المتآمرين ، وأمره بألاّ يطيع أوامر أحد غير الدكتور «غوبلز» بانتظار وصول «هملر»، وقال له إنّه يعتمد على حميّته وإخلاصه وشرفه .

كانت الساعة في ذلك الحين حوالي السادسة مساء . وعلى الرغم من أنّ المتآمرين قد غدوا يرتابون في صحّة موت «هتلر». فقد خُيّل إليهم أنّهم في طريقهم إلى الفوز بعدما تمكّنوا من السيطرة على وزارة الحربيّة ومقرّ القيادة العامّة. ومن «زوسن» نصّب «فيتزليبن» نفسه القائد الأعلى للجيش الألمانيّ، وانتحل «شتاوفنبرغ» اسم «فروم» وأصدر أوامر باعتقال الحكّام العسكريّين ورؤساء الغستابو ومعسكرات الاعتقال، إلخ... وتمّ الاتّصال «بباريس» حيث اتّقد «شتولبناغل» حماسة. وكان «كلوغي» في الجبهة ولكنْ كان مرتقباً أن يعود إلى «روش غويون» بين ساعة وأخرى. ولم يكن أحد ليشكّ في انضمامه، فلقد سبق وردّد غير مرّة أنّه يحب القضاء على «الخنزير هتلر» وتصفية الحرب الخاسرة .

كان النهار مروّعاً بالنسبة «لكلوغي». فلقد عاد يغطّيه العرق والتراب بعدما ألقى بنفسه في الحفر عشرات المرّات. وكان، بعد إصابة «رومل»، قد جمع تحت إمرته الشخصيّة قيادة الغرب العليا وقيادة المجموعة «ب». كان يذرع «نورماندیا» يومياً فأُتيح له أن يقف على حقيقة الظروف العصيبة التي تحارب القوّات فيها، تلك القوّات التي ظنّها متراخية مستسلمة بادىء ذي بدء . وكان الاجتماع الذي رئسه منذ برهة، والذي ضمّ جنرالات المجموعة الغربيّة المصفّحة ، قد انعقد في غابة قرب «سان بيار—سور—ديف»، إذ أنّ كلّ حراك حول أي مسكن كان يُعتبر بمثابة عمليّة انتحاريّة. كان النهار رائعاً، وهذا يعني أنّ الطيران العدوّ كان هائجاً . وكانت السماء خليّة متأجّجة ، وكانت كلّ طائرة من الطائرات التي حجبت الأفق تحمل النجمة البيضاء . وأمّا الاجتماع فقد كان نحساً . فالهجوم البريطانيّ شرقيّ «كين» مستمرّ منذ ثمان وأربعين ساعة، وبساط القنابل الذي طرحته الألفا طائرة في اليوم الأوّل قد أفنى القوّات الألمانيّة الأماميّة، ممّا استوجب استدعاء قوّات الاحتياط للحال؛ وكانت المصفّحات بكاملها تقاتل في منطقة تمتدّ من «تروارن» إلى «بورغيبوس» .

كان «شيدل» ما يزال رئيساً للأركان العامّة لمجموعة الجيوش . فقدّم «لكلوغي» تقريراً عن تطوّر الأحداث خلال النهار؛ وأضاف أنّ محاولة للاغتيال قد اقتُرفت ضدّ الفوهرر، وأنّها قد نجحت على ما يبدو؛ وقد نقل هذا النبأ وكأنّه تفصيل عاديّ من التفاصيل الإداريّة .

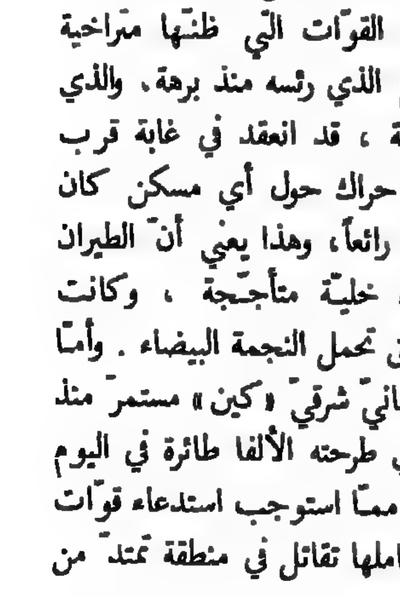

فون هوفاكر

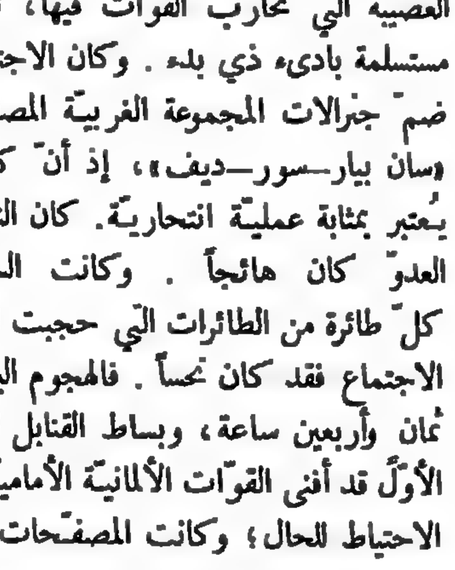

فون فيتزليبن

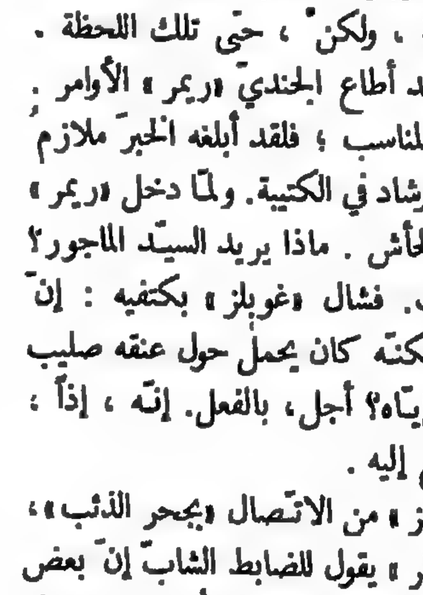

هوبنر

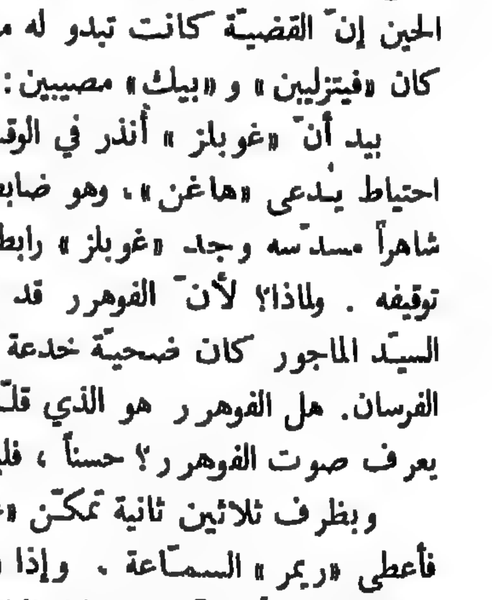

كاناريس

لم ينتفض «كلوغي». ولم تتبدّل أساريره. ولم يُدلِ بأيّ تعليق. بل اكتفى بطرح سؤال واحد: «هل من شيء آخر؟» وبإلقاء كلمة واحدة أخيرة: «شكراً».

إنّ «كلوغي» لغريب الأطوار حقّاً! فالحدث الذي داعب مخيّلته غير مرّة. ألا وهو اغتيال «هتلر». قد وقع من غير أن يحرّك لديه ساكناً. فقام يستحمّ. ثمّ غيّر ملابسه الداخليّة، وذلك بغية إنعاش قواه. والحصول على متّسع من الوقت للتبصّر في الأمور.

في الساعة ١٩ وصلت مكالمة هاتفيّة من «برلين». كان «بيك» يتكلّم: قال: «يا «كلوغي». لقد قُتل الفوهرر. أنا أدعوك إلى الانضمام لحركتنا في الحال... إنّني أذكّرك بأحاديثنا، وبالموقف الذي اتّخذتَه. كلا. إنّ الوضع ليس جليّاً تماماً في الوقت الراهن؛ فموت «هتلر» أمر محتمل، ولكنّه ليس ثابتاً تماماً ... ولكن هذا ليس بذي أهميّة، فعمليّتنا قد انطلقت. ولسوف تستمرّ حتّى النهاية. وكلّ شيء وَقْفٌ على جيش الغرب. عليك أنت! إنّني أطلب جواباً خالياً من الالتباس». وصبر

«فون كلوغي»: «أيّها السادة لقد أخفقت المحاولة ...»

«كلوغي» ريثما انتهى دفق الكلام العصبيّ المنطلق من فم الرجل الهرم الذي كان مرّة رئيسه؛ ثمّ قال: «عليّ أن أستشير أركاني العامّة. وسأعود إلى الاتّصال بك بعد نصف ساعة».

وبعد برهة أتى «شتولبناغل». وبرفقته الدكتور «هورست» صهر «شبيدل»، و«كايزر فون هوفاكر» أكثر المتآمرين حماسة وبلاغة في الإقناع. فاختلوا «بكلوغي» الذي لم يكن قد وفى بعد بوعده في العودة إلى الاتّصال «ببيك» والذي لن يفي به أبداً. وتسلّم «هوفاكر» زمام الحديث. وهو ليوتنان ـ كولونيل احتياط بسيط؛ قال: «لقد خسرنا الحرب. ضعوا حدّاً للمجزرة ... إمنعوا أرهب الكوارث من أن تحلّ بالشعب الألمانيّ ...» ولكنّ هذه البلاغة فاضت على كتلة من جليد. ونهض «كلوغي» قائلاً: «أيّها السادة، لقد أخفقت المؤامرة». فقال «شتولبناغل»: «ولكنّني كنت أظنّك تعلم ذلك». فأجاب «كلوغي»: «لقد علمت ذلك لتوّي من «رستنبورغ». كانت أيّة كلمة أخرى تُعتبر نافلة في مثل ذلك الوضع. لقد فهم «شتولبناغل» و«هوفاكر» القضيّة، ولقد علم «شتولبناغل» و«هوفاكر»، وآلاف غيرهما أنّه قد حُكم عليهم بالإعدام. فلقد اختار المارشال «كلوغي» ما اختار!

هل انتهى كلّ شيء؟ لا. كان «كلوغي» هو المضيف، فدعا زائريه لتناول الطعام. جلس المدعوّون حول المائدة حسب درجة رتبهم، في قاعة طعام الدارة الفخمة، وراح غسق تموز الطويل يتلاشى شيئاً بعد شيء؛ وبما أنّ خطوط الكهرباء قد تعطّلت بسبب القصف فقد جيء ببعض المشاعل. يا لها من مشاعل طويلة. جنائزيّة! لم يأكل من بين الحاضرين أحد غير «كلوغي»، ولم يتكلّم أحد غير «كلوغي»، فراح يسرد بعض ذكرياته عن حملة «روسيا»، وبعض النوادر عن حياته العسكريّة، وهو يضحك. وفجأة وضع «شتولبناغل» منديل الطعام وقال: «سيّدتي الفيلد مارشال، أتسمح بأن أكلّمك على انفراد؟» تردّد «كلوغي» برهة، ولكنّه رضي، واقتاد مرؤوسه نحو حجرة مجاورة. وفي قاعة الطعام كان السكوت تامّاً وكأنّ على رؤوس الحاضرين الطير. ولكنّ الباب عاد إلى الانفتاح بقساوة، وبلغت الآذانَ أصداءُ التعنيف العسكريّ الرنّانة كما لو كانت على سلّم ثكنة. لقد كان «كلوغي» يلعن ويشتم كما يلعن ويشتم جنديّ عاديّ! كان يصيح: «إنّ هذا لعجيب! إنّ هذا لغريب! مخالف للصواب! إنّه لعصيان! لقد أعطى الجنرال «فون شتولبناغل» إذاً أمراً باعتقال الجنرال «أوبرغ»، وقوّاد الصاعقة في «باريس»! يا «بلومنتريت». خذ الهاتف وألغِ هذا الأمر الأحمق في الحال»!

في «باريس» كانت الأمور تسير على خير ما يرام. كان الجنود ينفّذون باندفاع أمر اعتقال مساعدي النظام القائم. ولم يبد أحد من هؤلاء أيّة مقاومة. كانت أرتال من ناقلات الجيش الألمانيّ تقلّ نحو سجن «فرين» وقلعة «سان دوني» نحواً من ١،٢٠٠ شخص كانوا، لأربع سنين خلت، يخيّمون بالنظام النازيّ في العاصمة الفرنسيّة. وفي فندق «رافايل» كان ضبّاط «شتولبناغل» يحتسون الشامبانيا بانتظار عودة رئيسهم. كانت الإذاعة قد أعلنت أنّ الفوهرر قد نجا من محاولة اغتيال، ولكنّ الجميع كانوا مقتنعين بأنّ المارشال «كلوغي» منضمّ لا محالة إلى الانقلاب العسكريّ، وأنّه سوف يتفاوض مع الحلفاء.

حوالي الساعة ٢٣ تلقّى رئيس الأركان العامّة، الكولونيل «فون لنشتوف»، مكالمة هاتفيّة من «لاروش غويون» تأمره بتعليق اعتقالات النازيّين؛ فأجاب بأنّ الأوان قد فات، وبأنّ العمليّة قيد الإنجاز. وبعد نصف ساعة وصلت مخابرة من «برلين»؛ فما كان من «لنشتوف»، المصاب بمرض القلب، إلاّ أن انهار على مقعده فاقد الوعي. كان «شتاوفنبرغ» هو الذي يبلغ شركاءه في المؤامرة أنّ الانقلاب قد أخفق، وأنّه لم يبقَ لديهم سوى التفكير بسلامتهم الشخصيّة. فقد تمرّدت كتيبة «ألمانيا الكبرى»، وبدلاً من أن تقوم بحماية وزارة الحربيّة عمدت إلى تطويقها واجتياحها. وكان بعض جنود الصاعقة، وبعض أعضاء الغستابو، يسيرون مع الجنود. قال «شتاوفنبرغ»: «إنّهم أمام باب مكتبي، لقد أوشكوا على الوصول».

في «لاروش غويون» عاد «كلوغي» للجلوس إلى المائدة. وقد أصرّ على أن يعود «شتولبناغل» إلى مقعده من عن يمينه. وبعد تناول الكونياك رافق الجنرال حتّى سيّارته، وهمس في أذنه، بعدما عاد إلى سابق ألفته، النصيحةَ التالية: «لو كنت في وضعك لارتديت الثياب المدنيّة محاولاً الاختفاء». ولكنّ «شتولبناغل» لم يسمع، وهو لم يرَ كذلك اليدَ التي مدّها إليه المارشال مصافحاً.

في «برلين» أزفت ساعة النهاية. وبعد ما أُخلي سبيل «فروم» أخذته ثورة من السخط الحاقد، وقد اتّقدت حواسّه رغبة في أن يشهد زوال أولئك الرجال الذين كان لهم شريكاً بسكوته. وكان «فيتزليبن» قد عاد إلى منزله ينتظر ساعة اعتقاله. وأمّا «غوردلر»، الذي بقي مختفياً طوال النهار، فقد أركن إلى الفرار؛ وأمّا العريف البحريّ العامّ «فاغنر» فقد أقدم على الانتحار؛ وأمّا «هوبنر»، الذي أوعز إليه «فروم» بأن يسلك الطريق نفسه باسم صداقة قديمة بينهما، فقد أجاب بأنّه يرجو أن يتمكّن من الدفاع عن نفسه، فاقتيد إلى سجن «موابيت» العسكريّ. وتمكّن بعض المتآمرين من الفرار. ولكنّ غيرهم، ومن جملتهم «يورك» و«شفيرين» و«برتولد دي

شتاوفنبرغ». شقيق «كلاوس». فقد سيقوا إلى الغستابو. وأطلق «بيك» رصاصة على رأسه فأصيب بخدش في جبهته. ففقد الوعي ثمّ عاد إلى المحاولة بعد ما أفاق من غيبوبته. ولكنّه أخفق في محاولته للمرّة الثانية. وطلب «فروم» إلى ضابط صفّ أن يساعد «السيّد العجوز». فأخذ ضابط الصفّ رئيس الأركان العامّة السابق بين ذراعيه وذهب به إلى مكتب مجاور حيث أجهز عليه.

بقي أربعة أسرى كانوا كلّهم معاونين للكولونيل جنرال «فريدريك فروم» على درجات متفاوتة. واكتفى «فروم» بالتداول همساً مع «ريمر» و«سكورزيني» برهة وجيزة، ثمّ صرّح على الأثر بأنّ محكمة عسكريّة قد حكمت بإعدام الجنرال «أولبرخت». والكولونيل «ميرتز»، والليوتنان «هافتن». والكولونيل «شتاوفنبرغ»؛ فأنزلوا جميعاً إلى باحة الشرف وأعدموا على ضوء مصابيح السيّارة؛ في الوقت الذي كان فيه أسطول جويّ يسحق حيّاً من أحياء «برلين» الشماليّة بقصفه المدوّي الثقيل.

٢٢٤٦ طائرة تخرق جبهة "كوتنتان"

تعمّد الحلفاء باطّراد التقليلَ من قيمة حادث ٢٠ تموز الغريب الهائل. كانت الحكومات تعلم، بواسطة المتآمرين أنفسهم، قدمَ المؤامرة واتّساعها، ولكنّها رفضت دائماً أن توفّر أقلّ تشجيع لهذا الشكل من المقاومة الألمانيّة؛ على أنّها كانت تعارض الفكرة الراسخة الدافعة التي تقول بوحدة «ألمانيا» المطلقة مع زعيمها، كما كانت ترفض المبدأ الأوّليّ القائل بالتواطوء الحتميّ بين الاشتراكيّة القوميّة والعسكريّة البروسيّة. وقليلون هم الذين يكلّفون أنفسهم، حتى في أيّامنا هذه، فيلاحظون أنّه لم يظهر في الواقع بين كبار زعماء النازيّة بروسيّون أرستقراطيّون، بل لم يكد يظهر غير ألمان من الغرب والجنوب ينتسبون بالإجمال إلى أرومة كاثوليكيّة. وبشكل دائم إلى أصل اجتماعيّ وضيع أو متواضع: أمثال «هتلر» و«غورنغ» و«هملر» و«غوبلز» و«بورمان» و«لي» و«ساوكل» وغيرهم. كان من شأن هذا الاكتشاف الذي ظهرت فيه نخبة اجتماعيّة وعقليّة مفكّرة تعترف بجرائم النظام، وتربط الوطنيّة بمعاقبة المجرمين: أن يسيء إلى مبدإ الاستسلام بلا قيد ولا شرط. كان على «ألمانيا» أن تظلّ بمجملها تجسيداً لروح الشرّ، لأنّ الحروب تُدار بمبادىء بسيطة وبأوامر وموجبات قصيرة!

أسهم «هتلر» والحلفاء بالتالي في عرض حادث ٢٠ تموز كحادث تافه المعنى حقير. فعندما تكلّم الفوهرر في الإذاعة قرب منتصف الليل ليروي خبر محاولة الاغتيال التي جعلت منه ربيب «العناية»، أشار إلى أنّ المتآمرين كانوا «زمرة صغيرة جدّاً، وعصابة محدودة للغاية»، من الضبّاط المجرمين الحمقى، الساعين لتحقيق مآرب شخصيّة دنيئة سافلة. ومع أنّ «تشرتشل» كان ذا معرفة خاصّة بسوابق المؤامرة، اكتفى بأن يعلن أنّ الاغتيال المدبّر ضدّ «اللقيط الكهل» يدلّ على أنّ هيئة الأركان الألمانيّة تعترف بأنّ الحرب خاسرة لا محالة. وكتب «فون تريشكوف» ما يلي، قبل أن ينتحر بقنبلة بين الخطوط الألمانيّة والروسيّة: «كان الله قد وعد بالعفو عن «صادوم» إذا وجد فيها عشرة رجال صالحين. وأملي أن يرضى بألاّ يدمّر «ألمانيا» من أجل ما حاولنا أن نفعله، وفي أيّة حال لا يحقّ لأحد منّا أن يتذمّر من مصيره». ولا بدّ من مرور سنين من الهدوء والرويّة ليتبيّن الناس في ٢٠ تموز معالمَ «ذاك المجهود البطوليّ الذي بذله البعض لتحطيم السلاسل التي كان الجميع قد ارتضوها لأنفسهم».

بدأت في ٢١ تموز حركةُ انتقام وردع مخيفة: فقد أقسم «هتلر» ليمحونّ اسم «شتاوفنبرغ»، وأقسم النازيّون الأقحاح ليبيدُنّ الأرستقراطيّة إبادة كاملة. فقُتل بعض المساجين أمثال الجنرال كونت «شبونيك» المحكوم عليه بالإعدام بسبب التمرّد على الأوامر. وكان «هتلر» قد خفّض عقوبته. وشُكّلت لجنة خاصّة دُعيت «لجنة ٢٠ تموز الخاصّة» للإشراف على التحقيق. كما شُكّلت «محكمة شعبيّة» لمحاكمة المتّهمين. وصدرت الأوامر بإيقاف عدّة آلاف من الأشخاص. ووُعد من يقتل «غوردلر» بجائزة نقديّة تبلغ مليون مارك. ونُبشت جثث «شتاوفنبرغ» و«أولبرخت» و«ميرتز» و«هافتن» من الأرض ثمّ أُحرقت وذُرّ رمادها في الريح كما أوعز بذلك «هملر»: «لا فوق الأراضي المزروعة، بل فوق حقول التسميد!» وشُكّلت في الجيش «محكمة شرف» قبل المارشال «فون روندشتاد» رئاستها متسربلاً بالعار، وكان عليها أن تعيّن الضبّاط الذين يجب إحالتهم إلى القضاء النازيّ. ومهما يكن من أمر فإنّ «هتلر» لم ينتظر قراراتها ليكيل ضرباته. أحاطت الشبهات «بفروم» نظراً لتسرّعه الغريب في القضاء على «شتاوفنبرغ». فأُوقف واعتُقل. لم يشترك «كورت زيتزلر» رئيس هيئة الأركان في المؤامرة. ولكنّ صلات من الصداقة كانت تربط بينه وبين كثير من المتآمرين: فطرده «هتلر» من الجيش، وحرّم عليه ارتداء البزّة العسكريّة. وقبل «غوديريان» خلافته.

في «باريس» اعتصم رؤساء فرق الصاعقة والغستابو بالحكمة، وآثروا طمس خبر توقيفهم من غير مجد على عرض تفاصيله المخزية الخطرة؛ فاعتقد «هوفاكر» و«لينشتوف»، وكولونيل آخر يُدعى «فينغ». خلال بضعة أيّام أنّهم سينفذون من خروم الشبكة. بيد أنّ منظّمة الغستابو قد اكتشفتهم وأرسلتهم إلى «ألمانيا» بحكم التنكيل والموت. أمّا «شتولبناغل» فقد عرف مصيراً أشنع وأروع: استُدعي إلى «برلين» ليبرّر تصرّفه، فأمر سائقه بأن يقوم بدورة تعرّج به على ميدان موقعة «فردان». ولمّا صار على مقربة من «فاشروفيل»، حيث قاتل عام ١٩١٦، أطلق على رأسه رصاصة فأطار عينيه الاثنتين؛ ولمّا وُضع في المستشفى تحت تأثير المخدّر تلفّظ باسم «رومل»...

أمّا على جبهة «نورماندیا» فلم يدع احتدام القتال للمحاربين فرصة الاهتمام باعتداء «رستنبورغ». وفجأة قرّر «مونتغومري» إيقاف الهجوم، بعدما تقدّم البريطانيّون مسافة ٦ أميال واعتقلوا ٢،٠٠٠ أسير — وهي، لعمري، نتيجة ضئيلة بالنظر للوسائل المعتمدة وللآمال المعقودة. ظهر بعض الانتقادات اللاذعة في الصحافة الانكليزيّة والأميركيّة، فقلق «أيزنهاور»؛ ذاك أنّ سابقة كانت تقلق الأفكار وترهقها، ألا وهي حملة «الدردنيل». فقد أرسى الانكليز رأس جسر كما فعلوا عام ١٩١٥ ودعّموه. ولكنّهم لم يتمكّنوا من الخروج منه، وتسمّرت الحملة في حرب حصار... هذا، فيما انهارت الجبهة الألمانيّة في الشرق، وكاد الجيش الأحمر القادم من «الفولغا»، يدرك «النيمن».

درست اللجنة المكلّفة بإعداد الغزو عمليّات نزول أخرى، التماساً للخروج من هذا المأزق، ففكّرت «بنورماندیا» العليا، وبشماليّ «بروتانيا»، و«الكيبرون»، وما إليها. وبعد التروّي آثرت أن تعمد إلى محاولة جديدة في «الكوتنتان»: فالسياجات المقيتة، والدروب المنخفضة اللعينة، أثارت قرف الجنود الأميركيّين، ولكنّ «برادلي» ظنّ، لكثرة ما أكبّ على دراسة خرائطه، أنّه قد اكتشف منطقة هجوم مناسبة إلى حدّ ما، تقع غربيّ «سان-لو» مباشرة، بين قريتي «هيبيكروفون» و«مونترول». فالأرض هناك وعرة كثيرة العقبات، إنّما هي قليلة الأشجار نوعاً، تسير فيها ممرّات التوغّل باتّجاه الجنوب الغربيّ متسلّلة بين

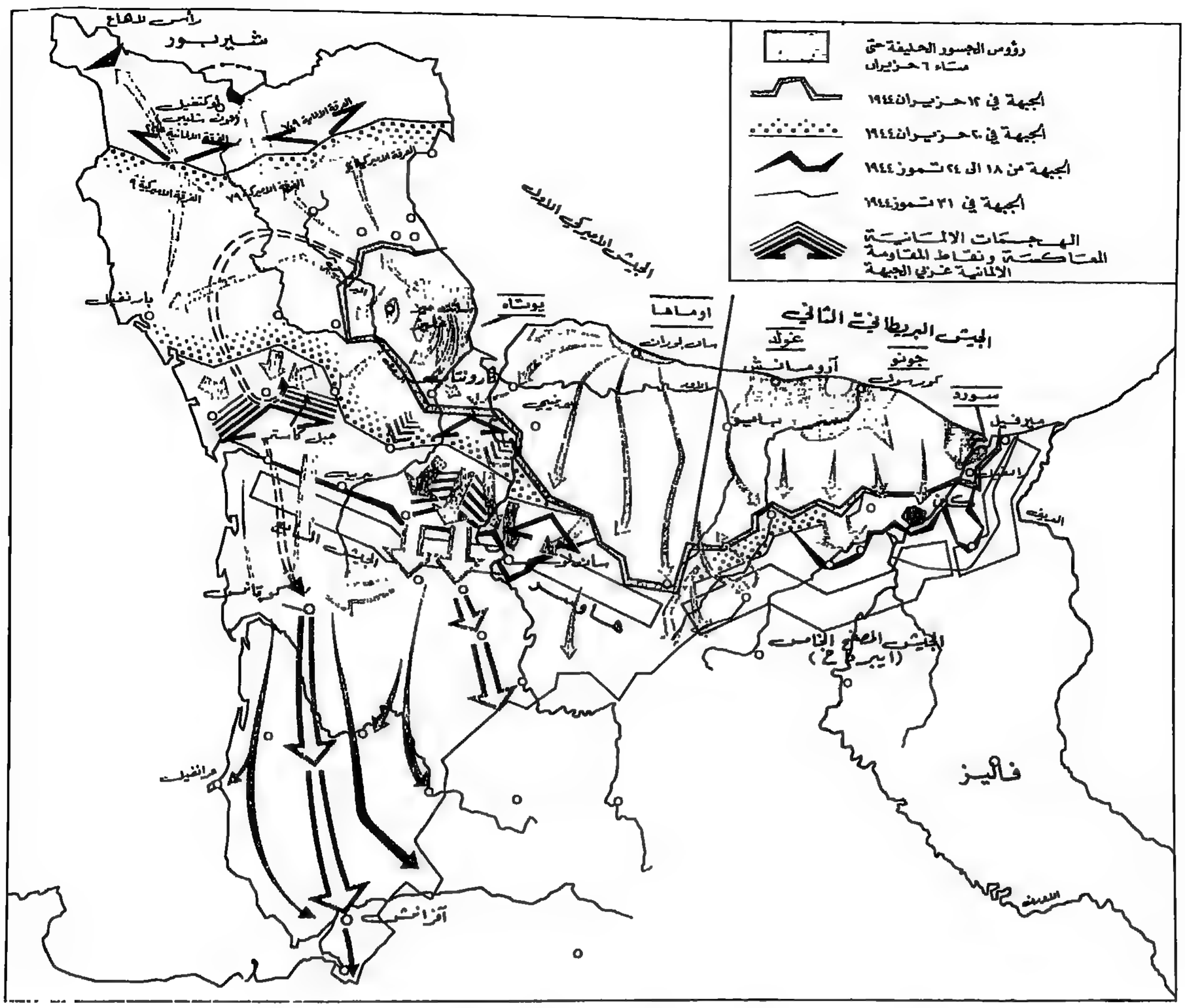
رؤوس الجسور الحليفة حتى مساء ٦ حزيران
الجبهة في ١٢ حزيران ١٩٤٤
الجبهة في ١٣ حزيران ١٩٤٤
الجبهة من ١٨ الى ٢٤ تموز ١٩٤٤
الجبهة في ٣١ تموز ١٩٤٤
الهجمات الالمانية المعاكسة ونقاط المقاومة الالمانية غربي الجبهة
رأس الهاغ
مشيرلبور
الجيش البريطاني الثاني
الجيش الاميركي الاول
الفرقة الاميركية ٩
الفرقة الاميركية ٧٩
الفرقة الاميركية ٨٣
الفرقة الاميركية ٨٢
الفرقة الاميركية ٨٠
الفرقة الاميركية ٨٧
الفرقة الاميركية ٨٦
الفرقة الاميركية ٨٤
الفرقة الاميركية ٨٨
الفرقة الاميركية ٨٩
الفرقة الاميركية ٨٥
الفرقة الاميركية ٨١

طائرات «لانكستر» التابعة لسلاح الجوّ البريطانيّ لم تكن مهيّأة إلاّ لإلقاء القنابل الضخمة، فخشي «برادلي» ما تحدثه من الحفر الواسعة القمعيّة الشكل التي عاقت التقدّم البريطانيّ في ناحية «كين»، فاستبعدها.

أمّا المنطقة التي سيناولها التمهيد الجويّ فمستطيل يبلغ ٧ كلم طولاً و٣ كلم عرضاً، وتشكّل إحدى أضلاعه طريق «بيرييه–سان–لو»: ٢٠ كيلومتراً مربّعاً ستسحقها ٢،٢٤٦ طائرة، أي ما يعادل طائرة لكلّ هكتار من الأرض. ثمّ تلج الثغرةَ التي ستفتحها المطرقة الجويّة ثلاثُ فرق من جنود المشاة هي ٩ و٤ و٣٠، ثمّ تجتازها الفرقتان المصفّحتان ٢ و٣ فتسيران باتّجاه الجنوب الغربيّ، وتعدوان نحو «كوتانس» «فغرانفيل» «فأفرانش»، فتطوّقان القوّات المعادية المقاتلة ناحية «بيرييه» و«ليسي». والأمل كبير في انهيار مقاومة «الكوتنتان» دفعة واحدة.

في الجانب الألمانيّ تمّ التراجع خطوة خطوة، من مرتفعات «لاهي–دي–بوي» حتى مسكب مروج «جورج» المستنقعيّة التي تنتهي بمصبّ عريض. كانت فرقتا دبّابات «ليهر» والصاعقة الـ ١٢، لأيّام خلت، قد زُجّتا غربيّ «سان لو» في محاولة يائسة لإنقاذ المدينة. أمّا الآن فيعتقد «كلوغي» أنّ الزحف الانكليزيّ سيتحرّك من جديد، ولذا فهو يريد أن يسترجع الفرقتين المصفّحتين لإعادتهما إلى ناحية «كين». ولقد تمّ بالفعل استبدال فرقة الدبّابات الصاعقة ١٢، وكان على الفرقة «ليهر» أن تُستبدل أيضاً بعدما وافق «هتلر» أخيراً على سحب بعض الفرق من «بادي كاليه»، إلاّ أنّ القيادة المحليّة قد احتفظت برجال «بايرلين» ودبّاباته، نظراً لاقتناعها بضعف خطوطها؛ فأولئك الرجال، وهم نخبة جيش الغرب، هم الذين يمسكون بالجبهة ما بين «مونترول» و«هيبيكروفون» بمعونة بعض فئات من المظليّين وحطام فرقة المشاة ٢٧٥.

ولكنّ المطر ما فتىء ينهمر، فأُرجئت المهاجمة الأميركيّة، المعيّنة في الأساس ليوم ١٨، مرّتين، ثمّ قُرّرت ليوم ٢٤؛ وما أقلعت الأسراب الجويّة حتى اكفهرّت السماء وسُدّت منافذها، فصدر الأمر بعودة الطائرات. لكنّ مجموعات متعدّدة لم تسمعه فنفّذت مهمّاتها وألقت ٨٠٠ طنّ من القنابل، فقتلت وجرحت بعض الألمان، غير أنّها أصابت كذلك ١٥٦ أميركيّاً فكانت سبباً في إثارة الرعب والتراجع؛ فشمت رجال الدبّابات الألمان، مع ما أصابهم من خسائر، لدى رؤية العدوّ يفرّ من قنابله ذاتها!

في اليوم التالي، ٢٥ تموز، ذكر تقرير مدهش رُفع من الخطوط الأولى إلى مقرّ هيئة الأركان الألمانيّة: «تراجع العدوّ تراجعاً عامّاً...» إقتربت المدفعيّة الطائرة بكاملها هذه المرّة، ونظراً لما خلّفته مشاهد الأمس من وقع بليغ في نفوس الأميركيّين، فرّت أفواج بكاملها تلقائيّاً أو انصياعاً لأمر. بيد أنّ الرضى الألمانيّ لم يدم طويلاً هذه المرّة، فالزوبعة التي انقضّت على المستطيل الذي رسمه «برادلي» فاقت كلّ ما شوهد خلال الحرب على الجبهات كافّة. هُشّمت المواقع الألمانيّة تهشيماً، وتفجّرت الذخائر، ودُمّرت الأسلحة والدبّابات، وبُقرت السياجات، ومُزّق الرجال شرّ ممزّق، ومن بقي منهم كان أشبه بالحيوانات المروّعة. وراح بعض الجنود، من الذين اجتازوا خمس سنوات من الحرب، يرتجفون وينشجون بالبكاء، وجُنّ منهم الكثير. إرتعدت الأرض نفسها، فهتف بعض المدنيّين في «سان–لو» القريبة، التي عرفت أهوال الحرب، أنّ العالم قد أدرك نهايته، فيما ظنّ البعض الآخر أنّ أحد المتحاربين قد اخترع سلاحاً جديداً مروّعاً. وأخيراً كست المنطقةَ المهاجمةَ موجةٌ من النيران الملتهبة أضرمتها موادّ «النابالم» التي ألقتها المطاردات – القاذفات، حتى لبدا مُحالاً أن يسلم إنسان من ذاك الجحيم.

دفع الأميركيّون كذلك نصيبهم من الضحايا، إذ تكرّر خطأ الأمس وأُلقيت قنابل شماليّ طريق «بيرييه–سان–لو». فسقط مئات القتلى والجرحى، بينهم الجنرال «ليسلي ج. مك نير» الذي استحال هباء في سيّارة الجيب. وكان قد أتى لمشاهدة المعركة من «انكلترا» حيث كان يأمر مجموعة من الجيوش موهومة، يُقصد منها إبقاء العدوّ في خشية نزول جديد. ولذا وجب إبقاء خبر وفاته سريّاً كي لا تُفتضح الحيلة.

وفي تمام الساعة ١١، إذ شنّ الكنديّون هجومهم في ضواحي «كين» لتجميد قوّات الاحتياط الألمانيّة، اجتاز الأميركيّون طريق «سان–لو–بيرييه»، وقد قيل لهم غير مرّة إنّ القصف الجويّ سيقضي على المدافعين عن بكرة أبيهم؛ وإذا ببعض الناجين الألمان في «لوزون» وغيرها يرفعون رؤوسهم، فيقعون على بعض الأسلحة ويعودون إلى القتال. فيمسك الكولونيلات وقوّاد الفرق المتهيّبون كتائبهم الزاحفة من غير أن تلقى مقاومة. ويؤخّر الجنرال «كولتر» دخول فرقه المصفّحة، على اعتبار أنّ الثغرة التي فتحها جيش المشاة لم تكن كافية. ويأزف المساء، وإذا التقدّم لا يتعدّى كيلومترين، وإذا «مارينيي» و«سان جيل». هدفا النهار، ما يزالان في يد العدوّ. كانت الخيبة مريرة، ولقد ظهرت بوادرها بتوجيه انتقاد لاذع إلى سلاح الطيران، فقال الجنرال «هوبز»: «لم نرَ حتى الآن أثراً للقصف.»

لم يكن الحكم منصفاً؛ فضعف التقدّم يعود في الدرجة الأولى إلى ضعف الحميّة الذي اتّصف به هجوم المشاة. أمّا القصف الجويّ فقد دمّر مبدئيّاً فرقة الدبّابات «ليهر»، وفتح في خطوط العدوّ ثغرة فعليّة. إنهارت جيوب المقاومة المحليّة في ٢٦ و٢٧، وفي ٢٨ اندفع على طرقات «كوتانس» و«أفرانش» رتلان مصفّحان قويّان.

أمّا عمل القيادة الألمانيّة فبات مستحيلاً؛ فالخطوط الهاتفيّة قد تقطّعت، والاتّصالات اللاسلكيّة تجتذب الطائرات؛ وضبّاط الاتّصال فريسة لطائرات المطاردة تصليهم نيرانها على الطرقات. فوجيء الجنرال «فون شولتيتز» بظهور الدبّابات الأميركيّة في «تيرانس» المحترقة، ففرّ عبر الحقول، ولم يتّصل بهيئة أركانه إلاّ ليعلم أنّ الجنرال «إيلفلدت» قد استُبدل به على رأس فيلقه الـ ٨٤. وكذلك أُعفي «بمسل»، رئيس هيئة أركان الجيش السابع، من منصبه، تكفيراً لذنب رئيسه: جنرال فرق الصاعقة «هاوزر»، الذي سحب ميسرته ناحية الجنوب الشرقيّ، خلافاً لنيّات «كلوغي»، فقطع بذلك اتّصاله بساحل «الكوتنتان»، فلم يبقَ البحر يحمي جانب الجيش الألمانيّ. دخل الأميركيّون مدينة «كوتانس» في ٢٩ تموز، وفي ٣٠ استولوا على «أفرانش»، وفي ٣١ احتلّوا «بنتوبولت»، آخر محلّة نورماندية على طريق «بروتانيا».

كان عليهم أن يبلغوها في اليوم العشرين لبدء النزول. فلم يبلغوها إلاّ في اليوم الرابع والخمسين؛ ولكنّهم بلغوها.

في "الفيركور" حيث سقط قناع المقاومة

إنّ قتال محاربي «فيركور» لصفحة من أنبل صفحات المقاومة الفرنسيّة الداخليّة.

هذا، وقد لعب جبل «فيركور» المنيع، وهو حصن طبيعيّ يجاوز المئتي كلم، ومنعزل بسبب وجود أودية «دراك» و«الإيزير» و«الدروم» و«الرون»، على مقربة مباشرة من «غرونوبل»، دوراً هامّاً عهد به إليه الحلفاء. كان عليه أن يقوم مقام حصن داخليّ لتجميع قوّات المنطقة الناشطة، وأن يكون بمثابة ملجإ للمجموعات الحرّة. وهناك أيضاً كان متوقّعاً أن يجري إنزال الرجال والعتاد بواسطة المظلاّت.

١

٢

٣

٤

١ ــ أوجين شافان (الملقّب بكليمان).

٢ ــ الكومندان هويي (الملقّب بهرفيو).

٣ ــ جان بريفو (الملقّب بالكابيتين غوديرفيل).

٤ ــ الكولونيل ديكور (الملقّب بيايار).

الكابيتين غيير (الملقّب بتيفولي).

وأخيراً ، كان يُرتجى من «فيركور» أن يقوم بدور رأس جسر داخليّ بعد النزول جنوبيّ «فرنسا» .

في آذار ١٩٤٤ لم يكن جهاز المقاومة في «الفيركور» يعدّ أكثر من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رجل ، وهم جنود من جيش الهدنة الذي حلّه الألمان ، أو متمرّدون على «خدمة العمل الإجباريّ» ، أو متطوّعون، أو أسرى هاربون ، إلخ . وكان يؤمّن التجنيدَ ضبّاطُ وضبّاطُ صفّ قدامى ينتمون إلى وحدات مختلفة ، وخصوصاً إلى كتيبة القنّاصة المرتجلين السادسة ، وإلى فوج الخيّالة المدرّعين ١١ ، وإلى فوج المشاة الجبليّين ١٥٩ .

كانت المقاومة تحت سلطة الكولونيل «زيلر» (الملقّب «بجوزيف») قائد المنطقتين العسكريّتين «ر ١» و «ر ٢» الممتدّتين من «بروفانسا» إلى «الجورا» . وأمّا رئيس الـ «ر ١» ، التي تتضمّن «الفيركور» ، فكان الكولونيل «ديكور» (الملقّب «بيايار») . وأمّا المقاومة عينها فقد كانت في البدء تحت إمرة الكابيتين «جيير» (الملقّب «بتيفولي»)، ثمّ الكومندان «هويي» (الملقّب «بهرفيو»)، وكان رئيس المقاومة المدنيّة هو «أوجين شافان» (الملقّب «بكليمان») .

ومنذ شتاء ١٩٤٢ ــ ١٩٤٣ نُظّمت المعسكرات في الجبل لإيواء المقاومين ، ولكنْ ، بعد سلسلة من الاشتباكات مع الألمان أعقبتها الاعتقالات ، تحوّلت المعسكرات إلى منظّمة أكثر طلاوة من مجموعات ثلاثينيّة بقيت الحال على ما هي حتّى نزول الحلفاء في «نورماندیا» . فعمدت الوحدات التي شُكّلت سرّاً إلى التجمّع ، وأبلغ المتطوّعون مسبّقاً ، فراح الانفراديّون يتواكبون زرافات ، حتّى غدا «الفيركور» يعدّ أكثر من ٤٠٠٠٠ مقاتل. وأنزل الحلفاء بالمظلاّت قوّات مهمّات عديدة ، ومن جملتها قوّة فدائيّي الكابتن «تابرز» الأميركيّة .

في ١٣ حزيران وقعت أوّل معركة في منطقة «سان نيزييه» . وفي الأيّام التالية وقعت معارك ضارية بين المقاومين والجيش الألمانيّ . وأُنزلت إلى المقاومين بواسطة المظلاّت دفعتان من السلاح والمؤن في ٢٥ حزيران و ١٤ تموز . فساعدتا بعض الشيء على الصمود . ولكنّ فرقة المشاة الجبليّين الألمان ١٥٧ ، بإمرة الجنرال «بفلوم» ، تساندها ٢٠ طائرة شراعيّة هبطت فوق نجد «فاسيو» وشنّت هجومها . فأرغم الفرنسيّون على التراجع وقد رزحوا تحت تفوّق العدوّ العدديّ . وكان العقاب الألمانيّ قاسياً : فقد قتل الألمان عدداً من المقاومين ، وذبحوا المدنيّين ، أو شنقوهم ، أو رموهم بالرصاص . كما حصل في «فاسيو». وفي ٢٧ تموز اجتاح الألمان مغارة «لوير» التي حوّلت

بعد إعدام الرهائن في «الفيركور» . وقد وُجدت هذه الصورة في حوزة أسير ألمانيّ .

مقرّ وحدة من وحدات المقاومة.

فتيان المقاومة السريّة في بزّة قنّاصة «الألب» يتدرّبون على القتال .

إلى مستشفى . فأجهزوا على الجرحى . وأعدموا الممرّضين أو نفوهم إلى «ألمانيا» .

ومنذ ٢٣ حزيران كان أمر التفرّق قد صدر عن الكومندان «هويي» . فمهمّة «الفيركور» قد أُنجزت جزئياً . فإن هو لم يكن قد قام بوظيفته كرأس جسر داخليّ كما كان متوقّعاً في المخطّطات الأوّليّة . فقد كان . على الأقلّ . نقطة تثبيت هامّة مكّنت من تجميد القوّات الألمانيّة التي كان بإمكانها تأخير تقدّم القوّات الأميركيّة الفرنسيّة القادمة من «بروفانسا» .

دوريّة من رجال المقاومة في «الفيركور» .

مغارة «اللوير» حيث أجهز الألمان على الجرحى من رجال المقاومة .

نجد «غلبار» .

إنهّا الحِـرب ،
حتى في قـلب "فرنسـا" الفيشـيّة

لا تزال ٧٠٠ ضريح ـ لمحارب أو مدنيّ مغتال ، تحيي ذكرى معارك رجال المقاومة في «الفيركور» . إنّ التقارير المتناقضة الواردة إلى هيئة أركان الجنرال «أيزنهاور» قد حملته على اعتبار عمل «المقاومة الفرنسيّة الداخليّة» كهبة ـ أو كتتمّة لعمل القوّات الحليفة النازلة في «نورماندیا» و«بروفانسا». ولكنّ الوقائع غالباً ما تعدّت التقديرات ؛ فأعمال التخريب التي نالت الخطوط الحديديّة ، والجسور ، والطرقات ، والغارات التي شُنّت على القوافل ، قد أثبتت جدواها وأخّرت سير الأمداد الألمانيّة الموجّهة إلى «نورماندیا» ؛ كما أخّرت انسحاب قوّات الجيش الألمانيّ .

أمّا في ما يتعلّق بفرق المقاومة، فلم يكن نشاطها متساوياً في كلّ مكان. فقد حقّق بعضها قبل وصول القوّات الحليفة عمليّات رائعة في

الليوتنان «تيودور موريل» الملقّب «بتوم» ، خرّيج معهد «سان سير» الحربيّ . إنّه رائد المقاومة السريّة في «غلبار»، وقد قُتل في «اونترومون» في ٩ آذار ١٩٤٤ .

تحرير المدن والقرى؛ فيما لم يمكّن ضعف تسليح البعض الآخر وقلّة رجاله إلاّ من القيام بأعمال سطو محدودة ضدّ الأرتال الألمانيّة المتقهقرة . ولا يحقّ لأعمال التطرّف والإفراط التي انساق إليها بعض فرق المقاومة، قبل التحرير وخلاله وبعده، وقد أتت في الغالب انتقاماً لأعمال مماثلة قام بها الجيش المحتلّ، أن تمحو من بالنا استشهادَ فرنسيّين كثيرين؛ واستشهاد فرقة مقاومة «غلبيار» في «السافوا» العليا خصوصاً .

كان جنود «غلبيار»، كرفقائهم في «الفيركور»، تحت إمرة ضبّاط

بعض الأمداد الحليفة الملقاة بالمظلاّت إلى رجال المقاومة.

الكابيتين «موريس أنجو» خليفة «موريل». قُتل في ٢٦ آذار ١٩٤٤.

وقوّاد من الجيش العامل. ينتمي أكثرهم إلى كتيبة قنّاصة «الألب» السابعة والعشرين. وكانوا، منذ نهاية كانون الثاني ١٩٤٤. قد تمركزوا على نجد يعلو البحر بمقدار ٥٠٠ . ١م. بدأت العمليّات في ٥ شباط بخطف الجند في «تون»؛ واستمرّت خلال شهرَي شباط وآذار بمعارك ضارية جدّاً بين رجال المقاومة، والجند الألمان وقوّات الحرس العسكريّ الجمهوريّ التابعة «لفيشي». تدخّل سلاح الطيران الألمانيّ في العمليّات في مطلع آذار. ثمّ تدخّل الجيش الألمانيّ في ٢٤ آذار تسانده المدفعيّة مساندة قويّة ويدعمه الطيران. جرت العمليّة بإشراف الجنرالين «نيهوف» و«بفلوم»: فسُحق رجال المقاومة وأُرغموا على التراجع في كلّ مكان. وكانت عمليّة القمع قاسية صارمة: رُمي بالرصاص وإجلاء (لم يوسر غير ٢٠٠ من أصل ٥٠٠ من الناجين). أمّا الذين تمكّنوا من الفرار فقد التحقوا بمجموعات أخرى في المنطقة. واشتركوا بمعارك التحرير.

معسكر لرجال المقاومة السريّة في «بروتانيا».

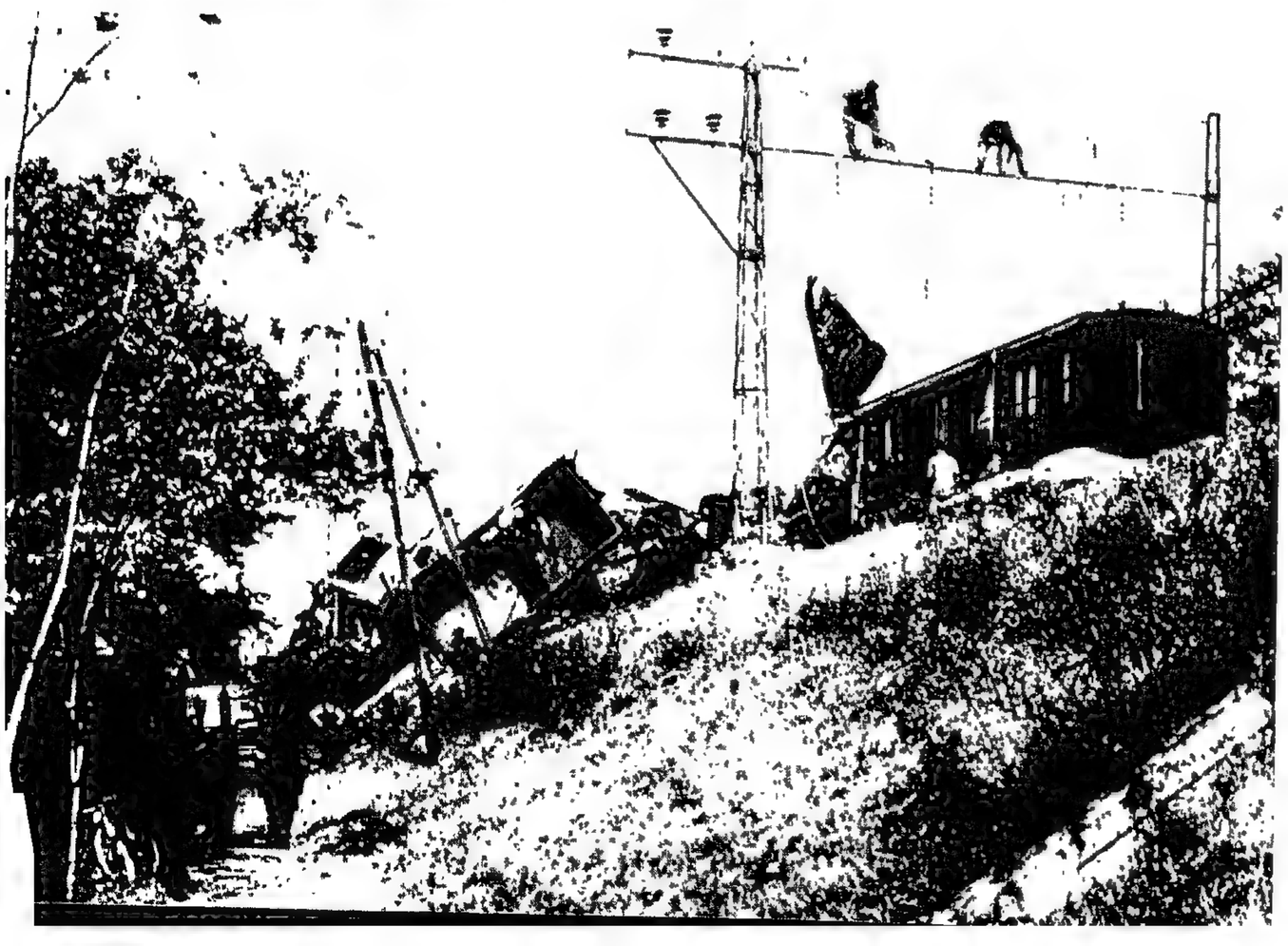

لقد كان لعمليّات المقاومة التخريبيّة اليد الطُّولى في شلّ حركة المواصلات الألمانيّة. ويبدو في الصورة قطار أُخرج عن خطّه في ناحية «بو».

يَوم مجــزرة : "أورادور ـ سُور ـ غــلانُ"

يرجع سبب مأساة «أورادور ــ سور ــ غلان» إلى اعتقال رجال المقاومة الليوتنان كولونيل «كامبفي» بالقرب من «سان ليونار». وفي اليوم التالي ، الموافق نهار السبت في ١٠ حزيران ١٩٤٤ ، وصلت سريّة الفوج «الفو هرر» الثالثة إلى «أورادور» يقودها «ديكمان» ، بعدما تلقّت تعليمات خاطئة تقول إنّ «كامبفي» كان معتقلاً هناك ، وإنّه سوف يُعدم فيها أمام الشعب . واجتاح «ديكمان» جنونٌ قاتل ، فأمر بقتل الرجال كافّة وإحراق كلّ منزل . ولجأ النساء والأطفال إلى الكنيسة ، ولكنّهم هلكوا فيها طعماً للنار ، أو فريسة سهلة لرصاص الألمان. وقد كان حصاد المجزرة ٦٤٢ من الضحايا تتراوح أعمارها بين ١٨ يوماً و٨٥ سنة . وأمّا الناجون الوحيدون فامرأة واحدة ، وخمسة رجال ، وطفل واحد!

وقد قُتل «ديكمان» في «نورماندیا» بعدأيّام قليلة. وكان قائد فيلقه ، «ستادلر» ، قد أقام ضدّه دعوى قضائيّة ؛ وكان والي «فيين العليا» . «فروند فالاد» . والجنرال الألمانيّ «غلينيجر» قائد موقع «اليموج» ، وحكومة «فيشي» ، والمارشال «رومل» ، قد اعترضوا جميعاً على العمل الشائن . ولكنّ موت «ديكمان» ، والفناء الجزئيّ الذي عصف بالسريّة الثالثة ، واعتراض «هتلر» ، والاندحار الألمانيّ في «فرنسا» ، عوامل تضافرت لإيقاف الملاحقات .

وبعد عشر سنوات أحدثت قضيّة «أورادور» في «فرنسا» هيجاناً عميقاً. كان ثلث جنود فوج «الفوهرر» من الشبّان الألزاسيّين المجنّدين تلقائيّاً في قوّات الصاعقة ــ كما كانت الحال بالنسبة للكثيرين من الألمان. وقد مثل اثنا عشر جنديّاً منهم أمام مجلس حرب «بوردو» في عداد عشرين متّهماً ، فحوكموا بمقتضى قانون ظرفيّ يتناول الجرم الجماعيّ . وفي ١٢ آذار ١٩٥٣ ، وبعد ستّة أسابيع من المداولات أثارت سخط «الألزاس» ، أصدر مجلس الحرب حكمين بالإعدام ، واحداً منهما بحقّ ألزاسيّ ، و١٢ حكماً بالسجن أو بالأشغال الشاقّة . ولكنّ عقاب الموت خُفّف فيما بعد ، وأطلق سراح المحكومين سريعاً .

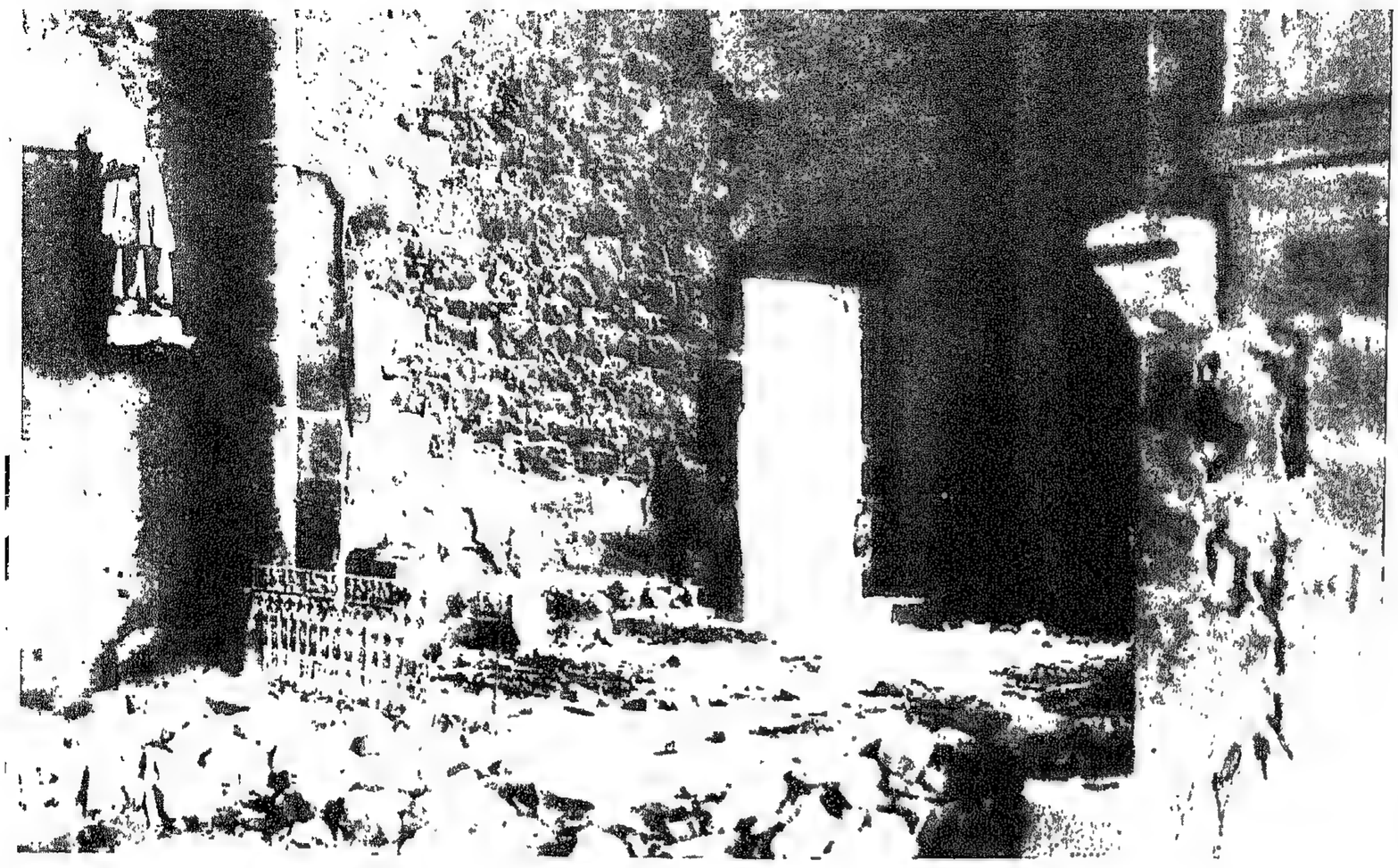

وحسب شهاده الناجية الوحيدة . «مارغوريت ; وفانش» . التي تمكّنت من الهرب من خلال إحدى النوافذ وهي مصابة بجروح بليغة . كان حريق الكنيسة قد شبّ «من خلال صندوق يبلغ علوّه علوّ طاولة سرير جانبيّة» . أشعل الألمان فتائله . «فاندلعت النيران ماوّنة تبهر العيون وتخنق الأنفاس» . وأطلقت كذلك على حشد النساء والأطفال عيارات ناريّة عديدة . وقد هلكت معلّمات المنطقة الخمس داخل الكنيسة ; ومن جملة تلامذة «أورادور» الـ ٢٤٢ لم ينجُ من المجزرة غير ولد واحد هو «لوران روجيه غودفرين» .

كان معروفاً عن «أورادور» أنّها دسكرة محافظة وآمنة في «الليموزان» . حيث كان نشاط المقاومة وتعدّياتهم جسيمة . وكان عدد السكّان قد زاد بسبب اللاجئين من «الورين» . والعائلات التي كانت تهرب من قصف المدن الكبرى . وبسبب المدنيّين الذين قدموا في ١٠ حزيران من «ليموج» بخطّ السكّة الزراعيّة سعياً وراء تموين إضافي . وفي الوقت الذي كان فيه طعام الغذاء يقدّم في فندق «أفريل» وفندق «ميلور» دخل رجال الصاعقة بملابس القتال وأوقفوا سيّاراتهم في ساحة الكنيسة .

كان الألمان قد سمعوا وراء السكّان في منازلهم . فأخرجوهم وجمعوهم في السوق . وطلب من المختار . الدكتور «ديزورتو» . أن يسلّم خمس رهائن . فتطوّع بنفسه مع أفراد عائلته . وبعدما رافق الألمان النساء والأطفال إلى الكنيسة ; قسموا الرجال مجموعات عديدة وأعدموهم رمياً بالرصاص في خمسة أنبار ثم أشعلوا فيها النار . وغادروا «أورادور» نهار الأحد . إلاّ أنّهم عادوا يوم الاثنين فدفنوا بقايا ضحاياهم في حفر عامّة .

تحرير

الحرب تخرج من «روسيا»

كان الجيش الألمانيّ ، في مطلع ربيع ١٩٤٤ ، ما يزال يحتفظ بشبه جزيرة « القرم » كلّها تقريباً ، وكان الروس في الشرق قد عبروا مضيق « كيرتش » ؛ ولكنّ الفيلق الألمانيّ الخامس أوقفهم بقيادة الجنرال « ألمندنغر » على برزخ « باراباتش » .

كانوا في الشمال قد اجتازوا، مشياً على الأقدام ، البحيرةَ القليلة العمق المعروفة باسم «سيفاتش» أو «البحر الآسن»، إلاّ أنّ الفيلق الجبليّ التاسع والأربعين تمكّن، بقيادة الجنرال «كونراد»، من صدّهم في برزخ «بيريكوب» . ولمّا قام «شورنر» بجولة تفتيشيّة في الجيش السابع عشر عقب تسلّمه قيادة مجموعة «جنوب أوكرانيا»، لم يتردّد في رسم لوحة عامرة بالتفاؤل . قال : «رتّب كلّ شيء. وأصبح الدفاع عن «القرم» مضموناً...»

صدرت هذه البرقيّة الّتي وجّهها «شورنر» إلى قيادة جيش البرّ بتاريخ ٧ نيسان في تمام الساعة ٢١.٣٥. وفي تمام الساعة ٩ من ٨ نيسان حمل المارشال «تولبوخين» على برزخ «بيريكوب» بمعونة جيش الحرس السوفياتيّ الثاني والجيش الحادي والخمسين . ومنذ ٩ نيسان طلب الكولونيل-جنرال «يانيكي» . قائد الجيش الألمانيّ السابع عشر . الإذن بالاعتقال في «سيباستوبول» «كي لا يُباد الجيش برمّته» !

أعاد «يانيكي» الكرّة في اليوم التالي. فاقترح الجلاء التامّ عن «القرم». وأيّد «شورنر» طلبه بعدما تبدّدت أوهامه؛ فرفض «هتلر» الإصغاء . وأمر بتجهيز قلعة «سيباستوبول» من أجل مقاومة لا أجَل لها. وأردف : «لا يحقّ التخلّي عن أيّ شبر من الأرض ؛ ولا يحقّ لأيّ رجل صحيح أن يستسلم ...»

في ١٦ نيسان لجأ الجيش السابع عشر إلى «سيباستوبول» عقب تقهقر سريع فقَدَ فيه ثلثي عتاده. فتعهّد الفيلق الخامس، بفرقه الألمانيّة الثلاث، وفرقه الرومانيّة الأربع ، بالدفاع عن القطاع الشرقيّ . الممتدّ من «بالاكلافا» إلى خليج «سفرناجا» ، فيما تعهّد الفيلق التاسع والأربعون بفرقتيه الألمانيّتين، وفرقه الرومانيّة الثلاث، بالدفاع عن القطاع الغربيّ. أمّا المارشال «تولبوخين» فقد حشد أمام المدينة ثلاثة جيوش تضمّ ٢٨ فرقة. وهكذا بدأ الروس حصار «سيباستوبول» بعدما حاصرها الألمان بسنتين .

ولكنّ الحصار هذه المرّة كان أقلّ ضَراوة من السابق؛ فالقوّات الرومانيّة باتت لا تريد القتال. والفرق الألمانيّة الخمس لا تضمّ أكثر من ٢٠.٠٠٠ محارب؛ ولم يكن للجنود والضبّاط والجنرالات غير فكرة واحدة: هي عبور البحر من جديد، والإفلات من جحر الفأر . استقلّ «شورنر» الطائرة إلى «برشتسغادن» مكرّراً طلبه في الجلاء؛ فتنازل «هتلر» وكشف لهذا الجنرال الموافق لهواه عن الاعتبارات السياسيّة الستراتيجيّة الّتي تُملي عليه خطّة في السلوك غير مفهومة؛ فالتخلّي عن «سيباستوبول». في الظرف الراهن، قد يدفع «تركيا» إلى دخول الحرب. فيما سيتبدّل الوضع حتماً. بعد أسابيع ستّة أو ثمانية، إذ يكون الانكليز قد نزلوا في «فرنسا» وسحقوا. إذ ذاك توجّه «ألمانيا» قوّاتها كلّها ضدّ «روسيا». ولن يكون لموقف «تركيا» عليها أيّ أثر . وكلّ ما يطلبه «الفوهرر». والحالة هذه، هو أن تصمد «سيباستوبول» ستّة أسابيع أو ثمانية .

لم يطمئنّ «هتلر» إلى «يانيكي» . فاستدعى «ألمندنغر» ليُبلغه أنّ

تموز ١٩٤٤ . المعارك في قطاع «لفوف» في «أوكرانيا» .

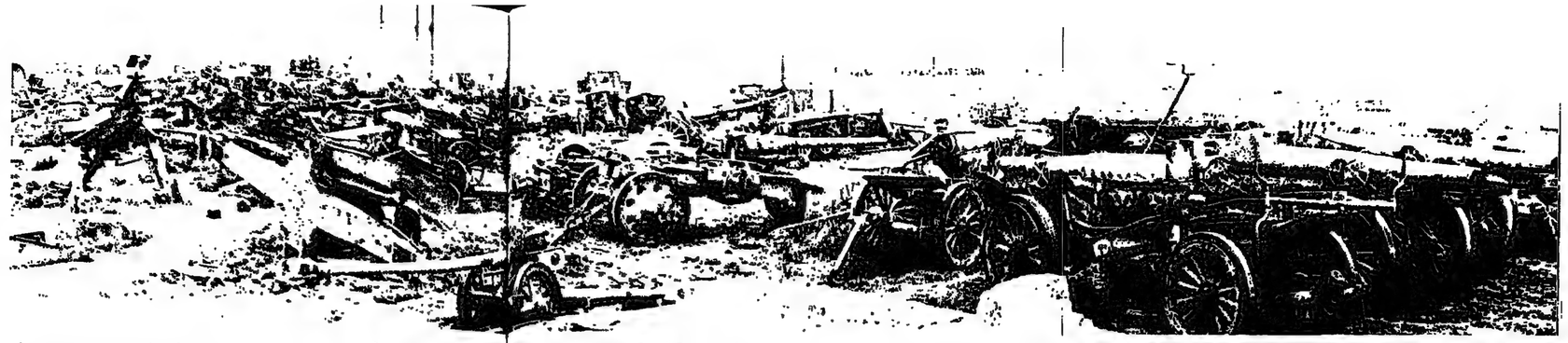

رئيسه يرهن الدفاع بتخاذله؛ ثمّ استدعى «يانيكي» نفسه. فصمد له هذا وأصرّ على أنّه لم يقم إلاّ بتنفيذ ما صدر إليه من أوامر سيّئة، وتجاسر، قبل عودته إلى «سيباستوبول»، فوجّه إلى «هتلر» رسالة حافلة بالانتقاد؛ فأوقف لدى مروره في «غالاتز» وطُرد من الجيش.

حمل جيش الحرس الثاني في ٥ أيّار على القطاع الغربيّ من «سيباستوبول»، وفي ٧ مدّد الجيش الحادي والخمسون والجيش الساحليّ الهجوم حتى «بالاكلافا» فانتزعا قمّة «سابون» التي كان «مانشتاين» باحتلالها قد ختم الحصار السابق. فأعاد «ألمندنغر» الذي حلّ محلّ «يانيكي». خطوطه حتى «إنكرمان» بغيةَ إنشاء قوّة صالحة للهجوم المعاكس، يحاول بها أن يسترجع القمّة الحيويّة؛ فلامه «هتلر»، ولكن لم يبقَ للوم «هتلر» كبير شأن بعد اليوم. فوضع الحامية ميؤوس منه، والفرق الألمانيّة تتخاذل واحدة بعد واحدة. وهكذا أخذ «شورنر» على نفسه، في ٨ أيّار، أن يصدر إلى سلاحيّ البحريّة والطيران أمراً يقضي بأن ينقذا ما تيسّر إنقاذُه؛ فما كان من «هتلر» إلاّ أن أذعن للأمر، وصادق على الجلاء.

حرّر الروس «سيباستوبول» في ٩ أيّار. وكما فعل «بوبوف» عام ١٩٤٢، بقي «ألمندنغر» ٤ أيّام يقاوم في شبه جزيرة «شيرسونيز» ليمدّد إبحار من بقي من الجنود. وأعيد إلى «رومانيا»، من أصل ٢٣٥،٠٠٠ رجل كان يضمّهم الجيش السابع عشر، في ٨ نيسان، ١٥٠،٠٠٠ تقريباً، ولكنّهم لم يعودوا بغير مسدّساتهم. وهكذا قُضي على جيش ألمانيّ آخر. وعاد الهدوء إلى الجبهة الشرقيّة، وقد غدا شكلها غريباً. كانت الجيوش الألمانيّة في الشمال والوسط، مع ما مُنيت به من هزائم جسيمة، ما تزال بعيدة التوغّل في كتلة الأراضي الروسيّة. فمجموعة الشمال، التي تسلّم قيادتها حديثاً الكولونيل–جنرال «ليندمان»، ما انفكّت تسيطر على «نارفا» وعلى الضفّة الغربيّة من بحيرة «بيبوس»، مغطّية بذلك بلدان «البلطيق». وأمعنت مجموعة الوسط في التوغّل إلى أبعد من ذلك شطر الشرق؛ فكانت تسيطر على «فيتبسك» بناثئة بارزة تمتدّ على جانبَي «الدونا»، وتتشبّث بشرقيّ «الدنيبر»، أمام «أورشا» و«موهيليف»، فلا تعود إلى عبور النهر إلاّ قبل ملتقى «البيريزينا» بقليل، ناحية النبع. فالألمان ما برحوا على بُعد ١٠٠ كلم من «سمولنسك»، وكأنّهم لم يفقدوا الأمل بمعاودة الزحف في اتّجاه «موسكو»!

أمّا الجانب الجنوبيّ من جبهتهم فقد انهار بكامله. فحرّر الروس «أوكرانيا»، ودخلوا «بولونيا»، وتقدّموا حتى باتوا على مسافة ٥٠ كلم من «بريست ليتوفسك». ولقد أدركوا مواطئ «الكربات»، فعبروا «الدنييستر» و«البروث»، واجتاحوا «بوكوفين» و«بسّرابيا»، ليس هذا فحسب، بل اجتاحوا «رومانيا» القديمة أيضاً. كانت «أوديسا»، مع «سيباستوبول»، آخر مدينة تمسّك بها الألمانيّ في جنوب «روسيا»؛ ولكنّه أفلتها في ١٠ نيسان.

لم ينفكّ احتدام القتال في الجنوب يضعف كميّةَ القوّات المرابطه في القطاعات الأخرى ونوعيّتها؛ فانخفض عدد الوحدات الكبيرة في مجموعة الوسط إلى ٣٨، من أصلها أثنتان شُكّلتا من فائض سلاح الطيران، وفرقة من رجال الشرطة رديئة التسليح، وفرقتان مجربّتان لا يُركن إلى وفائهما. كان «فون كلوغي»، قبل حادث السيّارة الذي آل إلى استبدال المارشال «بوخ» به، قد مضى يعيش في الخنادق ليخبر وضعها ومناخها عن كثب. فكتب إلى «هتلر» رسالة شخصيّة يقول فيها: «إنّ الشعور بالفراغ لمخيف حقّاً». فالفرق تستطيل على قطاعات تبلغ ٢٥ و٣٠ و٥٠ كلم. فتدرك الخطوط الأولى بكثافة رجل واحد لكلّ ٥٠ أو ٨٠ م. أمّا القوّات الاحتياطيّة فلا وجود لها، وأمّا استبدال الجند فمستحيل لعدم توافر الرجال. واستأنف «كلوغي» يقول: «المجموعة الوسطى وحدها بحاجة إلى ٢٠٠،٠٠٠ رجل، وليس بوسع أحد من القوّاد أن يؤكّد لك مخلصاً بأنّه لن يُصاب بكارثة ...»

وعقّد الأنصار مهمّة مجموعة الجيوش بشكل مريع؛ وجدهم الألمان في كلّ صقع من «الاتّحاد السوفياتيّ». بيد أنّه لم يجد منهم في مكان ما وجده في «روسيا البيضاء». فقد غدت مناطق الغابات الكبيرة والمستنقعات الشاسعة مخابئ مستعصية تنطلق منها عمليّات حقيقيّة، تضعها وتنظّمها هيئة أركان خاصّة. وقد أحصت مراكز المراقبة في كلّ ليلة عدداً من الطائرات يتراوح بين ١٠٠ و٢٠٠ وهي في طريقها لتموين ربع مليون من الأنصار الذين يكثّفون الجبهة الألمانيّة حتى تدرك «بولونيا». وقد اضطرّت الجيوش إلى التخلّي عن الطرق المعبّدة والحديديّة كلّها، باستثناء واحدة قد ركّزت عليها سهرها ومراقبتها، من غير أن تتوصّل إلى درء أعمال التخريب والمداهمة. إنّها لحرب قاسية لا تعرف الرحمة. ولا تعترف بجرحى أو بأسرى، تقابل القلق بنشر الذعر، ولا تتراجع أمام العذاب والتنكيل، ولا أمام انتهاك حرمة الجثث. وكما وجد «الألمان» بين السكّان خصوماً ضراة، وجدوا بينهم كذلك مساعدين ضراةً؛ إلاّ أنّ إخلاص متطوّعيهم ومناصريهم بات عرضة للشكّ بعد هزائمهم الكبيرة.

لم تواجه «ألمانيا» أزماتها المتناقلة إلاّ بحلول تقلّ جدواها يوماً بعد يوم. فظهر المجنّدون الجدد من مواليد ١٩٢٦، أي جنود سنّ الثامنة عشرة، على الجبهة الشرقيّة منذ ربيع ١٩٤٤. لم ينفكّ «هتلر» يصرّ على أنّ الجنديّ الألمانيّ الراجلَ رجلٌ خارق، يمكن أن يُطلب منه كلّ شيء. ولكنّ هذا الوهم المتعجرف قد تبدّد أمام الحقيقة الروسيّة. فجريح واحد من ثلاثة يمكن استرجاعه؛ هذا وقد أسهمت المأخوذيّات النادرة في تثبيط عزائم الرجال، بما وفّرته من مشاهد «ألمانيا» وقد عاثت فيها الحرب دماراً وخراباً؛ يضاف إلى ذلك الأرض الروسيّة، والطبيعة الجبّارة الكئيبة، وعُدم القرى، وذاك الشعور بالفراغ في المقدّمة، وبالقلق والأضطراب في المؤخّرة، وكلّ هذه عوامل كان لها الأثر الفعّال العميق في تثبيط الهمم؛

وإذا بالمدّ التشيؤ العامل يستحيل حنوعاً. والحنوع يستحيل استسلاماً. والاستسلام قنوطاً. وإذا الجيش باهت خامل مقضيّ عليه بالهزيمة الواقعة المحتّمة. وقد وقف ينتظر صدمة جديدة.

وتفاقم الفقر بتفاقم الانهيار العصبيّ الناتج عن زوال عهد الانتصارات، فتدنّى مستوى «قطع التبديل والأعتدة الجديدة، نظراً لعدم توافر الموادّ الستراتيجيّة من «تنغنيز ونيكل وموليبدين وفولفرام» وغيرها. وبدأت أزمة الوقود الكبيرة حين أقدم الطيران الستراتيجيّ الأميركيّ على تدمير حقول النفط الرومانيّة. فتدنّى إنتاجها الشهريّ في أيّار ١٩٤٤ من ٤٣٠،٠٠٠ طنّ إلى ٢٦٠،٠٠٠ طنّ. لم يعرف الجيش الألمانيّ قطّ ثراءً ووفرةً في البنزين. أمّا الآن فقد بات فقيراً جدّاً، يعيش يوماً فيوماً. والشلل يتهدّده في كل لحظة.

كان قائد مجموعة جيوش الوسط أحد كبار قوّاد الجيش القلائل الذين كانوا يجنّدون الاشتراكيّة القوميّة. ويؤمنون بعبقريّة «هتلر» العسكريّة. ولقد كان عام ١٩٣٨ مع «رايخناو» القائد الوحيد الذي رفض التوقيع على مذكّرة «بيك» التي فضحت ذاك الساق إلى حرب قُضي عليها مسبقاً بالهزيمة. كان ذاك القائد «إيرنست بوخ»، طويل القامة، بديناً، سميناً، غليظاً. وهو ابن مدير ميتم وضيع. وقد تنازل تماماً عن التقليد البروسيّ المتعلّق بسموّ وليّة هيئة الأركان العامّة التي لا حدّ لها، والحريّة التي يتمتّع بها في تقدير الأمور. معتمداً شعار: «الواجب الأسمى يكمن في الطاعة». ومهما يكن من أمر، فإنّ رفضه تأييد زملائه، وذاك الشعار الذي تستعذبه أذنا «الفوهرر»، لم يرفعاه ترفيعاً بالغاً، فقد كان جنرالاً يتولّى قيادة جيش عام ١٩٤٠. ولم يُعيّن مارشالاً إلاّ في أوّل نيسان ١٩٤٤؛ وها هو

«أوديسا»، آخر مدينة أوكرانيّة تشبّث بها الألمان.

الآن يتسلّم قيادة مجموعة جيوش.

لم يلبث «بوخ» طويلاً ليدرك ثقل هذه القيادة الجليلة. حظي بمقابلة «هتلر» في ٢٤ أيّار. فرأى من واجبه أن يعرض عليه الحليّن اللذين أعدّهما هيئة أركانه لتقصير جبهة مجموعة الجيوش المتمادية الاتّساع. يقضي «الحلّ الأصغر» بالانكفاء إلى ما وراء «الدنيبر». ويقضي «الحلّ الأكبر» بالانكفاء إلى ما وراء «البيريزينا». فحدّق «هتلر» في المارشال الجديد تحديقاً ذا معنى وقال: «ماكنت أدري، يا «بوخ»، أنّك تنتمي إلى ذاك الضرب من الجنرالات الذين لا يحسنون إلاّ النظر إلى خلف ...» فأدرك «بوخ» فحوى الموضوع، وتعهّد بتنفيذ الأوامر كلّها بأمانة. ثمّ حمل إلى هيئة أركانه الذاهلة «عزم الفوهرر الواضح على عدم التخلّي عن شبر واحد من الأرض».

وعاد «بوخ» مع ذلك بتأكيد مطمئن. إذ قد وعده «هتلر» «بصيف هادىء»، فستظلّ الجبهة الوسطى، كما في السنوات السابقة، مسرحاً ثانوياً لا تشغله غير حملات محليّة. أمّا الروسيّ فسيحاول استغلال منجزات الشتاء في الجنوب، للوصول إلى مصابّ «الدانوب» وفتح مناطق النفط الرومانيّة، وطرد «ألمانيا» من «البلقان». واجتياح «أوروبا» الوسطى. والسير نحو «فيينا». ولقد تأهّب الفوهرر لتلقّي الصدمة بتدعيم مجموعتَي جيوش الجنوب ما وسعه الأمر؛ ولسوف يصطدم الزحف بنواة الجيش الألمانيّ الفولاذيّة. فالجيش الأحمر الضخم كتلة غير متوازنة. وتستطيع صدمة عنيفة واحدة أن تلقيه أرضاً، كما حصل لجيش القيصر الذي اجتاح «ألمانيا» عام ١٩١٤، ولجيش «لينين» الذي اجتاح «بولونيا» عام ١٩٢٠. أمّا إسهام مجموعة الوسط في إحقاق النصر فيقوم بصمودها على جبهتها بما لديها من قوّة.

تتألّف هذه المجموعة من أربعة جيوش: الجيش الثاني الضعيف المختلف العناصر، والذي لا يتّصل عملياً بالقوّات النظاميّة المعادية. ويخضع لإمرة الكولونيل–جنرال «فايس»، ويرئس هيئة أركانه –حتى ٢١ تموز– «فون تريشكوف»، وهو يشرف على ما لا يقلّ عن ٥٠٠ كلم، تمتدّ شرقاً بغرب، على طول مستنقعات «البريبت»؛ والجيش التاسع يقف، بقيادة جنرال المشاة «يوردان»، على ضفّتَي «البيريزينا». يليه الجيش الرابع بإمرة الجنرال «فون تيبلشكيرش»، الذي يشغل موقّتاً منصب الكولونيل–جنرال «هاينريتشي» المأذون بسبب المرض، فيركب صهوة «الدنيبر» مرّتين قبل أن يذهب فيلتحم بجيش الدبّابات الثالث. التابع للكولونيل جنرال «راينهارت» الذي يمسك بناثئة «فيتبسك». ولمّا يبقَ له من التصفيح غير الاسم. وعلى سبيل الحذر والوقاية عمدت مجموعة الجيوش إلى إقامة موقع للدفاع غربيّ «البيريزينا». إلاّ أنّه كان لا بدّ من إخفاء هذه المبادرة عن علم الفوهرر الذي كان يصرّ على القول بأنّ المواقع الخلفيّة ليست إلاّ تجربة تغذّي تهافت الجنرالات على التراجع.

أمّا «هتلر» فيعارض فكرة خطوط الدفاع المتتالية. بنظريّة «مكاسر الأمواج» التي يدين بها. ولقد عيّن منها أربعة في منطقة مجموعة الجيوش: «بوبرويسك» على «البيريزينا»، و«موهيليف» و«أورشا» على «الدنييستر». و«فيتبسك» على «الدونا». كانت مهمّتها، وقد دُعيت حصوناً –على غرار «ستالينغراد» قديماً– وأحيطت بحزام محصّن. وزُوّدت بحاكم وحامية. أن تستسلم للتطويق بغية تفكيك الزحف المعادي. سيتولّى الدفاع عن كلّ من «بوبرويسك» و«موهيليف» و«أورشا» فرقة واحدة. فيما تتولّى الدفاعَ

مشاة البحريّة السوفياتيّة في «سيباستوبول» المحرّرة.

عن «فيتبسك» ثلاث فرق . عارض الجنرالات كلّهم هذه النظريّة في إدارة الموقعة الدفاعيّة لأنّها تقضي بالهلاك الأكيد على قسم هامّ من الجيوش المقاتلة ؛ ولكنّ سلطة الفوهرر المطلقة ، بدل أن تهدّىء المصائب من غلوائها ، ما انفكّت تشتدّ وتعتو ؛ فلاذ القوّاد بالصمت منفّذين الأوامر ، رافعين أبصارهم إلى السماء أحياناً .

إنتهى أيّار وبدأ حزيران. وإذا بالحوادث الجارية في الغرب ، من سقوط «روما» إلى النزول في «نورماندیا» ، لا تثير في الجيش الألمانيّ في الشرق غير أصداء خافتة جدّاً ؛ فقد لزمت الحرب سيرها البطيء ، ولكنّ المكاتب الثانية أخذت تجمع دلائل وبوادر غريبة . إجتمع روؤساء أركان الجيوش في «رستنبورغ» بتاريخ ١٤ حزيران . وتبادلوا ما لديهم من معلومات . فلم يلحظ روؤساء أركان مجموعة الشمال ، ومجموعتي شماليّ «أوكرانيا» وجنوبيّها ، أيّة بادرة تُنذر بهجوم وشيك . أمّا روؤساء أركان مجموعة الوسط فقد أشاروا إلى أنّ احتشادات هائلة تجري أمامهم : فقد أمكن تبيّن ٩ جيوش ، من أصلها عدّة جيوش صدام ، بين «البريبت» و «الدونا» . وهي تنتمي إلى ٤ جبهات : جبهة «البلطيق» الأولى ، وجبهات «روسيا البيضاء» الثالثة والثانية والأولى ، مجموعة تحت إمرة المارشال «فاسيليفسكي» . كانت الأدلّة واضحة متّفقة : فالمجهود السوفياتيّ الصيفيّ الكبير لن يُبذل حيث استعدّت القيادة الألمانيّة للقائه ، لن يُوجّه إلى الأهداف الاقتصاديّة . كالنفط الرومانيّ والمعادن البلقانيّة التي استحوذت على لبّ «هتلر» ! بل رفع «ستالين» نقطة ثقله مسافة ٥٠٠ كلم نحو الشمال . وذلك بفضل مجهود تنظيميّ عجيب ، وسيكيل على قلب العدوّ ضربة القويّ للضعيف ، أو قل ضربة القويّ الجبّار للضعيف الواهي .

أمّا «هتلر» فقد عمي عن إدراك الحقائق البيّنة التي مثلت تعارض رأيه . فقد ذهب إلى أنّ التحرّكات الروسيّة في وسط الجبهة هي من السفور بحيث لا يمكن إلاّ أن تشكّل خدعة ، أو هي ، في أقصى حدّ ، تنبىء بهجوم مضلّل . فلم يُسمح «لبوخ» ، والحالة هذه ، حتى بأن يحتفظ بفيلقه المصفّح ٤٦ الذي كان يتنازل عنه لمجموعة شمال «أوكرانيا» . وفي ٢٠ حزيران وقّع «كيتل» ، بأمر من «هتلر» ، مذكّرة تعيد إلى الأذهان أنّ نقطة ثقل العدوّ ينبغي أن تُنتظر ، لا أمام مجموعة الوسط ، بل أمام مجموعتي جيوش الجنوب .

ولمّا بلغت مذكّرة «كيتل» «بوخ» ، كان الزحف السوفياتيّ على مجموعة الوسط قد بدأ بنشاط شامل للأنصار ، الذين برزوا من كلّ ناحية مهاجمين الطرق والخطوط الحديديّة والمستودعات . مثيرين ٣٠٥٠٠ اشتباك . محقّقين ١٠٥٠٠ عمليّة تخريب . وفي فجر ٢٢ حزيران ، ولمّا تمض ٤٨ ساعة على استئناف نشاط الأنصار . وعقب ليلة خانقة عبرت سماءها بروق حرّ ضخمة ، شنّ مشاة جبهة «البلطيق» الأولى وجبهة «روسيا البيضاء» الثالثة . ودبّاباتهما . هجومهم على جيش الدبّابات الثالث . وامتدّ الزحف الروسيّ في اليوم التالي على الجيش الرابع ، وفي اليوم الثالث على الجيش التاسع . مشعلاً جبهة من ٥٠٠ كلم تمتدّ من «الدونا» إلى «البريبت» ؛ فزج الروس في وجه فرق المشاة الـ ٣٧ ، والفرقة المصفّحة الوحيدة . التي تؤلّف مجموعة الوسط . ١٣٨ فرقة من المشاة ، و ٤٣ لواءً من سلاح الدبّابات .

إتّسم هذا الزحف الصيفيّ بابتكار مفجع مروّع ، إذ أُضيف إلى حشود «أرغن ستالين» . وإلى سحق الخطوط الأماميّة ، تمهيدٌ جويّ أذهل الألمان بشدّته وعمقه . أمّا هم فلم يكن لهم في الجوّ شيء تقريباً . لأنّ الأسطول الجوّي السادس . الملحق بمجموعة جيوش الوسط ، لم يكن يملك في ٢٢ حزيران غير ٤٠ مطاردة صالحة للاستعمال . إنّه لانقلاب في الأوضاع غريب . يساوي ذاك الذي حصل في «نورماندیا» في الوقت عينه ؛ فبات على الجنود الألمان ، في الشرق كما في الغرب ، أن يكافحوا تحت سيطرة طيران العدوّ المطلقة .

وما لبث النزاع حول «فيتبسك» أن استحال مأساة ؛ إذ طوّق الروس المدينة وأوقعوا في الشرك مجموع الفيلق ٥٣ ، بفرقه الأربع ، أي ما يساوي نصف الجيش الثالث . فتشبّث «راينهارت» بالهاتف وسأل «بوخ» أن يتوسّل إلى «هتلر» أن يسمح للقوّات المطوّقة بالإفلات إلى النور ؛ فرفض «هتلر» مذكّراً بأنّه قد جعل من «فيتبسك» قلعة يُصرّ على أن يُذاد عنها حتى النهاية . وفي ٢٥ ، وقد سبق السيف العذل ، قُبِل بأن تخرج من المدينة ٣ فرق ، ولكنّه أصرّ على أن تبقى فيها الفرقة ٢٠٦ بقيادة الجنرال «هتّر» للدفاع عنها «إلى أن يُرفع الحصار» . كما أصرّ على أن يُلقى أحد ضبّاط أركان جيش الدبّابات الثالث بالمظلّة في «فيتبسك» ليحمل إلى «هتّر» أمراً خطّياً . فرفض «راينهارت» أن يضحّي بأحد معاونيه جزافاً . وقال «لبوخ» : «سيّدي الفيلد مارشال ، أسألك أن تعلم الفوهرر بأنّه ، إذا أصرّ على أمره ، فهناك ضابط واحد من ضبّاط جيش الدبّابات الثالث يستطيع القفز في «فيتبسك» : هو القائد الأعلى ، أنا» . فلم يلحّ «هتلر» .

أرهق الروس القوّات المطوّقة في اليوم التالي وفي غده . فأخذت إذاعات الميدان التابعة للفيلق الـ ٥٣ تصمت واحدة بعد واحدة . كانت الفرقة التي أُبقيت في «فيتبسك» أضعف من أن تملأ حرام المدينة المحصّن ، فأُغرقت لدى الهجوم الأوّل . أمّا الفرق الثلاث الأخرى ، وقد عجزت عن أن تشقّ لنفسها طريقاً بين الحشود الروسيّة ، فقد أُبيدت عن بكرة أبيها . وراح ما تبقّى من جيش الدبّابات الثالث يتقهقر يائساً وسط غابات لا طرق فيها ، وأنصار لا يعرفون هوادة .

وفي الجناح الآخر قذف «روكوسوفسكي» بـ ٥٠ من فرق المشاة ، و١٣ وحدة آليّة كبيرة ، على الجيش الألمانيّ التاسع وفلعة «دوبرويسك» الزائفة ، وفي نيّته أن يزحف على «مينسك» ليلتقي «تشيرناكوفسكي» القادم من «فيتبسك» ، بغية إيقاع القلب الألمانيّ في الأسر .

كان ميدان القتال صعباً عسيراً . فثمّة عدّة أنهار كبيرة «كالأولسا» و «الأولا» و «الدروت» و «الدويسنا» و «البيريزينا» تسيل نحو «الدنيبر» . وهي أنهار سهليّة موحلة بطيئة ، تتّسع بشكل مستنقعات فسيحة فتؤلّف دلتا لا يخطر ببال أيّة قيادة غربيّة أن تجعل منه قطاعاً هجوميّاً . بيد أنّ القوّات السوفياتيّة قد أعدّت لحرب المستنقعات إعداداً عجيباً ؛ فهي تسير حاملة كميّة خارقة خياليّة من الجذوع الصغيرة والأغصان والألواح المهيّأة لإنشاء دروب تسلكها العربات والدبّابات . فإذا برتل المشاة أشبه ما يكون بغابة تسعى .

شُنّت على الجيش التاسع ثلاث حملات . صُدّت منها اثنتان ، ودحرت الثالثة الفيلق ٤١ جنوبيّ «البيريزينا» . وأغرقت «دوبرويسك» من جهة الغرب . وفي ٢٦ طار «بوخ» إلى «برشتسغادن» وهو مصاب منكوب ليرسم «لزعيمه» صورةً عن الوضع المفجع . فقد قُضي على «دوبرويسك» بعد «فيتبسك» . وتمكّنت القوّات السوفياتيّة . التي صُدّت برهة على «الدروت» ، من أن تثقب الجبهة بدورها فتتمّ تطويق المدينة من الشمال . طلب «بوخ» المخلص ، رغبةً منه في إعادة تنظيم المعركة ، أن يُسمح للجيش الرابع ، الذي تعرّض لهجوم ضعيف في الوسط ، وبات تحت رحمة التطويق بعد انهيار جيرانه . بعبور «الدنيبر» ؛ وطلب أن يتخلّى عن «دوبرويسك» و «موهيليف» و «أورشا» ، وهي قلاع على ورق ، قبل أن يحلّ بها ما حلّ «بفيتبسك» ؛ وأن توفد ، على وجه السرعة ، نحو وسط الجبهة ، أمداداً كبيرة ضخمة ؛ فرفض «هتلر» كلّ تلك المطاليب ، ولم يعد «بوخ» إلى «فيتبسك» إلاّ ليأخذ علماً بأنّ «مودل» قد أحلّ محلّه .

وهكذا ما فتيء عماد «هتلر» وعماه وقدرته على الشطط والخطإ في ازدياد مستمرّ كلّما أوغل في الهزيمة. فهو يصرّ على أنّ نزول الحلفاء في «نورماندیا»، والهجوم السوفياتيّ في «روسيا البيضاء» كليهما، ليسا النزول والهجوم الحقيقيّين. وكما أبقى الجيش الخامس عشر شماليّ «السين» مجمّداً، قضى بشلّ أفضل قوّات الجبهة الشرقيّة في «أوكرانيا». والجنرالات هم في رأيه المسؤولون حتما عن الهزائم التي أملاها بنفسه، وهو الذي قال معاتباً: «هيبتي رأس مال لا يمكن استبدال شيء به، ولا يجوز أن يمسّ في أيّة حال. أمّا الجنرالات، فيمكن استبدال واحد منهم بآخر."

في ٢٧ حزيران طوّق مجموع الجيش التاسع حول «بوبرويسك»، ففعل «هتلر» ما فعله في «فيتبسك» وقرّر أن تدافع عن الحصن فرقةٌ واحدة، فيما يفكّ معظم الفيلقين ٣٥ و٤١ طوق الحصار. فأمر الجنرال «فون لوتزوف» بتدمير العتاد الذي يتعذّر نقله، وانخرط في رتل كثيف حاول معه أن يفرّ باتّجاه «مينسك». وراحت ٥٠٠ قاذفة قنابل روسيّة تدكّ الحشد الألمانيّ. فيما قطعت عليه الطريقَ الوحداتُ المصفّحة التابعة لمجموعة «غورباتوف». فعمدت جمهرة من الجنود الفارّين إلى اجتياز «البيريزينا» سباحة قصد اللجوء إلى «بوبرويسك»، حيث تكدّست في فوضى مقيتة بقايا نصف دزّينة من الفرق، فلم يتمكّن الجنرال «هامان»، قائد الموقع، من تنظيم الدفاع. ومنذ ٢٩ لم يبقَ في «بوبرويسك» ألمانيّ واحد مسلّح. ولم يبقَ من الجيش التاسع إلاّ زهاء ١٥،٠٠٠ رجل لا عتاد لهم

يستحيل سرد وقائع تينك الهزيمتين الألمانيّتين الكبيرتين، «فيتبسك» و«بوبرويسك». سرداً مفصّلاً دقيقاً، فالمراجع غير متوافرة، وقليلون جدّاً هم الأسرى الذين عادوا ليروا التجارب التي مرّوا بها وعاشوها. والواضح مع ذلك أنّ ضراوة المقاومة لا تشبه في شيء سابقات «ديميانسك» و«ستالينغراد» و«تشيركاسي» الشهيرة. فقد كان القوّاد أوّل المنحنين للمقادير. مثال ذلك «لوتزوف» قائد الفيلق ٣٥ الذي استسلم مع هيئة أركانه كاملةً

لم يسلم من الجيوش الألمانيّة الثلاثة التي تعرّضت للهجوم غير جيش واحد هو جيش الوسط الرابع. فاستأذن «تيبلسكيرتش»، قائده المؤقّت، في العبور إلى ما وراء «الدنييبر». ولكنّه اصطدم طبعاً برفض «بوخ» الذي يعكس رفض «هتلر»؛ فلم ينصع للأمر. بل عاد بأجناده إلى الضفّة اليمنى. ولكنّه لم يجرؤ على المضيّ في التمرّد إلى حدّ التخلّي عن حصنين من حصون «هتلر» المزعومة. أخليت «موهيليف» في اللحظة الأخيرة. أمّا «أورشا» التي أبقيت فيها فرقة واحدة، فقد سقطت عنوة في ٢٧. كانت تلك هي النقطة الأخيرة التي كان الجيش الألمانيّ ما يزال يلامس بها ثاني الأنهر الروسيّة. وها هو «الدنييبر» يسيل من ينبوعه حتى مصبّه في أرض محرّرة تماماً.

إنتقل القتال إلى «البيريزينا». وعدت «بوريسوف» هي محوره. كان سقوطها عام ١٨١٢ بالنسبة لجيش «نابوليون» بمثابة الضربة القاضية التي أرغمت ذلك القائد على أن يذهب إلى نقطة أبعد في الشمال ليلقي فيها جسرين موقّتين. كلّفه عبورهما ما تكلّفه هزيمة كبيرة. كافح «تيبلسكيرتش». وكان لا يزال محتفظاً بفيلقين شرقيّ النهر، في سبيل إنقاذ المدينة من جبهتي «أوكرانيا» الثانية والثالثة اللتين أخذتا تضغطان على ضفّتي النهر من الشمال والجنوب. فتمكّنت فرقة الدبّابات الخامسة، وهي أوّل مدد مصفّح بلغ المجموعة الوسطى، من تحطيم الذراعين الروسيّتين المستدّتين على أوتوستراد «موسكو»، ولكن سرعان ما أعيدت إلى «مينسك» حيث أحدث تدمير جيش الدبّابات الثالث وضعاً خطيراً ينذر بشرّ مستطير. وفي ٣٠ حزيران انتزعت «بوريسوف» وجسراها من أيدي الألمان، ولمّا يزل ألوف الرجال يتخبّطون في المستنقعات شرقيّ «البيريزينا».

بقي ثمّة ممرّ واحد، هو جسر ميدان أقيم في «بيريزينو»: فهاجمه الطيران السوفياتيّ بلا انقطاع، غاطساً في نيران المدفعيّة المضادّة للطائرات. فاقداً أجهزة كثيرة، ولكنّ ملحقاً بالجسر أضراراً كان عمّال الجسور الأبطال يصلحونها بصبر وجلد. هذا، وفيض من الرجال والعربات ينساب فوق «البيريزينا»، بين الغارات وخلالها، حاملاً جثثاً وحطاماً. كانت الخسائر فادحة جسيمة، وقد قُتل على الجسر جنرالات ثلاثة. غير أن «تيبلسكيرتش» قد احتفظ «ببيريزينو» حتى ٣ تموز، وتمكّن من العودة بمجمل جيشه إلى الجهة الغربيّة من النهر.

ولكن شتّان ما بينه وبين النجاة! فالزحف السوفياتي يرمي إلى البعيد العميق! فقد اتّجهت جبهة «البلطيق» الأولى عن طريق «بولوتسك» ناحية «دونا بورغ»، وزحفت جبهة «روسيا البيضاء» الثالثة على «مولوديتشنو» مارّة «بلبيل»، وقصدت جبهة «روسيا البيضاء» الأولى عبر «سلوتسك» إلى «بارانوفيتش». أمّا المارشال «مودل»، وقد تسلّم قيادة الفراغ الذي انفتح على اتّساع ٣٥٠ كلم بين «البريبت» و«النييمن»، فقد استغنى عن تصريحات «هتلر»، فبادر إلى إعادة الجيش الثاني، الذي ما زال سليماً، إلى الحدود البولونيّة، وتخلّى عن مواقع «هتلر» الحصينة، وسحب ثلاث فرق مصفّحة من مجموعة جيوشه القديمة؛ إلاّ أنّ هذه التدابير الشديدة قد أتت متأخّرة فلم تنتزع من الظافر ثمار انتصاره. فالمعركة لم تبقَ غير سباق كبير ومطاردة، يحاول الألمان يائسين أن يفلتوا من الأسر. والروس يطاردونهم لاهثين، على طرق مخيفة مقيتة، في بلد عاثت فيه الحرب خراباً.

وبعدما اجتاز الجيش الألمانيّ الرابع مستنقعات «البيريزينا»، توغّل في أصقاع حرجيّة بلغت من الاتّساع والكثافة مبلغاً خفتت معه جلبة الحرب. إنتظم الفيلقان الـ ١٢ والـ ٢٧ بشكل مربّعات متحرّكة، وسارت باتّجاه الغرب على دروب رمليّة واسعة حفرت فيها القوافل أخاديد وأثلاماً ضخمة. ولكنّ عقبات الأرض، ومداهمات الأنصار، ونفاد الذخائر، والتقدّم الذي أحرزه جناحا العدوّ، كادت تُفقد هذا التراجع كلّ أمل. وإذا بسقوط «مينسك» في يد جبهة «روسيا البيضاء» الثانية، في ٣ تموز، يكرّس تطويق الجيش. حاول الطيران الألمانيّ أن ينظّم حركة تموين جويّ. ولكنّ المحاولة أهملت منذ اليوم الأوّل؛ فأذعن الجنرال «فنسانز مولر» للأمر واستسلم مع فيلقه ١٢. أمّا الفيلق ٢٧ فقد تجزّأ مفارز تمكّن بعضها من الفرار بالالتفاف حول «مينسك». مدّد الجيش الرابع احتضاره، إلاّ أنّ التلف قد أصابه أكثر ممّا أصاب جاريه في الشمال والجنوب.

في الأسبوع الثاني من تموز خفّت حدّة المعركة غربيّ «مينسك»؛ فرمال غابة «نابيلوتشي»، التي طالما ضايقت الألمان عام ١٩٤١، وفّرت لهم فرصة استعادة أنفاسهم بتأخير تقدّم العدوّ. فأمر «هتلر» بإقامة «جبهة منيعة لا تُرام»، تمرّ «ببارانوفيتش»، فتخوم غابة «نابيلوتشي» الغربيّة، فبحيرة «ناروتش». كان هذا القرار أبعد ما يكون عن المنطق بالنظر لتفاوت القوى؛ فنكبة حزيران ١٩٤٤، وهي أخطر من «ستالينغراد»، قد زادت من الضعف الذي يحارب فيه الجيش الألمانيّ منذ سنتين حتى بلغت فيه نقطةً لا عودة بعدها. ففي ١٥ يوماً دُمّرت ٢٥ فرقة، وفُقد ٤٠٠،٠٠٠ مقاتل، وأُسر ٢٢ جنرالاً؛ ولم يبقَ من مجموعة جيوش الوسط إلاّ ما يعادل ٨ فرق، يضاف إليها ٨ فرق أخرى ما برحت قيد النقل لترفد الأولى. ولقد أحصت أركانها في الجانب الآخر ١٢٦ فرقة مشاة، و٦

فرق خيّالة، و٦٢ لواء دبّابات، فإذا الألمان واحد ضدّ عشرة !

إستولت الأجناد السوفياتيّة على «بارانوفيتش» في ٨ تموز، وعلى «ليدا» في ٩ منه؛ وقضت في ١١ على العناصر الألمانيّة الأخيرة المطوّقة شرقيّ «مينسك». وفي ١٣ انتزعت «فيلنا» التي ضحّى فيها «هتلر» بسبع كتائب كان قد كلّفها بالدفاع عن المدينة «حتّى النفس الأخير». تقدّم الروس مسافة ٤٠٠ كلم في ٢٠ يوماً، وحرّروا أراضيهم بكاملها، ولم توفّر استطالة مُواصلاتهم للألمان تلك الاستراحة التي كانوا بحاجة إليها لإعادة تنظيم صفوفهم. فما أوقف الزحف في الوسط حتّى انتقل إلى الجناحين. فلم تنحصر نكبة الجيش الألمانيّ في المنطقة الواقعة بين «الدونا» و«البريبت» فحسب، بل شملت المنطقة الممتدّة من «البلطيق» إلى البحر الأسود.

كلّ «هتلر» من سماع «ليندمان» يطالب بانكفاء مجموعة جيوش الشمال إلى «الدونا»، فعمد في ٣ تموز إلى استبدال الجنرال «فريسنر» به. ولم تمضِ تسعة أيّام حتّى وجّه الجنرال الجديد إلى الفوهرر رسالة شخصيّة يتبنّى فيها بكثير من الإلحاح مطلب سلفه؛ فاستدعاه «هتلر» وانطلق أوّل الأمر يهدّده، ثمّ رفّعه بنزوة من مزاجه إلى رتبة جنرال أوبيرست، وأمر بإجراء تبديل بينه وبين «شورنر»، فانطلق «فريسنر» يدافع عن «رومانيا»، وكُلّف الرجل الذي تعهّد «لهتلر» بأنّ «سيباستوبول» منيعة لا تُقهر بالمحافظة على «البلطيق» حتّى الموت!

أمّا الروس فكانوا قد نشطوا للهجوم، ولكنّ عملهم في جبهات «البلطيق» لم يتّسم بذاك الطابع الخاطف الذي امتاز به زحفهم على «فيتبسك» و«مينسك»؛ إلاّ أنّ ضغطهم المستمرّ قد أرغم الجيشين الألمانيّين على تراجع لا ارتداد بعده، وانتزعت منهما «بليسكو» و«أوستروف» و«دونابورغ» و«ميتاو» واحدة بعد واحدة، وما أقبل ٢٩ تموز حتّى بلغت جبهة «البلطيق» الأولى خليج «ريغا» في «تُكّوم»، فقُطعت بذلك مواصلات مجموعة الشمال البرّيّة، ولم يبقَ تموين رجالها الـ ٧٥٠،٠٠٠ ممكناً إلاّ عن طريق البحر.

وهكذا غدت الأراضي الألمانيّة ذاتها عرضة للتهديد والخطر؛ ففي ٣١ تموز استولى الروس على «كوفنو»، وتخطّت مقدّمة مصفّحة مدينة «سوالكي» في اليوم التالي فأدركت الحدود البروسيّة في «فيلكوفيشكي». لم تكن «رستنبورغ» إلاّ على بعد ٦٠ كلم! ومع ذلك تشبّث بها «هتلر» بشكل كاد يبلغ حدود الهوس، قائلاً: «إذا رحلت ضاعت «بروسيا» الشرقيّة.» ذاك أنّ قنبلة «شتاوفنبرغ» لم تبقِ منه سوى خرقة بشريّة: فقد أُصيب بآلام شديدة في المعدة والامعاء حملت رجال بطانته على الظنّ بأنّه قد أُصيب بتسمّم؛ وبات لا ينهض من فراشه إلاّ للتقرير اليومي. وكان يقول «لكيتل»: «إسهر جيّداً على ألاّ يحتجزني هؤلاء السادة أكثر من نصف ساعة، لأنّ في ذلك إرهاقاً لصوتي.» ولكنّ هذا الصوت الخابي كان يستعيد نشاطه بعض الأيّام فيتدفّق سيلاً من البلاغة الهيستيريّة؛ ففي ٣١ تموز مثلاً، تكلّم «هتلر» دفعة واحدة من الساعة ٢٣،٥٣ إلى الساعة ٥٩،٠٠، معلّقاً بشكل غريب على سلسلة الهزائم المنكرة التي جعلت المسافة الفاصلة بين الروس و«برلين» بمقدار ٥٠٠ كلم. قال: «الوضع ليس على ما يُظنّ من السوء ... ينبغي أن ننظر إلى ميزان السيّئات والحسنات... فقد تخلّصنا على الأقلّ من تلك الخطوط ذات المراحل البالغة الطول ...» وهكذا أنهى «هتلر» حرفته في الدعابة السوداء.

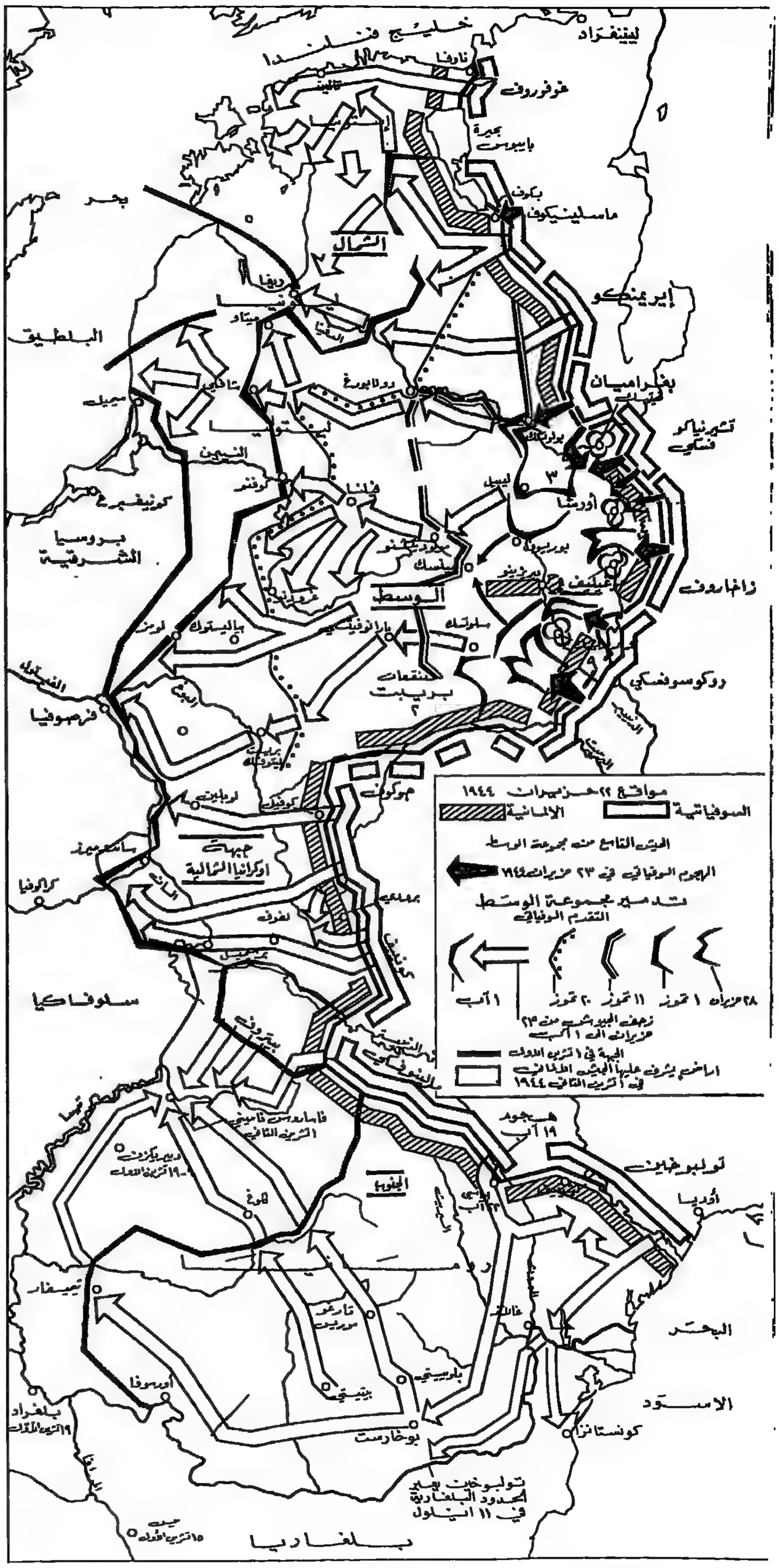

«روسيا» من نيسان إلى تشرين الأوّل.

«فرصوفيا» الشهيد البطلة ، في آب ١٩٤٤ .

لم يتلقّ ثوّار «فرصوفيا» من الروس حتى ولا خرطوشة ...

فتال بلا رحمة تدور رحاه في الشوارع .

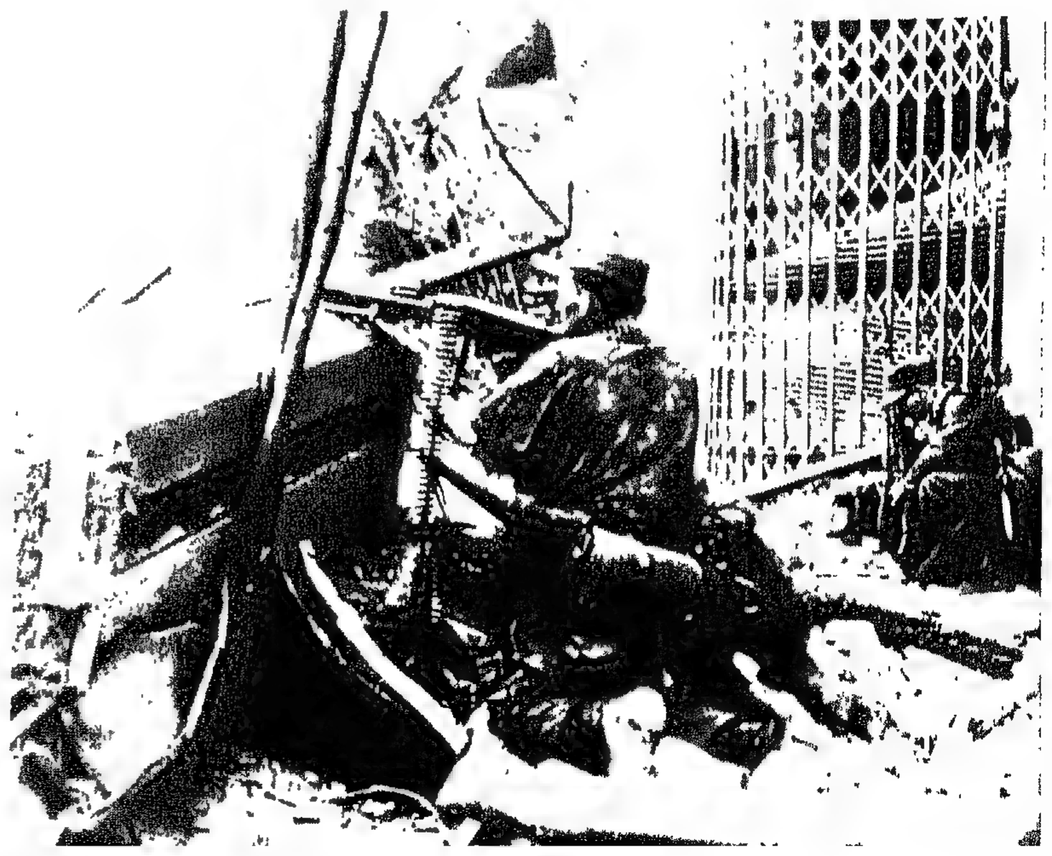

بدأ الزحف السوفياتيّ جنوبيّ «البريبت» في ١٣ تموز. كان الجيشان الألمانيّان التابعان لمجموعة شمال «أوكرانيا». المرابطان في عرض سهل متموّج يمتدّ مسافة ٤٠٠ كلم بين «البريبت» و«الدنييستر». يدعيان جيشين مصفّحين – وهما جيش الدبّابات الرابع . بقيادة الكولونيل جنرال «برايث»، وجيش الدبّابات الأوّل بقيادة الكولونيل–جنرال «راوس»–. إلاّ أنّهما كانا قد اضطرّا إلى التخلّي عن نصف دبّاباتهما في محاولة لتعمية الثغرة التي فتحها اندحار مجموعة الوسط في «روسيا البيضاء» . كان تحت تصرّف الجنرال «هاربي» خليفة «مودل». ٣١ فرقة مشاة و٥ فرق دبّابات يُقدّر مجموعها بـ ٦٠٠ دبّابة. أمّا جبهتا «أوكرانيا» الرابعة والأولى فقد شنّتا هجومهما بقيادة المارشالين السوفياتيّين «كونييف» و«بوبوف» وتحت إمرتهما ٧٠ فرقة مشاة و ٣٠٠٠ دبّابة .

وقعت الهزيمة الألمانيّة بمنتهى السرعة . فقد خُرِقَ موقع المقاومة الرئيس المدعوّ «برنز أوجين» في جانبَي «برودي» كليهما. وطُوّقت بالقرب من المدينة ثلاث فرق تابعة لجيش الدبّابات الأوّل تشمل ٤٠٠٠٠ رجل. هبّ الفيلق المصفّح الثالث لنجدتها والإفراج عنها. فدمّر الطيران السوفياتيّ إحدى فرقه. وصدّت الأخرى بعدما تكبّدت خسائر جسيمة . فرّ الجنرالان «لانغي» و«لاش» من الجيب بـ ٥٠٠٠ رجل. أمّا الجنرال «ليندمان» (الذي سيحكم عليه «هتلر» بالموت غيابيّاً) فقد استسلم باسم من تبقّى من المحاصَرين . تراجع «هاربي» إلى ما وراء «البوغ». ولكنّ «كونييف» مدّ الزحف نحو الشمال. وبعدما تخطّى مستنقعات «البريبت» ضمّ مجهوده إلى مجهود «روكوسوفسكي» في مطاردة ميمنة مجموعة الوسط . وراح المدّ الروسيّ يتقدّم ويتقدّم ... من «الناريف» إلى «الكربات» على مدى اتّساع «بولونيا» ، وغدا سرد العمليّات أشبه ما يكون بأوراق روزنامة تُنزع يوماً بعد يوم .

في ٢٢ تموز تمّ عبور «البوغ» في «شولم» . وفي ٢٤ سقطت «لوبلين». وفي يوم ٢٧ سقطت «بياليستوك» في الشمال و«ليمبرغ» و«ستانيسلاف» في الجنوب. وشهد يوم ٢٨ سقوط قلعتين سجّلتا اسمهما في تاريخ الحربين العالميّتين : «بزيميسل» التي صمدت في وجه حصار طويل عام ١٩١٥ ، و«بريست–ليتوفسك» التي انطلقت منها عمليّة غزو «روسيا» عام ١٩٤١ . في ٣٠ تمّ الوصول إلى «الفيستول» بالقرب من نقطة التقائه مع «السان» . كما تمّ اجتيازه على جبهة رحبة في الغد. وفي الأيّام التالية تمّ عبور النهر من جديد أمام «بولافي» ومن على جانبَي «بيليكا». ومضت القوّات الروسيّة تزحف باتّجاه «فرصوفيا». وفي ٣١ تموز بلغ جيش الحرس الثامن ضواحي المدينة في «أوتفوك» و«جوزيزوف» و«فيلينيكا». واستولى الفليق المصفّح الثالث. القادم للقائه من الشمال . على «رودزيمين» و«فولومين» مقترباً من ضاحية «براغا» .

"ستالين" يقف مكتوف اليدين إزاء سحق ثوّار "فرصوفيا"

إندلعت ثورة «فرصوفيا» في الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم التالي. الموافق أوّل آب. وراحت مفارز . ليس لها من الزيّ غير ساعدة على الزند حمراء وبيضاء. تنبثق من كلّ صوب. وتهاجم المحطّة المركزيّة. ومركز البريد. ومستودعات الجيش الألمانيّ. وجسور «الفيستول». وما هي إلاّ ثوان قليلة حتى كانت مدينة فيها مليون نسمة تتخبّط في خضمّ معركة حاميّة الوطيس.

كانت «فرصوفيا». وهي أوّل عاصمة احتلّها «هتلر». تعيش منذ

قاذفات اللهب تجهز على من تبقّى من المقاومين في «فرصوفيا» .

الصليب الأحمر يتولّى توزيع المؤن في «فرصوفيا» .

لقد اتُّخذت القاطرات الحديديّة متاريس .

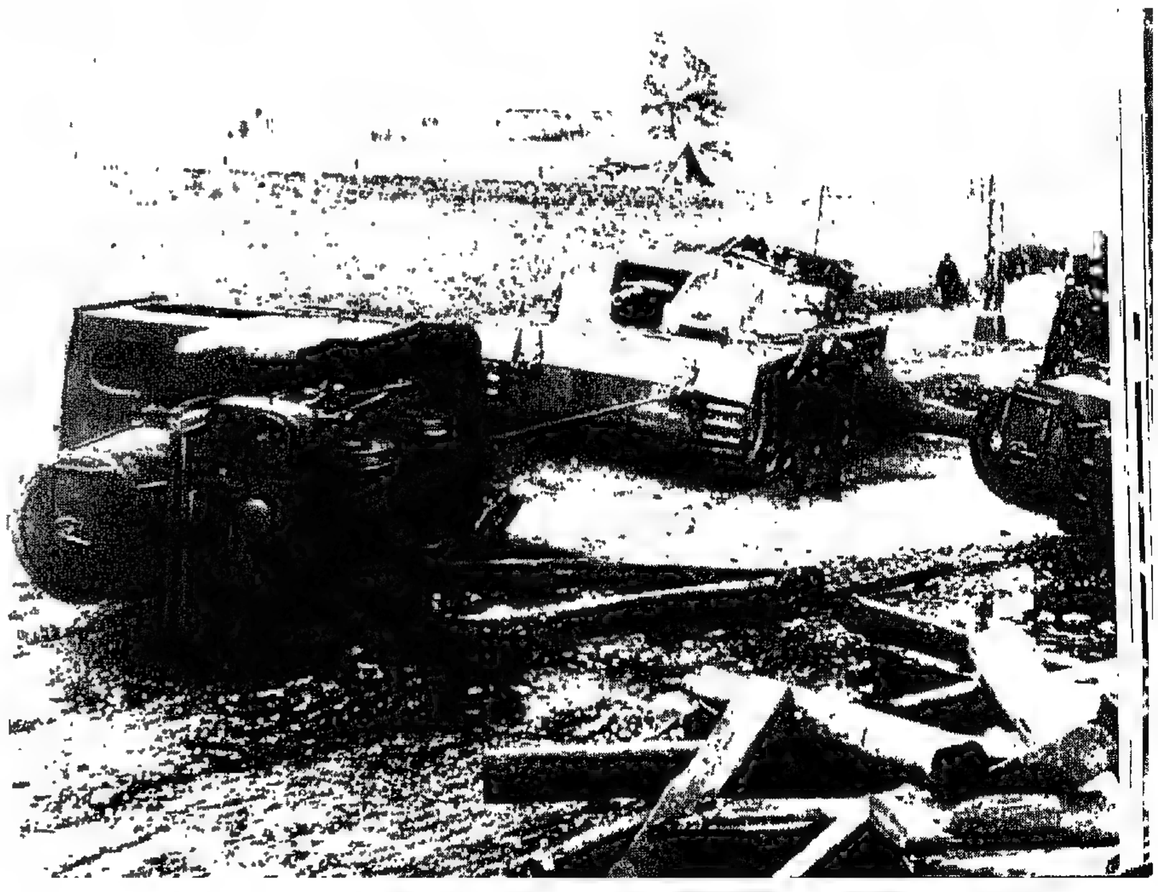

١٩٣٩ حياة كئيبة ومحمومة على السواء. وهي تعكس الواقعة القاسية المعقّدة التي حلّت «ببولونيا». في البدء أتت هزيمة «فرنسا». ومتانة التحالف «ستالين ـ هتلر» . تبعدان كلّ أمل في انتفاضة وطنيّة في مستقبل لا يُسبر غوره. فمن الشرق الذي كان منضمّاً «للاتّحاد السوفياتيّ». لم تكن تصل غير شائعات مشوّشة عن إبادة الطبقات المالكة ونفي السكّان. وفي الغرب كانت «ألمانيا» قد استعادت حدودها كما كانت قبل ١٩١٤ ولكنْ موسّعة بشكل ملحوظ. ولم يبقَ من آثار الدولة البولونيّة غير حكومة عامّة تضمّ مقاطعات الوسط. وكانت «فرصوفيا». التي خسرت مكانتها لصالح «كراكوفيا». قد فقدت حتّى لقب عاصمة تلك الرقعة الدائرة.

هذا وأتت الحرب الألمانيّة الروسيّة. وهي بداية ثورة الأمل. تعيد إلى «فرصوفيا» أهميّة عسكريّة بالغة. فجسراها الحديديّان. وجسورها البريّة الثلاثة. قد جعلت منها ممرّ «الفيستول» الرئيس. كما جعل مركزها في الوسط منها المرحلةَ الأكثر أهميّة بالنسبة للمؤخّرات الألمانيّة. فأقامت فيها إدارات عسكريّة ونصف عسكريّة. وطُبعت فيها جريدتان ألمانيّتان يوميّتان. كان الدمار الناتج عن حصار ١٩٣٩ سطحيّاً. وبعدما تعاقبت عمليّات القصف الإنكليزيّة الأميركيّة على «ألمانيا» شهدت العاصمة البولونيّة الكبيرة اتّساع حظوتها لدى السلطة العسكريّة في «الرايخ» الثالث.

كانت المأساة اليهوديّة الكبرى تأخذ مجراها في كلّ بقعة من بقاع «بولونيا» التي تعدّ ٥ ملايين يهوديّ من مجموع ٢٧ مليون نسمة. وقد كانت «فرصوفيا» رمزاً لها وتتويجاً.

كان موقع الحيّ اليهوديّ يقوم وسط المدينة. وراء الحيّ الحكوميّ مباشرة. وأرغم الألمانُ اليهودَ على إحاطته بحائط علوّه أربعة أمتار ومحيطه ١٨ كلم. وقد اتّخذ الحائط شكل حرف « T » غير منتظم. فكانت شعبته الجانبيّة تمتدّ من «ستار مياستو». المدينة القديمة. إلى المقبرة الإسرائيليّة. وشعبته العموديّة تمتدّ من محطّة القطار الشماليّة إلى جوار المحطّة المركزيّة. وكانت القُطُر تجتاز هذا القطاع المصوّن من غير توقّف متيحة لراكبيها مجال الإمعان في طرقات تعجّ بالجموع البائسة. كان الحيّ اليهوديّ يكتظّ قبل الحرب بنحو من نصف مليون نسمة؛ وقد جاء نحو من ١٥٠.٠٠٠ إلى ٢٠٠.٠٠٠ نسمة. طُردوا من مقاطعة «بوزن». ومن «الفارتيغو» . يضيفون عليه عبئاً ثقيلاً

أقيمت على مداخل الحيّ اليهوديّ مراكز للشرطة. فكان الدخول والخروج محظورين من غير إذن خاصّ بالمرور. وأمّا إدخال الموادّ الغذائيّة فكان يعتبر جنحة عقابها السجن. ثمّ إنّ أحكام التقنين كانت تُبعد اليهود عن نيل أيّة حصّة من اللحم أو الحليب أو الموادّ الدسمة. مانحة إيّاهم كيلوغرامين من الخبز شهريّاً؛ فقد كان مفروضاً. والحالة هذه . أن يفنى اليهود خَوَراً عن بكرة أبيهم .

ولكنّهم لم يفنوا . فالحائط لم يتمكّن من اعتراض وصول مؤن إضافيّة. كما أنّ حاجات الجيش الألمانيّ قد أطالت من عمر الجالية الإسرائيليّة في «فرصوفيا». ففي مئات من المصانع. كان آلاف من اليهود. ذكوراً وإناثاً. يكبّون بإبرهم على قمصان طغاتهم وبزّاتهم يخيطون ويرفأون. وقد رُفعت حصّة الخبز الشهريّة آنذاك إلى ٦ كيلوغرامات . إلاّ أنّ معدّل الوفيات قد ارتفع بصورة مفجعة؛ كانت الجثث تُلتقط من عن الأرصفة في كلّ يوم؛ وجاء انقطاع التيّار الكهربائيّ. وإلغاء كلّ وسيلة للتدفئة. يغدقان نصيبهما على لوعة الجوع وعذابه؛ ولكنّ الحيّ اليهوديّ بحدّ ذاته لم يمت .

وكان أوّل موقف له هو الخضوع . قال أحد الناجين : « لقد تمّ

الاعتقاد بأنّ الوباء سيودي بـ ٧٠٠٠٠٠ يهوديّ. أو ١٠٠٠٠٠٠. فيكتفي بهذا المقدار. ووجهة النظر هذه قد عرضت في المناقشات الخاصّة. كما عرضت في جلسات الجالية اليهوديّة المكلّفة بإدارة الحيّ اليهوديّ».

ثمّ لوحظ أنّ الحيّ اليهوديّ راح يفقد سكّانه ...

وقد حدث التفريغ من خلال شارع «ستوكي» الذي يقود نحو خطوط السكّة الحديديّة في محطّة الشمال. ففي كلّ صباح، ابتداء من شهر كانون الثاني ١٩٤٢، حشد في المحطّة ٧ آلاف شخص في رحلة إلى المجهول، وكان أكثرهم من المتطوّعين الذين اقتنعوا بأنّهم كانوا متّجهين نحو معسكرات العمل. وبأنّهم قد خلصوا من الاختناق البطيء داخل الحيّ اليهوديّ.

وفي ذات يوم أبلغت المقاومة البولونيّة «لندن» بأنّ يهود «فرصوفيا» كانوا يُنقلون إلى معسكرات «ماجدانيك» و «تريبلينكا» حيث كانوا يُبادون إبادة كاملة. وعجبت المقاومة لكونها لم تلقَ لدى الإذاعة البريطانيّة أيّ تجاوب على الإطلاق؛ فقد أبى الانكليز أن يصدّقوا، وخافوا الانزلاق بناء على إحدى تلك الشائعات المريبة الّتي تجتاح البلاد الجاثمة تحت كابوس الطغيان والحقد.

في نهاية ١٩٤٢ مكّن إخلاء الحيّ اليهوديّ من تقليص ثلثيه. وبقيت حظيره ذات شكل مثلّث، أسميت «الحيّ اليهوديّ الصغير»، قائمة في زاوية طريقَي «توارداً» و «بروسترا»، في وسط المدينة. في ذلك الحين لم يكن قد بقي في «فرصوفيا» أكثر من ٨٠٠٠٠٠ يهوديّ على وجه التقدير. ولم يكن أحد منهم يرتاب في المصير الذي كان ينتظره.

وحدثت أوّل مقاومة مسلّحة في كانون الثاني ١٩٤٣. فقد قُتِل بعض رجال الصاعقة الذين كانوا يقتنصون بعض الناس، فلم تحدُث أيّة ردّة فعل قطّ. ممّا أثار الدهشة العامّة. وما كان من الألمان إلاّ أن تلاشوا. وتوقّفت وسائل النقل كلّها. وراحت بقايا الحيّ اليهوديّ تتنظّم للموت في غمرة القتال. وراحت لجنة مقاومة، وهي عبارة عن حكومة حقيقيّة لمدينة اليأس تلك، تعمل علناً في الرقم ٣٤ من شارع «ميلا»؛ فراح الرجال يصنعون القنابل اليدويّة وقنابل «كوكتيل مولوتوف» بواسطة متفجّرات ووقود لا يدري أحد كيف حصلوا عليها؛ وقد اختزنوا كذلك كميّات من الزاج لتشويه الجلاّدين.

كان يوم ١٩ نيسان وهو اثنين عيد الفصح، اليومَ الذي اختاره النازيّون للقيام بعمليّة القمع النهائيّة. فاجتاحت الحيّ اليهوديّ من خلال طريقَي «ستوكي» و «نيلوكي» أربعةُ سيّارات رشّاشة، وكتيبتان من جيش الصاعقة. وبعض تشكيلات الشرطة الألمانيّة والبولونيّة. وقد نظّم العمليّة البريغادفوهرر «شتروب»، قائد شرطة قطاع «فرصوفيا»، وكانت تقضي بإخلاء المنازل كافّة. وحشد السكّان في المقبرة الإسرائيليّة بانتظار نقلهم إلى المعتقلات.

ولكنّ ردّة الفعل قد خنقت أنفاس المهاجمين بمفاجأتها وعنفها. ففرّوا هاربين. وعادوا إلى اجتياز الحائط تحت نيران تنصبّ عليهم من الأنبار والسطوح. وهرع كولونيل الصاعقة «فون سامرن» إلى مركز قيادة «شتروب» يطلب إليه أن يستدعي طائرات «شتوكا». وما هي إلاّ ساعات حتّى كان زجاج «فرصوفيا» يصطكّ تحت رعيد المدفع، وتصاعدت فوق الحائط غمامات الدخان: فقد كان الألمان يقصفون الحيّ اليهوديّ. وراح اليهود يحرقون المؤسّسات الّتي كانت تعمل لحساب الجيش الألمانيّ. فكان الحيّ اليهوديّ يطلق تحدّيه وهو في نزاعه الأخير.

وعاد الألمان في اليوم التالي فدخلوا الحيّ اليهوديّ حاملين قاذفات اللّهب. وراح المحرقون يتقدّمون خطوةً خطوة مضرمين النار في المنازل

قافلة من اليهود البولونيّين تصل إلى «أوشفيتز».

واحداً واحداً. وقد خرج من المنازل أولئك الذين أرادوا ذلك أو استطاعوا إليه سبيلاً؛ وانتحر منهم كثيرون وقد ألقوا بأنفسهم إلى الشارع. وأمّا أولئك الذين أسلموا أمرهم فقد سيقوا أرتالاً طويلة مرفوعي الأيدي حتّى المقبرة الإسرائيليّة. ولكنّ مجموعات مؤلّفة من ٢٥ إلى ٣٠ مقاتل. من جملتهم نساء عديدات، وهنّ أكثر شجاعة وصراوة من الرجال. قد قاتلت حتّى الموت. ولم يعتبر الألمان أنّ الثورة قد أُخمدت تماماً إلاّ في ٢٣ أيّار في الساعة ٢٠،١٥، حين نسفوا الكنيس الكبير. وبعدما قضوا على آخر مجموعة من المقاومين قرب ساحة «مورانوفسكي». واستمرّت مطاردة المنعزلين في الأقبية والمجارير. وتدمير الحيّ اليهوديّ النظاميّ، حتّى أوائل حزيران. ولم يبقَ الحائط يزنّر غير صحراء من رماد. وقد انتصب في وسطها سجن «باوياك» وهو المبنى الوحيد الذي نجا من الخراب.

لقد بقي عدد الضحايا اليهود أمراً مجهولاً؛ وليس لذلك أهميّة. إذ أنّ موتاً أشنع كان ينتظر الناجين. وأمّا الخسائر الألمانيّة فقد كانت طفيفة: ١٥ قتيلاً، ونحو من مئة جريح. ولكنّ انتفاضة اليأس، يقوم بها قوم وُصموا بالجبن الوراثيّ، قد أحدثت دهشة كبيرة. حتّى إنّ الوثائق الألمانيّة قد نسبت شراسة المقاومة للأنصار، «للّصوص» البولونيّين الذين سارعوا لنجدة الثائرين. ولكنّ اليهود ينكرون ذلك. فالمقاومة الآريّة قد أنقذت بعض المقاتلين، ولكنّ البريغادفوهرر من جهة أخرى، قد أطرى في تقريره الشرطةَ البولونيّة «الّتي ساعدت بعزم فريد على قمع ثورة الحيّ اليهودي».

هنالك كارثة أخرى. وظاهرة واقعيّة رهيبة كانت تشيع الاضطراب في «بولونيا». فلقد عُرِف نهائيّاً ماذا حلّ بالعشرة آلاف ضابط البولونيّين الذين أسرهم الروس في ١٩٣٩. أجل، فقد كانوا يرقدون تحت الأشجار في غابة «كاتين»!

كانت الحكومة البولونيّة والصليب الأحمر الدوليّ يبحثان عن هؤلاء المفقودين منذ ثلاث سنوات. وكان الجنرال «سيكورسكي» قد طرح السؤال على «ستالين» بهذا الصدد أثناء زيارة قام بها «لموسكو». فأجاب «ستالين»

الوصول إلى معسكرات الإفناء!

بلهجة ساخرة: «إنّني إخال بولونيّيك قد لاذوا بالفرار عبر «منشوريا». وفي شباط ١٩٤٣ . عندما اكتشف الألمان ثماني حفر مشتركة بالقرب من «سمولنسك». لم يخامر الشعب البولونيّ أدنى الشكّ في المسؤولين عن تلك المجزرة الرهيبة. .

لقد خلقت الانتصارات الروسيّة وضعاً رهيباً بالنسبة للمواطنين البولونيّين. فالمنقذ الذي كان يتقدّم بخطى واسعة كان عدوّاً تاريخيّاً لديه من العزم والعسف ما للألمانيّ ذاته. وأمّا الصديق الحقيقيّ فكان ذلك الإنكليزيّ البعيد العاجز. وعلى أثر هلاك «سيكورسكي» في حادث طائرة. ارتفع صوت خلفه الضعيف «ميكولاجيك». ليرتطم بالآداب الإنكليزيّة والأميركيّة حيال الحليف السوفياتيّ. مستنزلاً عليه من جرّاء ذلك تعنيفاً قاسياً من «روزفلت» وحتّى من «تشرتشل» نفسه. فقد كان يطالب بحدود «بولونيا» الشرقيّة: كما رُسمت سنة ١٩٢٠. في الوقت الذي كان فيه الأميركيّون والإنكليز قد أقرّوا «لستالين» بصلاحيّة معاهدة التقسيم التي وقّعها مع «هتلر». وأمّا استعادة الحريّات الديمقراطيّة فلم تكن أقلّ معضلة من إعادة الحدود الإقليميّة؛ فقد أقامت «موسكو» سلفاً في «لوبلين» الحكومةَ الموالية التي يبتغونها «لبولونيا». وكما كانت الحال بالنسبة «لفرنسا» كانت المقاومة تتّخذ شكلَ حرب أهليّة. ولكن، على خلاف «فرنسا»، كان الجيش الأحمر مقبلاً وهو بمثابة السلطة المدنيّة للشيوعيّة حاملاً معه فوق دبّاباته هدم النظام الطبقيّ وسيطرة الطبقة العاملة .

كان الحظّ الضئيل الوحيد في إيجاد «بولونيا» حرّة كامناً في الانبعاث تلقائيّاً إبّان التحرير، ومن ثمّ، وبمعونة الحلفاء الغربيّين، التفاوض مع «الاتّحاد السوفياتيّ» لإيجاد تدبير لائق. وأكبّ روّساء الجيش السريّ على هذه الأعجوبة يسعون إلى تحقيقها؛ فراحوا يجهدون، وهم العسكريّون المحترفون، في إحلال الانضباط الصارم ومبادىء غير مبادىء الإرهاب بين جنودهم العاملين في الخفاء، إذ كانوا يبتغون ثورة منظّمة تتّخذ قالباً عسكريّاً، وتعمل على إقامة نظام قانونيّ على وجه السرعة .

وكان اسم المخطّط العام «بورزا»، أي «عاصفة». وكان القائد الأعلى الذي حمل اسم الجنرال «بور». هو الكولونيل «كورومفسكي» عينه، ذاك الذي أصغى لصوت ضميره فبقي على أرض الوطن ساعة أراد الانتقال إلى «المجر». وتركت له الحكومة البولونيّة في «لندن» مجال الحكم على الساعة المناسبة لمباشرة التنفيذ. لم يكن «الكرملين» قد أعطى أيّة ضمانات؛ إلاّ أنّ الجيش الأحمر على أبواب العاصمة، وقد احتلّ نصف «بولونيا» كما كانت سنة ١٩٣٨. فالثورة يجب أن تندلع للحال . وإلاّ فلسوف تفوت السانحة أبداً. لقد بدأ الألمان ينصرفون، وقد احتجبت صحفهم عن الصدور. وأغلقت مكاتبهم، وراح أتباعهم يحتشدون في القُطُر الأخيرة. وكان جنودهم يجتازون جسور «الفيستول» مشتّتين، وقد ساق بعضهم أمامه بقرة . وهي آخر احتياط من المطبخ السيّار ! وأمام لوحة الهزيمة تلك عصفت بسكّان «فرصوفيا» غبطة مثيرة. فالثورة . والحالة هذه . ستندلع من تلقاء نفسها إن لم يصدر «بور» أوامره بالثورة . وفي أيّ حال كانت الإذاعة السوفياتيّة تحثّ البولونيّين بلا انقطاع على حمل السلاح . موعزة إليهم بأن يهاجموا العدوّ الممقوت من كلّ صوب . وبكلّ وسيلة من وسائلهم .

كانت القوّات الألمانيّة في «فرصوفيا» مكوّنة من جند المرحلة ومن تشكيلات الشرطة والأرياف العامّة فحسب. ومع ذلك لم تكن مكاسب التمرّد الأولى مرضية إلاّ جزئيّاً؛ فحوصرت المباني التي كانت تحتلّها الإدارات الألمانيّة، ولكن لم يتمّ الاستيلاء على واحد منها قطّ؛ وهوجم المطاران من غير جدوى؛ وبعد ما تمّ احتلال المحطّة المركزيّة برهة من الزمان. عادت إلى أيدي الألمان. وأمّا الكتيبة التي كانت مكلّفة بالاستيلاء على ضاحية «زوليبورز». فقد أخفقت في محاولتها الأولى . وتحتّم عليها أن تذهب لإعادة تنظيم صفوفها في غابة «كامبينوس» المتاخمة للمدينة. إلاّ أنّ أكثر الإخفاقات خطورة كان العجز عن الاستيلاء على جسور «الفيستول»؛ فضاحية «براغا»، وهي إلى شرقيّ النهر، وعلى بعد ١٠ كلم من المقدّمات السوفياتيّة. قد بقيت. والحالة هذه، منفصلة عن معقل الثورة الرئيس؛ فعمدت الدبّابات الألمانيّة إلى سحق العصيان فيها في بضع ساعات.

وعلى نقيض ذلك كان الجنرال «بور» سيّد «ستاري مياستو»، والجزء الأكبر من قلب «وولا» ومن حيّها العماليّ . وإن كانت الجسور قد بقيت بعيدة المنال، فقد أوقفت حركة النقل على «الفيستول» بصورة تامّة، بعد ما كانت تشمل في الليلة السابقة مئتي قطار. واستولى الثوّار على مخزونات من المؤن كبيرة حلّت موقّتاً مشكلة التموين. وعلى كميّة من الأسلحة، وحتّى على دبّابتين من طراز «تيغر» أصلحتا تحت القنابل. وأصبحتا بذلك العنصر المصفّح الأوّل للجيش البولونيّ المنبعث. وأبلغ «بور» «لندن» أنه قادر على المقاومة حتّى دخول الجيش السوفياتيّ إلى «فرصوفيا» .

ولكنّ حادثاً غير منتظر قد وقع؛ فقد حشد المارشال «مودل» شخصياً قوّة إجهاز تضمّ الفرقتين المصفّحتين ٤ و١٩، وفرقة المظليّين «هيرمان غورنغ»، وفرقة الصاعقة «فايكنغ». وأمّا الفيلق السوفياتيّ الثالث المدرّع، الذي كان قد وصل إلى «فولومين» كالسهم، فقد أُبيد من ٣١ تمّوز إلى ٣ آب. فضربة الإيقاف هذه كانت محكمة التسديد، ولكن لم يكن لدى «مودل» مشاة لاستغلالها، ولا وقود لإعادتها. وفي ٥ آب تلاشت الأزمة. فقد استُدعيت قوّات الصدام نحو الشمال، حيث كان الخطر على «بروسيا الشرقيّة» يتفاقم؛ ولم يبقَ أمام رأس جسر «براغا» غير فرقة للمشاة خائرة، وبعض عناصر الفرقة المصفّحة ١٩ .

ولكنّ قرار «ستالين» قد اتّخذ؛ ففي ٣ آب استقبل «ميكولاجيك» الذي قدم من «موسكو» في محاولة أخيرة للتفاوض. وعندما طلب الرئيس البولونيّ من «ستالين» نجدة الجيش السريّ أبدى تعجّباً صاخباً، فقال: «على أيّ جيش تتكلّم؟ ما قيمة جيش لا مدفعيّة له ولا دبّابات ولا طيران؟» فالماكر الذي أصدر في ١٩٤١ مرسوم حرب العصابات «مشياً وعلى ظهر الخيل»، ما يزال يصدر للشعوب الأوروبيّة كافّة، وللبولونيّين خصوصاً، أمر العصيان بقبضاتهم المجرّدة، ولكنّه يرفض الاعتراف بالرجال الذين استولوا على «فرصوفيا»، وحجّته أنّهم لا يملكون الاعتدة الكاملة التي يتميّز بها الجيش !

في «فرصوفيا» لاحظ السكّان أنّ ثمّة تحوّلاً قد طرأ على مجرى المعركة: فالمدفع الروسيّ، الذي كان يدوّي على ضفّة «الفيستول» اليمنى منذ ٢٥ تمّوز، قد همدت أنفاسه . وأمّا الطائرات السوفياتيّة، التي كانت تسيطر على السماء قبل الثورة، فقد تلاشت . وراحت تشكيلات صغيرة من طائرات «شتوكا» تضرم النار في المدينة بأمان تامّ. وفي ٤ آب، ولأول مرّة، أنزلت طائرتان بريطانيّتان بالمظلاّت بعض صناديق الأسلحة والذخيرة، وذلك بفضل مبادرة طيّاريهما البولونيّين ولا ريب . وفي الليالي التالية عادت طائرات أخرى تنقل الحدّ الضروريّ الأدنى لتمديد المقاومة . كانت القواعد الجويّة الروسيّة على مسافة بضع دقائق، إلاّ أنّ رصاصة سوفياتيّة واحدة لم تُقدَّم لمقاتلي «فرصوفيا» .

وثارت ثائرة «تشرتشل»، فراح يحرّض «ستالين»، لافتاً نظره إلى السخط وإلى الموجة المعادية للسوفياتيّة اللذين تولّدا في «إنكلترا» بسبب التخلّي عن الثوّار . وأجاب «ستالين» بأنّ حكومته إنّما تريد التنكّر «للمغامرين، ولتلك الزمرة المجرمة» . وطالب «تشرتشل» عندئذ بأن يُسمح

لطائرات الجوّ المانكيّة التي تموّن «فرصوفيا» بالهبوط في «بولتافا». كما تفعل الطائرات التي كانت تسحق «ألمانيا» ذهاباً وإياباً. فكان رفض ستالينيّ جديد. وأمّا «روزفلت»، الذي لم يكن قد عاضد رئيس الوزارة إلاّ بتحفّظ. فقد تراجع سريعاً إذ قال: «أنا لا أرى بالإمكان أن نسعى أكثر من ذلك...» وحسب التاريخ الرسميّ لسلاح الجوّ الأميركيّ. كان موقف قادة الطيران الأميركيّ الكبار أصرح من هذا. فطالبوا بقطع مهمّات التموين عن البولونيّين «لأنّ من شأنها أن تعرّض علاقاتنا الطيّبة مع السوفيات للخطر ...»

في «فرصوفيا» اتّخذ القتال أشكالاً وحشيّة. وقال المارشال «مودل»: «إنّ على أولئك الذين سبّبوا العصيان بفسادهم ووحشيّتهم أن يقمعوه بأنفسهم. فهذا ليس من شأننا نحن الجنود.» وعلى الرغم من هذا التصريح كان على الجيش الألمانيّ أن يتدخّل لتوجيه العتاد الخارق القوّة الذي استُعمل لإخضاع المدينة: دبّابات «تيغر»، آليّات موجّهة «غوليات»، قطع من عيار ٣٨٠، وحتى مدافع الهاون الهائلة «كارل» من عيار ٦٠٠ مم. التي تطلق قذائف من زنة طنّين تسحق مجموعة بيوت كاملة. ولكنّ العمليّات كانت بإمرة «همار»، ومشاة القمع تضمّ مجرمين لئاماً: فوج الصاعقة «ديرليفانجر»، وأعضاؤه جميعاً من مجرمي الحقّ العامّ، والكتيبة الروسيّة «كامينسكي»، المختصّة بإبادة الأنصار، إلخ. وفي حيّ «وولا» ارتُكبت أعمال الشطط التي يعجز عن وصفها القلم واللسان، فأُبيد مرضى المستشفى عن بكرة أبيهم بصورة وحشيّة، وكذلك المصابون بالسرطان في معهد «كوري». ورفض «بور» الاقتصاص من الأسرى الألمان فلقوا لديه معاملة مطابقة لقوانين الحرب، باستثناء بعض الحالات القليلة.

استمرّ القتال طوال شهر آب. وأعان الروس والألمان غير مرّة أنّ مغامرة «فرصوفيا» قد صُفّي أمرها، وفي كلّ مرّة كانت محطّة إذاعة «بليسكافيكا» تذيع تكذيباً طنّاناً. واستعاد الألمان السيطرة على «وولا» وعلى الحيّ اليهوديّ القديم، غير أنّ «بور» لم يدخل «ستارا-مياستو» إلاّ في ٢٩ آب، من خلال المجارير، مخلّفاً وراءه تاريخ «بولونيا» التي غدت كتلة من أطلال. كان الثوّار ما يزالون يسيطرون على وسط المدينة من حدائق «ساكسن» إلى منتزه «لازينيكي»، وكذلك على ثلاث مناطق داخليّة هي: «زوليبورز» إلى الشمال التي أعادوا احتلالها، وإلى الجنوب «موكوتوف» و «تشيرنياكوف».

ولكنّ الوضع كان يتأزّم يوماً بعد يوم. فهنالك ٢٠ أو ٣٠ حريقاً تستعر باستمرار، وقد غدا الماء نادراً للغاية، وكان الطقس بالغ الحرارة، وكانت رائحة الجثث التي دُفنت كيفما اتّفق، أو التي لم تُدفن إطلاقاً، تسمّ حجاب الدخان الذي كانت المدينة تقضي تحته أيّامها ولياليها، وراحت الديزنتاريا ترهق الأجساد، وكان شعور العزلة، وتحقير راديو «موسكو» يملآن القلوب غمّاً. ومع ذلك، لم يصغ «بور» لإنذار الأوبيرعروبنفوهرر «فون ديم باخ-زالفكي» الذي عرض على الثوّار معاملتهم بموجب قوانين «لاهاي» إذا هم استسلموا، متوعّداً بإبادتهم إذا هم أصرّوا على المضيّ في قتال يائس.

في ٤ أيلول دُمّر مصنع الكهرباء تدميراً كاملاً، بعدما بقي يعمل تحت القذائف منذ بداية الثورة. وفي ٥ استبدّ الذعر «ببوفيسلا»، وهو حيّ على ضفّة «الفيستول». وحصل «بور» على وقف لإطلاق النار مدّته بضع ساعات ليتيح للمدنيّين فرصة مغادرة العاصمة؛ ولكنّ بضعة آلاف من السكّان فحسب استفادوا من هذه السانحة.

وفي ١٠ عاد المدفع الروسيّ فجأة إلى القصف. وفي ١٣ تسلّقت حشود جريئة سطوح المباني العالية التي صمدت في وجه القصف، لتشاهد الألمان والروس يتقاتلون في طرقات «براغا». وفي اليوم نفسه عادت آخر دبّابات الفرقة الألمانيّة المصفّحة ١٩ للعبور إلى الضفّة اليسرى. وبعد ذلك تفجّرت الجسور جميعها. وقامت كتيبة من فرقة «برلنغ» البولونيّة. كانت تعمل مع الجيش الأحمر، باجتياز «الفيستول» الذي كانت مياهه كثيرة الانخفاض، ولكنّها بدلاً من أن تقيم الاتّصال بالثوّار. عادت إلى الانسحاب معجلةً. كان هنالك خطّ هاتفيّ واحد بقي قائماً مع «براغا». فحاول «بور» استخدامه للاتّصال «بروكوسوفسكي». ولكنّه لم يتلقّ جواباً. وتعطّل خطّ الهاتف. وصمت المدفع الروسيّ. وهمدت كلّ حركة على الضفّة اليمنى. وعادت الطائرات الروسيّة إلى الاختفاء. وبقي حصار «فرصوفيا» مستمرّاً.

في ١٦ أيلول سقطت منطقة «تشيرنياكوف». واحتلّ الألمان شارع «جيروزوليمسكايا»، وبذلك شطروا القطاع الوسط شطرين. كانت آخر حصّة قد وُزّعت على الجنود: وقد بدأ المدنيّون يموتون عطشاً.

بقيت هنالك ساعة كبرى. ففي ١٩ أيلول، في الساعة الحادية عشرة صباحاً، غادر السكّان جميعاً ملاجئهم، غير مبالين بشظايا المدفعيّة المضادّة للطائرات التي كانت تتطاير وتهطل وابلاً كالبَرَد. كانت الصبيحة رائعة، وكان المشهد عجيباً فريداً: فقد قامت ١١٠ طائرات من طراز «ب-١٧» بعمليّة إنزال في «فرصوفيا» بواسطة المظلاّت. فألقت بـ ١٠٨٠٠ صندوق. وقال «بور» إنّ تسعة من كلّ عشرة صناديق قد سقطت في الأحياء التي كنّا نحتلّها لبضعة أيّام خلت ...

ولسوف يصمد «بور» حتى ٢ تشرين الأوّل. وهو اليوم الرابع والستّون للحصار. وبعد ذلك. وبعد ما جدّد الألمان عرضاً للاستسلام مشرّفاً، أذعن للأمر الواقع.

في تلك المرحلة من أوائل تشرين الأوّل ١٩٤٤. كانت «فنلندا» قد وقّعت مع «روسيا» معاهدة صلح تؤمّن لها البقاء. وفي البلاد البلطيقيّة تمكّن الألمان من فكّ أسر مجموعة جيوشهم الشماليّة. ولكنّ «هتلر» رفض أن يعيد إلى «ألمانيا» المهدّدة قوّات «شورنر». وفي «بولونيا» عرفت الجبهة استقراراً على «الناريف» وعلى «الفيستول» وعلى «الفيسلايا». وصرّح «هتلر» مجدّداً: «لقد ولّى الصعب ...» وقال كذلك: «لقد كنت مصيباً. فمصير الحرب يتقرّر الآن في الجنوب».

وفي سبيل الدفاع عن «رومانيا» كان «هانس فريسنر» يقود مجموعتين: «مولدافيا»، وهي بإمرة الكولونيل-جنرال «فوهلر»، و«بيسارابيا»، التي أوكل أمرها للروماني «ديميتريبيسكو». وكانت قوّاتها تضمّ الجيش الألماني الثامن في مجموعة «فوهلر»، والجيش الألماني السادس في مجموعة «ديميتريبيسكو». والجيش الروماني الثالث في المجموعة الأولى. والجيش الروماني الرابع في الثانية. وكان المجموع يشكّل قوّة لا يُستهان بها. أي ٢٣ فرقة رومانيّة، و٢١ فرقة ألمانيّة، منها فرقتا المصفّحات ١٣ و ٢٠.

منذ الأيّام الغابرة من معارك «الدون» كانت القوّات الرومانيّة قد تخاذلت مراراً عدّة. وعلى نقيض ذلك، كانت الجبهة الداخليّة قد بقيت متماسكة. ومع أنّ الديكتاتور «أنطونيسكو» قد تكبّد خسائر فادحة، ومع أنّ وطنه قد تفكّك على يد «ريبنتروب»، فقد بقي مخلصاً للتحالف الألمانيّ. وكان المليك الشابّ تافهاً تماماً، ولم تكن هنالك أيّة خشية من بأسه. وأمّا الملكة الأم، التي عادت إلى «رومانيا» بعد استقالة زوجها. وذهاب المحظيّة المشؤومة «ماجدة لوبيسكو»، فقد كانت معادية للألمان. ولكن بحذر. وأمّا «جول مانيو»، الرئيس السابق لحزب الفلاّحين، فقد كان في الظاهر يتوق للنسيان. وكان السفير الألمانيّ في «بوخارست»، «فون كيلنجر»، وهو قائد غوّاصة سابق، واثقاً من موقف «رومانيا». قال: «إنّ المارشال «أنطونيسكو» ينعم بموازرة الشعب والملك. لا خوف من قيام أيّة أزمة حكوميّة ...» وقد كانت «لهتلر» به ثقة مماثلة؛ قال:

الدبّابات السوفياتيّة تدخل إلى «بوخارست» .

«سوف أبقى ناعم البال ما دام «أنطونيسكو» باقياً هناك» . وقد قال «انطونيسكو» نفسه «لغوديريان» معلّقاً على محاولة ٢٠ تمّوز : «لا مجال للتفكير بحدوث خيانة كهذه عندنا. فبإمكاني أن أنام هانئاً، ورأسي بين أقدام جنرالاتي ...»

هاجم الروس في ٢٠ آب . فقامت جبهة «أوكرانيا» الثانية بقيادة «مالينوفسكي» ضدّ «فوهلر» . وقامت جبهة «أوكرانيا» الثالثة بقيادة «تولبوخين» ضدّ «ديميتريبيسكو» . سدّد الأوّل ضَربته إلى ما بين «البروث» و «السيريث»، باتّجاه الجنوب، وضرب الآخر ضربته منطلقاً من رأس جسر على «الدنيستر» ، باتّجاه الغرب . وكان المجهودان متّجهين نحو «غالاتس»، وهما يهدفان إلى تطويق ناتئة «كيشينيف». وكان «أنطونيسكو» نفسه قد طلب إخلاءها، عارضاً التضحية بأرض رومانيّة لتقصير الخطوط والإفراج عن قوّات الاحتياط . ولكنّ «هتلر» لم يرضَ بذلك .

لم يصب أيّ هجوم سوفياتيّ من قبل ما أصابه هذا الهجوم من نجاح سهل. فمنذ ٢٣، أقام «مالينوفسكي» و«تولبوخين» اتّصالهما على «البروث» بين «ليوفا» و «كاهول». لم يقاتل الرومانيّون قط. وفي بعض الأماكن ارتدّوا على حلفائهم! وقد فُقدت ستّ عشرة فرقة ألمانيّة، بعدما قُطع عليها سبيل التراجع .

لم يكد نهار الكوارث هذا ينقضي حتّى كانت الصاعقة تشقّ مقرّ «فريسنر» العامّ في «سلانيا»، ومن ثمّ مقرّ «هتلر» العامّ في «رستنبورغ». فالملك «ميشال» قد استدعى المارشال «أنطونيسكو» وأوقفه في داخل القصر الملكيّ . إنّ هذه المكيدة لصورة طبق الأصل عن تلك التي أودت «بموسوليني» من ناحية البواعث ومن ناحية المظاهر على السواء: فالملكيّات قد رضيت بالطغاة في الزمن الذي كانوا فيه يجرّون عليها السطوة والفائدة، ولكنّها أدركت مع تقلّب الأوضاع هول السلطة الشخصيّة، وفي مجهود يائس لتمديد البقاء المتجسّد فيها راحت تقضي على الرجال الذين ربطت مصيرها بمصيرهم!

ولكنّ الفارق مع الصيف المنصرم هو أنّ الأمور هنا كانت تسير بسرعة . فالروس على وشك الوصول؛ ومنذ الساعة ٢٠ طلبت الحكومة الرومانيّة الجديدة الحصول على هدنة. وأبرق الجنرال «غرستنبرغ»، الملحقُ الجويّ الألمانيّ، يقول إنّ الانقلاب من فعلة «زمرة ضئيلة من الجبناء».

وأمر «هتلر» بإذلال هذه الزمرة، وأمر الطيران الألمانيّ بقصف القصر الملكيّ، محدثاً تأثيراً شديداً، ولكن قليلاً من الأضرار. وكانت ردّة الفعل هي إعلان «رومانيا» الحرب على «ألمانيا»، وإصدار أمر إلى القوّات الرومانيّة بمهاجمة الألمان! ونتج عن ذلك فوضى غامرة: راح السوفيات يتقدّمون خلالها من غير أن يلقوا أيّة مقاومة، وانهار كلّ شيء وسط الركام!

سقطت «بلويستي» وحقول النفط في ٢٩ آب؛ وسقطت «كونستانزا» في ٣٠، و«بوخارست» في ٣١. وفي ٥ أيلول أقام الروس الاتّصال مع عصابات «تيتو» في «تورنو-سيفيرين». وكان البلغاريّون قد حذوا حذو «رومانيا»، فأعلنوا الحرب على «ألمانيا»، ولكنّ «روسيا» أعلنت الحرب عليهم، ولم يتمكّنوا من تفادي احتلال بلدهم احتلالاً كاملاً . وفي أوائل آب كان «هتلر» قد أعرب مجدّداً للمارشال «فون فايخس» عن عزمه على الدفاع عن «البلقان» بكاملها؛ وإذ به الآن مرغم على إصدار الأوامر بالجلاء المعجل عن «كريت» و«اليونان» و«يوغوسلافيا». واجتيزت «الكربات» من غير قتال، وتمّ اجتياح «المجر»، وراحت الحرب ترهق «ألمانيا» في الجنوب ومن الشرق في آن معاً !

مسيرة مزدوجة باتّجاه "طوكيو"

لا بدّ من عودة وجيزة إلى المحيط الهادىء. لنشهد حرباً تدور رحاها على مسرح جغرافيّ أوسع كثيراً، ولكنّها تسير بخطى أبطأ كثيراً.

في ١٢ آذار ١٩٤٤ قرّر رؤساء الأركان الستراتيجيّة الأميركيّة الخاصّة بالمحيط الهادىء. فثمّة عمليّة تنتهي، هي إخضاع «رابول». وهناك عمليّتان أخريان تبدآن، هما مسيرتا الجنرال «ماك أرثر» والأميرال «نيميتز» المتوازيتان باتّجاه «طوكيو». ففيما يسير الأوّل عبر الهادىء الغربيّ، يمضي الثاني عبر الهادىء الأوسط . وقرّ رأي المخطّطين الأميركيّين أخيراً، وقد أدركوا ضخامة القوّة الموضوعة تحت تصرّفهم، على اعتماد طريقين منفصلتين في آن معاً : ففيما يعمد «ماك أرثر» إلى طريق الأدغال، أي «غينيا الجديدة» و «المولوك» و «الفيليبين»، يلجأ «نيميتز» إلى طريق جزر المرجان، أي «المارشال» و «الماريان» و «الكارولين» و «البونين» .

أمّا التريلث الثالث فهو الجنرال «ستيلويل»، الذي ما فتىء يتخبّط في «تشونغ ـ كينغ» بين الدسائس الصينيّة ونظريّات «واشنطن». أمّا العمليّات، التي أخّرتها معارضة «تشرتشل»، فقد بدأت في «برمانيا» وهدفها الإفراج عن «تشانغ كاي تشك»، وإضرام نار الحرب من جديد في «الصين». والتمهيد لغزو «اليابان».

أصبح تعطيل «رابول» أمراً واقعاً؛ فهناك سحبٌ من قاذفات القنابل تنطلق بانتظام لتسحق ذاك المرفأ الصغير الذي غدا، برهةً من الزمن، محور الحرب الدائرة في المحيط الهادىء؛ وتأتي البوارج الأميركيّة، بين الحين والحين لتتدرّب على قصف «رابول». تحت هذه الضربات كلّها لم تبقَ القاعدة الجويّة البحريّة صالحة للاستعمال قطعاً؛ وعلى كلّ حال، لم يكن لها معنى إلاّ كمنطلق هجوميّ على «زيلندا الجديدة» و«أوستراليا»؛ والحال أنّ اليابانيّين قد تخلّوا منذ زمن بعيد عن أيّة فكرة توسّعيّة جديدة، وكلّ ما باتوا يفكّرون به الآن هو الدفاع عن محيط حيويّ معلوم.

ومع ذلك لم يخلوا عن «رابول». فقد حفروا تحت الجبال ٥٠٠ كلم من الأنفاق والسراديب، ولم تلحق بخامیتها عمليّاتُ القصف التي عطّلت القاعدة سوى خسائر طفيفة. أمّا القيادة الأميركيّة التي تتوخّى حقن الدماء فقد تخلّت عن فتح لا ترى فيه إلاّ إرضاء لطيبة ونفوذ. وهكذا انتظر يابانيّو «بريطانيا الجديدة» و«ايرلندا الجديدة» الـ ١٠٠،٠٠٠ المحاصرون الجياع نهاية الحرب وأمر الأمبراطور ليستسلموا!

إطمأنّ «ماك أرثر» من ناحية «رابول». وغدا بوسعه أن يباشر مسيرته باتّجاه الغرب. ولقد تمكّن، بالرغم من إزعاج «واشنطن» بدويّ شكاواه، وبالرغم من مواصلة تغذيته للرأي العامّ المنتحب المستنكر من تضحية «الهادىء» على حساب «أوروبا»، من حشد قوّات ضخمة مهيبة في منطقة جنوب شرقيّ المحيط الهادىء؛ فارتفع عدد الرجال الخاضعين لإمرته إلى ٧٥٠،٠٠٠ بين طيّارين وبحّارة وجنود؛ فالأوّلون يشكّلون سلاح الجوّ الخامس بقيادة الجنرال «جورج ك. كيني»؛ ويؤلّف البحّارة الأسطولَ السابع الذي يقوده الأميرال «توماس ك. كنكايد»؛ ويؤلّف الجنود ٨ فرق أميركيّة، و٧ فرق أوستراليّة، يقودها اسمياً الجنرال الأوسترالي سير «توماس بلامي»؛ بيد أنّ شخصيّة «ماك أرثر» المسيطرة المهيبة كانت تركّز وتنسّق وتحيي كلّ شيء.

لم تكن الحرب حتى ذلك الحين قد لامست إلاّ قليلاً ذاك العالم الضخم الشرس الذي تشكّله «غينيا الجديدة». فالساحل الجنوبيّ وحده كان مسرح العمليّات. فقد نثر اليابانيّون قواعد جويّة وبحريّة صغيرة على طول الخلجان النادرة. وعلى الجزر النادرة، وعلى السهول الساحليّة النادرة. أمّا فكرة «ماك أرثر» في المناورة فتقوم على تخطّي بعضها، واحتلال بعضها الآخر قصد التقدّم. انطلاقاً من مركز استناد إلى مركز آخر. على غرار متسلّق الجبال الذي يتسلّق القنّة الصخرية الشاهقة منتقلاً من نتوء إلى نتوء. ولدى وصوله إلى «فوجيلكوب»، شبه الجزيرة التي تشبه بشكلها رأس عصفور، وتنتهي بها «غينيا الجديدة» ناحية الغرب، لن تكون «مندناو»، وهي أقرب جزر «الفيليبين»، إلاّ على بعد ٥٠٠ ميل بحريّ. تنتشر خلالها جزر أرخبيل «المولوك» انتثار الحجارة في مجاز النهر.

في ٢٠ نيسان ١٩٤٤ أبحرت من «فنشهافن» قوّة برمائيّة جبّارة، وغادرت وسط المحيط الهادى حاملاتُ الطائرات التابعة للأسطول الخامس التي أعارها «نيميتز» لتساعدها وتحميها. ولقد استُخدمت الحيل الكلاسيكيّة كلّها لإخفاء وجهة سيرها. ولم يكن اليابانيّون في أيّة حال ليتوقّعوا هجوماً على غير القواعد الثلاث التي بقيت في حوزتهم في القسم الشرقيّ من «غينيا الجديدة»، وهي «مادنغ» و«هانسا باي» و«ويواك». وكان الجيش الثامن عشر الصغير، بقيادة الجنرال «هاتزو أداشي»، يسهر متيقّظاً على تلك القواعد، بانتظار وصول بعض النجدات ليسدّ بها الثغر التي فتحتها في صفوفه هزائم «بابوازيا». أمّا بسالة «ماك أرثر» فقامت على القفز فوق هذا الحشد المعادي للبروز غرباً في قطاعات أقلّ تحصيناً.

لم تكن «هولنديا»، الواقعة على ٦٠٠ ميل غربيّ «هنساباي»، لتتوقّع شيئاً. وقد كانت هذه المحلّة البالغة الصغر: الواقعة على خليج «هومبولت» أفضل خلجان الساحل، سوقاً لطيور الجنّة. ولقد هُجرت تقريباً منذ أفول تلك التجارة الشعريّة. ولم يلقَ فيها اليابانيّون غير جماعة من المرسلين بينهم بضعة ألمان أرادوا التوسّل بالمحالفة فعوملوا بوحشيّة لم يُعامل بها المرسلون الهولنديّون أو الانكليز! كانت مطارات ثلاثة قيد البناء في الداخل، بين خليج «هومبولت» وخليج «تانا ميره»، وراء الشاشة السامقة الكثّة التي ترسمها سلسلة «السيكلوب» الساحليّة؛ وأمام بحيرة «سنتاري» الموحلة المتعرّجة. سارت الأعمال مدّة طويلة ببطء واسترخاء. إلاّ أنّ الانتصارات الأميركيّة قد بعثت فيها النشاط، ووصل الأميرال «يوشيكازو إندو» قبل ذلك بأيّام كي يستحثّ نخوة العمّال.

أتت المفاجأة تامّة. ففي «هولنديا» وجد الأميركيّون أرزّ الفطور الياباني ساخناً! وبعدما حجّرت المذلّةُ الأميرالَ «إندو» أوّل الأمر، ارتدى بزّته الرسميّة وذهب نحو جبال «سيكلوب» حيث فُقد أثره إلى الأبد. وفي خليج «هومبولت»، حيث نزلت الفرقة الـ ٤١، لم يبدُ أيّ أثر للمقاومة. ولم تلق الفرقة ٢٤، التي نزلت في خليج «تانا ميره»، غير مقاومة الطبيعة. ظنّ النازلون أنّ بوسعهم استخدام شاطئين تفصل بينهما ثلاثة كيلومترات، فإذا الأوّل، وهو الشاطىء رقم ١، يتّصل بمستنقع لم يُحسب له أيّ حساب، وإذا بالرجال الذين يلجونه يغرقون كالحجارة في بحر من الخضرة بدا ثابتاً كالمرج. ومع هذا غامرت سريّة تابعة للواء المشاة ٢١ بالنزول باحثة عن طريق يصلها بالشاطىء رقم ٢، فاقتضى اجتيازها للكيلومترات الثلاثة، أربعاً وعشرين ساعة. وأخيراً قرّر الأميركيّون العودة إلى سفن الإنزال للنزول في مكان آخر.

وفي اليوم التالي خدم الحظّ اليابانيّين خدمة مدهشة لا تصدّق؛ فقد تمكّنت قاذفة القنابل الوحيدة التي بدت في سماء «هولنديا» من إصابة مستودع للذخائر فأضرمت فيه ناراً هائلة، وانتزعت من الأميركيّين كميّات ظنّوا أنّهم قد استولوا عليها، ودمّرت جزءاً كبيراً من الذخائر التي حملوها. وبالرغم من هذا الحريق نجحت الحملة نجاحاً كاملاً. فقد التقت الفرقتان ٢٤ و ٤٠ في المطارات ولم تفقدا إلاّ ٢٤ قتيلاً، فيما أُبيد أكثر من ٣،٠٠٠ ياباني طوردوا في الدغل. وما لبثت الأعمال، التي بوشرت في الحال، أن جعلت من «هولنديا» إحدى القواعد الكبرى في جنوب المحيط الهادىء.

وفي شرقيّ «هولنديا» نزلت كذلك الفرقة الـ ٤١ في مركز إرساليّة «إيتاب» الصغيره. كانت هذه الحركة ترمي إلى تركيز حامية جانبيّة في وجه الجيش الياباني الثامن عشر الذي كان ينبغي ترقّب عودته العدائيّة. وما لبث فيلق بكامله، يقوده الجنرال «شارلز ب. هال»، أن التحق شيئاً فشيئاً بفوج المشاة ١٦٣ على مجرى «الدرينيومور» الذي يسيل بمياهه الطامية في دغل خانق. فقد أراد «ماك أرثر» أن يحمي مؤخّراته وهو يتابع تقدّمه نحو الغرب.

هكذا وُضعت الخطّةُ، وراحت تطبيقاتها تتتالى؛ ففي ١٨ أيّار استولى الأميركيّون على جزيرة «واكدي» الساحليّة، ثمّ عادوا إلى الساحل للاستيلاء على مركز «سارني» الإداري الصغير، بعدما خاضوا غمار معركة قاسية في فجاج «لون تري هيل». وحملتهم خطوتهم التالية، في ٢٧ أيّار، إلى جزيرة «بياسك» الواقعة وسط الخليج العميق الفاصل بين

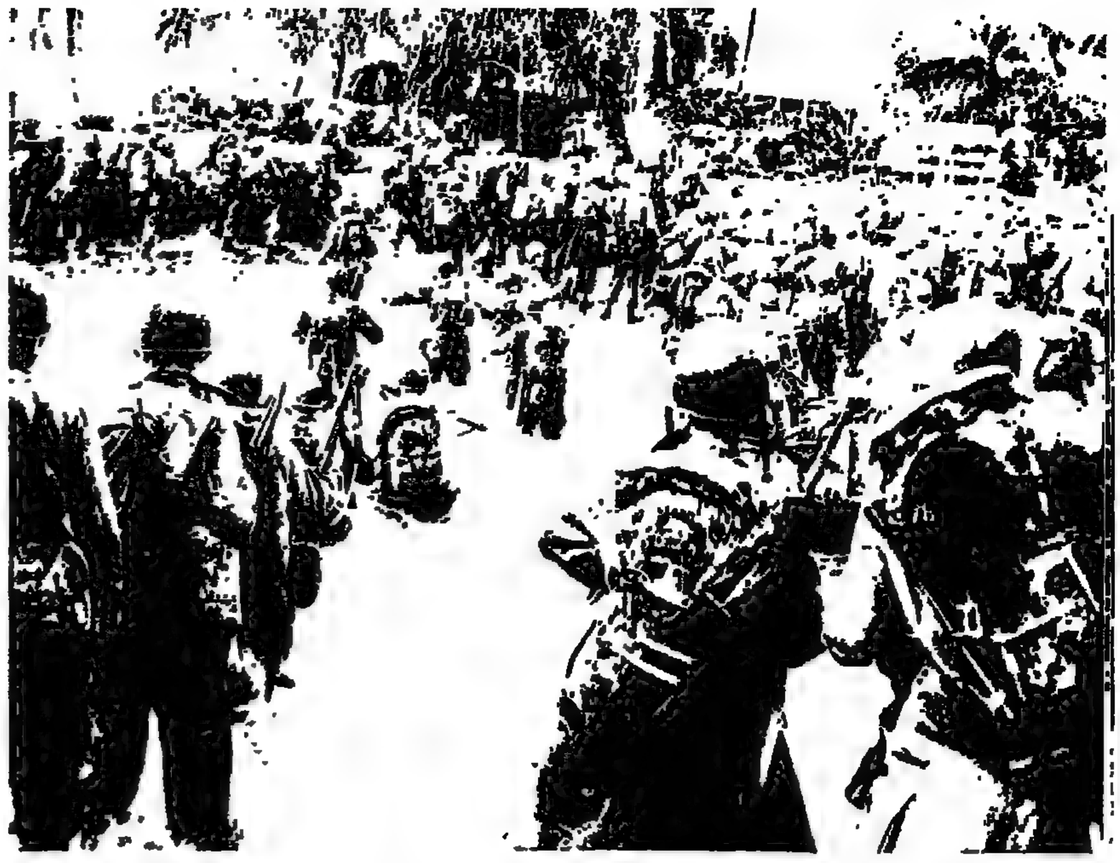

الفرقة ٢٤ تنزل في خليج «تاناميره» .

كتلة «غينيا الجديدة» وشبه جزيرة «فوجيلكوب». فأمست «الفيليبين» على متناول قاذفات القنابل .

إلاّ أنّ أيّام الحرب لا تتشابه؛ «فبياسك» جزيرة ذات أرض صعبة كأداء. تكسوها نباتات ليس لرداءتها مثيل، وتتوارى فيها كُهوفٌ هائلة الاتّساع . فتبيّن أنّ قوّات الهجوم، التي تشمل فوجين تابعين للفرقة ٤١. ضعيفة. فيما قوّات الدفاع، الخاضعة لسلطة قائد نشيط هو الكولونيل «كوزومي»، كانت تضمّ فوج المشاة ٢٢٢، وهو أحد أفضل أفواج الجيش الامبراطوريّ. عرقلت التيّارات وصخور المرجان عمليّة النزول إلى البرّ، فشابَه بعضُ الفوضى. أمّا الأهداف فمطارات ثلاثة قد بُنيت جنباً إلى جنب في سهل صغير، وهي «موكمر» و«بوروكو» و«سوريدو» . ولكنّ الفجاج التي امتدّت دونها قد أوقفت المهاجمين وأرغمتهم على تنظيم مناورة ساقتهم إلى المرتفعات، وأرغمتهم بالتالي على استقدام أجناد جديدة، وحتّى على استقدام جنرال جديد سبق له أن تميّز في «بونا» و«هولنديا» هو «إيشلبرجر»؛ فلم يسقط مطار «موكمر» إلاّ في ٨ حزيران. ولم يكن صالحاً للاستعمال نظراً لانبساطه تحت مواقع اليابانيّين .

لم يردّ اليابانيّون على هجومَي «هولنديا» و«واكدي». ولكنّ ما أبدته فصيلة «كوزومي» من بسالة في المقاومة أهاب بهيئة الأركان الامبراطوريّة العامّة أن تجعل من «بياسك» نقطة توقّف. فوُجّهت شطر «غينيا

جرحى أوستراليّون وأميركيّون يحيط بهم السكّان قرب رأس «أنديياديرز».

الجديدة» أمداد جويّة بحريّة ضخمة. فأبحر اللواء الرابع البرّمائيّ من «الفيليبين» على متن سفن حربيّة، إلاّ أنّ قيادة العمليّة أتت تبيّن أفول البسالة اليابانيّة: فقد ارتدّت حملة أولى تتألّف من بارجة و٤ طرّادات و٦ مدمّرات على أعقابها في ٣ حزيران، بناء لتقرير خاطئ وضعه كشّاف خُيّل إليه أنّه قد أبصر بعض حاملات الطائرات. وأعادت المدمّرات الكرّة وحدها في حزيران. وهي تقطر قوارب مسطّحة تقلّ الجنود. فأغرقت تشكيلة من طائرات «ب-٢٥» «الهاروسامي». ثمّ لاذ الأميرال «ساكونجو» بالفرار مخلّفاً قواربه المسطّحة أمام أسطول يقوده الأميرال الانكليزيّ «كروتشلي»؛ فتعقّبه الكومودور «جاريل» بسرعة ٣٥ عقدة على رأس ٨ مدمّرات أميركيّة ؛ فأصاب «الشيراتسويو». إلاّ أنّ الليل . وأمراً بالعودة صادراً عن «كروتشلي» . قد تضافرا لإنقاذ الفرقة المعادية .

لم تكن «بياسك» في الواقع غير نسخة موجزة واهية عن «غوادالكانال»؛ فقد تمكّن بعض مقتحمي الحصار من إدخال ١٠٢٠٠ رجل تقريباً. وهي قوّة أضعف من أن تبدّل مصير المعركة . سقط المطاران الأخيران في ١٨ و٢٤ حزيران، وتلت ذلك حربُ كهوف دامت حتّى ٢٠ آب. فأسر الأميركيّون ٢٢٠ رجلاً من ١٠،٠٠٠ ياباني؛ أمّا الباقون فقد سقطوا صرعى الرصاص، أو انتحروا، أو ماتوا جوعاً .

ودارت شرقيّ «هولنديا» رحى معركة أخيرة؛ فقد تلقّى «أداشي» أمراً بإعادة جيشه الثامن عشر نحو «فوجيلكوب» بطريق الأدغال. لم يكن الأمر قابلاً للتنفيذ، فآثر أن يهاجم الخطوط الأميركيّة على «الدرينيومور». فتمكّن من عبور النهر في ١١ تمّوز؛ غير أنّ فرقه الثلاث لم تكن تضمّ غير ٢٠،٠٠٠ مقاتل، ففتكت بهم الحملة الأميركيّة المعاكسة فتكاً ذريعاً، فعاد «أداشي» إلى «ويواك» بحطام تنهشه الحمّى . وبعد «بياسك» استولى الأميركيّون على جزيرة «نويمفور»، وفي «فوجيلكوب» تركوا قاعدة «سورونغ» الرئيسة جانباً مكتفين بمدرّجيّ «مار» و«سنسبور» الجويّين. وختمت بذلك العمليّات الهجوميّة في «غينيا الجديدة». ولكنّ قنابل المدافع والطائرات أخذت في ١٥ أيلول تقصف جزيرة «موروتاي». فيما راحت قوارب الإنزال وسفنه تشقّ عباب اليمّ متّجهة إليها في خطوط باتت معهودة أليفة .

لم تكن «موروتاي» تعني بلوغ «الفيليبين» . ولكنّها «المولوك» على كلّ حال . وها هو «ماك أرثر» يقفل راجعاً .

"نيميتز في كواجالين" و في "سايبان"

بدأت المسيرة إلى «طوكيو» عبر طريق الجزر المرجانيّة في تشرين الثاني ١٩٤٣، وذلك على أثر احتلال جزر «جلبرت». وكانت المرحلة الثانية هي أرخبيل «مارشال» الذي كانت مجموعات جزره الصغيرة الـ ٣٢ مبعثرة فوق مساحة تبلغ ضعفَي مساحة «فرنسا». ما بين خطّي العرض الشماليّين ٥ و١٢ .

وهناك ندخل منطقة كانت «اليابان» تعتبرها، منذ مرحلة ما قبل الحرب، ملكاً شرعيّاً لها . بعدما منحتها جمعيّة الأمم انتداباً على «المارشال» و«الكارولين» و«الماريان» (باستثناء «غوام»). وكان اليابانيّون قد تجاهلوا فقرات الانتداب التي تحظّر استخدام الجزر عسكريّة؛ فبعد انسحابهم من جمعيّة الأمم، احتفظوا ببرودة بال الذي منحتهم إيّاه. وكانت «الماريان» أقرب الأرخبيلات الثلاثة إلى «اليابان». وأمّا «الكارولين»، التي كانت تمتدّ من الغرب إلى الشرق . فقد كان مركزها قاعدة «تراك» البحريّة الكبيرة التي

انطلق منها السهمُ الياباني نحو «أوستراليا». وعلى مسافة ١٠٠٠٠ ميل إلى الشرق. وفي وسط الهادىء. كانت «المارشال» قائمة في منتصف الطريق ما بين «القيليبين» و «هاواي».

قرّر الأميرال «نيميتز». على الرغم من معارضة قوّاده. أن يهاجم قلب الأرخبيل نفسه. ألا وهو «كواجالين». وهو أكبر مجموعة جزر مرجانيّة في العالم. إذ يتألّف من ١٠٠ جزيرة صغيرة تنبثق من أرض تحدّ الشاطىء عن كثب. ويبلغ محيطها ٢٠٠ ميل. وكانت هنالك نقطتان لهما أهميّة عسكريّة. هما: «كواجالين» الواقعة جنوبيّ البحيرة. وجزيرتان صغيرتان تصل الواحدة بالأخرى كتلةُ أرض صخريّة. وهما «روا» و «نامور» إلى الشمال الشرقيّ.

إنّ الدروس التي لُقّنت في جزر «جلبرت» قد طُبّقت بصورة تامّة. فحمم النار التي راحت تنصبّ على كل واحد من الأهداف الثلاثة كانت تبلغ ثلاثة أضعاف ما أُغدق في «تاراوا». وقد استُخدمت موجات الهجوم في فرقة المشاة البحريّين الرابعة. في «روا» و «نامور». وكذلك موجات هجوم فرقة المشاة السابعة في «كواجالين». بضعَ مئات من الجرّارات والدبّابات البرمائيّة فانقضّت على المدافعين الذين أصابهم القصف بالذهول. وأُطلق الهجوم في الساعة التاسعة من نهار ٣١ كانون الثاني. فكان اليابانيّون يموتون بسرعة. وفي غضون ٧٢ ساعة انتقل المدافعون الـ ٨٠٦٧٥ من الحياة إلى الموت. باستثناء ٢٦٥ أسيراً ثلثاهم من العمّال الكوريّين. ومن مجموع الـ ٤١٠٤٤٦ من الجنود ومن مشاة البحريّة الذين اشتركوا في الهجوم كانت خسارة الأميركيّين ٢٧٢ قتيلاً ومفقوداً.

بالنسبة لليابانيّين كان هذا النصر الأميركيّ. الكامل والفائق السرعة. مروّعاً. وقد بقيت قوّاتهم البحريّة والجويّة في «الكارولين» بلا حراك. وفي جزر «مارشال» نفسها سلمت ستّ من قواعدهم الثماني من الهجوم. ولكنّ شلّ حركتها كان فعّالاً لدرجة أنّه تعذّر عليها التدخّل. ولسوف يكتفي الأميركيّون فيما بعد بالاستيلاء على «إينيويتوك». مهملين القواعد الأخرى حيث راحت الحاميات اليابانيّة تحتضر ببطء حسب القاعدة المرعيّة.

وقد برهن انتصار جزر «مارشال» للأميركيّين أنّ ستراتيجيّة جزر المرجان كانت مصيبة. فقد كانت تتطلّب جهوداً عنيفة. ولكنّ متباعدة ووجيزة. وكانت تمكّن من استغلال سيادة البحر وسيادة الجوّ بصورة شاملة. وهي كذلك تدفع بالغزاة نحو «اليابان» بوثبات عريضة. وتسمح بأن تستخدَم في قصفها القاذفات الضخمة «ب ـ ٢٩» التي كانت قد خاضت ميدان الخدمة بعد تغلّبها على بعض الصعوبات. ولكنّ خاصة الرجال الكبار هي تعلّم ساذج عن كلّ ما يعارض مجرى أهميّتهم المطلقة. ففي الوقت الذي استولى فيه «نيميتز» على جزر «مارشال» لم يكن «ماك أرثر» قد تحرّك بعدُ نحو «هولانديا». وهو إلى ذلك قد أكّد أنّ التحرّك كان «اندفاعاً ضعيفاً». وراح يطالب مرّة أخرى بأن توضع قوّات الهادىء بكاملها تحت إمرته. حين لم تبقَ هناك أيّة طريق ستراتيجيّة أخرى نحو «اليابان» غير طريقه هو. ألا وهي «الفيليبين». وطالب أخيراً بالتخلّي عن العمليّات المخطّطة لإنجاز غزو جزر «جلبرت» و «مارشال». وتخلّلت شهر شباط مناقشاتٌ حادّة. ومهمّة عاصفة قام بها إلى «واشنطن» «ريتشارد ك. ساذ رلاند» رئيس أركان «ماك أرثر» العامّة. إلاّ أنّ إقناع الأميرال «كينغ» وحميّته سوف ينفّذان ستراتيجيّة الهادىء الأوسط.

في الوقت الذي كانت فيه عمليّة غزو «أوروبا» قيد الإنجاز. بوشر تحقيق عمليّة برمائيّة ضخمة أخرى في الطرف الآخر من «نورماندیا».

العمليّات في المحيط الهادىء (شباط ـ آب ١٩٤٤)

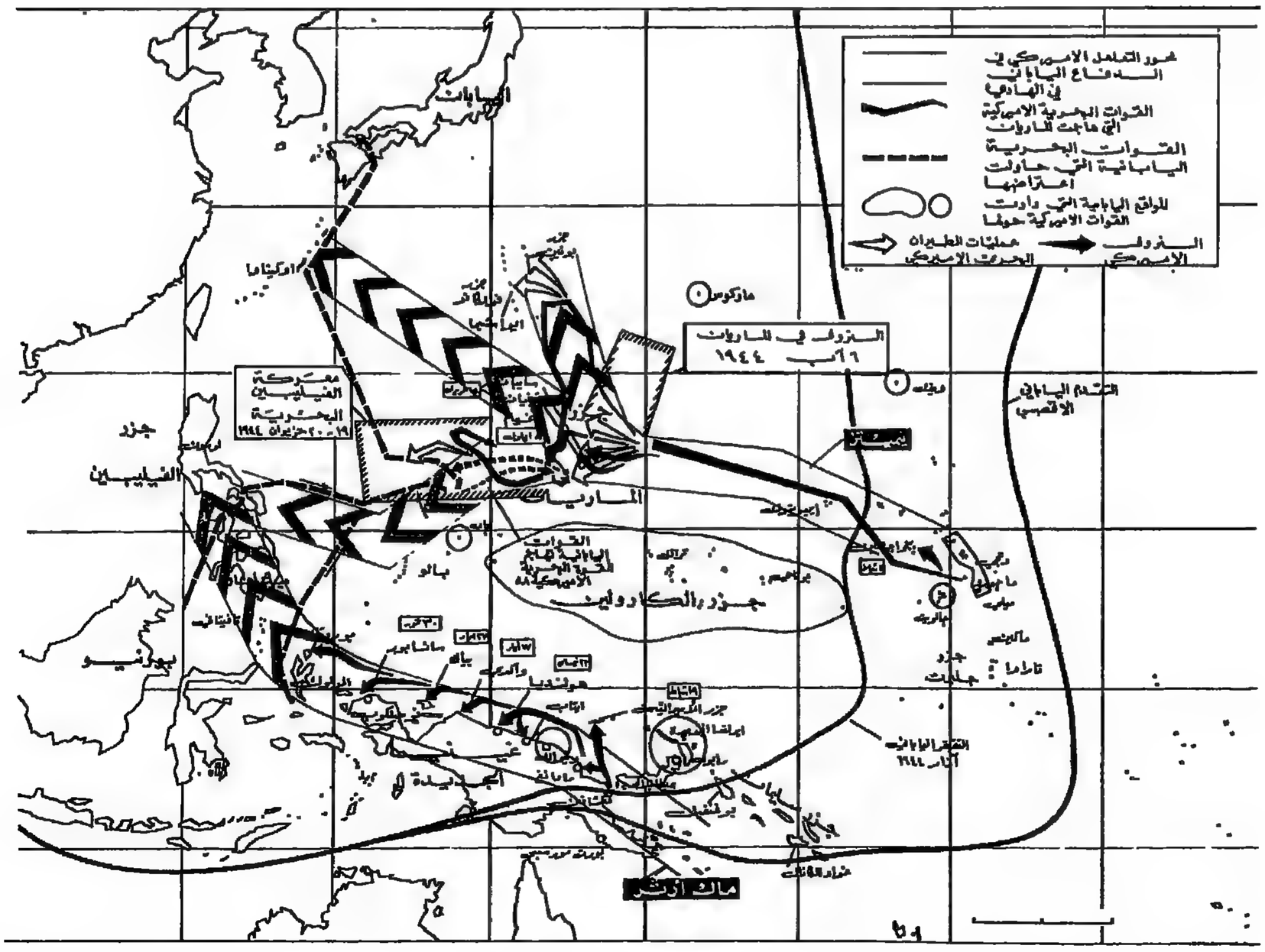

ففي ٦ حزيران وفيما كانت أقدام جنود «أيزنهاور» تطأ شواطىء «كالفادوس» و«كوتنتان». كانت القوّة البحريّة ٥٨، التابعة للأميرال «ماك ميتشر»، تُقلع من قاعدة «ماجورو» الموقّتة في أرخبيل «مارشال». كانت تضمّ ٨٧ سفينة قتال، منها ١٣ حاملة للطائرات و٧ بوارج سريعة. مؤلّفة اسطولاً من أروع الأساطيل التي شقّت عباب الأمواج. وكانت مهمّتها أن تؤمّن السلامة العامّة لقوّات الغزو التي كانت تسبح باتّجاه جزيرة «سايبان»، التي اختيرت لتكون نواة النزول الأوّل. ومن «كواجالين». وفي جزر الأميراليّة، راحت القاذفات البريّة، التابعة لأسطولي الجوّ ٥ و١١، تساند الفرقة لسحق القواعد اليابانيّة الواقعة على مجال يمكّن من التدخّل. وهي «بيليليو» و«ياب» و«بولاوات»، وخصوصاً «تراك». كانت تلك المهمّات بالغة الخطورة، بما فيها من طيران طويل الأمد خلال طريق العودة، فوق مساحات بحريّة موحشة، وفي طائرات مصابة في الغالب بأضرار المدفعيّة المضادّة للطائرات. ولكنّها كانت مستمرّة منذ شهور بدقّة تشبه دقّة الساعة.

في ظلال هذه القوّة المتمثّلة بالقوّة البحريّة ٥٨ وبالقاذفات، تحرّكت قافلتان هائلتان باتّجاه «الماريان». كانت القافلة الأولى، وهي القوّة البحريّة ٥١، تحمل من «هاواي» فرقتي المشاة البحريّين ٢ و٤، وفرقة الجيش السابعة. وكانت الثانية، وهي القوّة البحريّة ٥٢، تنقل من «غوادالكانال» فرقة المشاة البحريّين ٣. فكان هنالك ٧٧ ناقلة، و٣٤ سفينة شحن، و٤٤ سفينة إنزال، محمّلة بالجند والعتاد، وكان لها من المواكبة والموازرة أسطول ضخم آخر: ١٤ حاملة طائرات موازرة، ٧ بوارج قديمة، ١٢ طرّاداً خفيفاً وثقيلاً، ١٢٢ مدمّرة، الخ. لم تكن السفن الـ ٦٦٤ بمجموعها، وبما فيها القوّة البحريّة ٥٨، وعدد الجنود الذي بلغ ١٢٧،٥٤١، على مستوى العمليّة النورمانديّة، ولكنّ الرحلات البحريّة كانت أطول بعشرين أو ثلاثين مرّة: ٣،٥٠٠ ميل من «هاواي»، و٢،٤٠٠ ميل من «غوادالكانال». كان المجهود العامّ مماثلاً، ولكنّ الفارق الوحيد الذي يميّزه من النزول النورمانديّ هو أنّه كان أميركيّاً بكامله. إنّه تعبير عن قوّة لا يمكن وصفها، خصوصاً وأنّ هذه القوّة لم تكن موجودة منذ أربع سنوات، وأنّها قد وُلدت من غير أن تغيّر تقريباً وجه الحياة اليوميّة بالنسبة للشعب الذي أفرزها.

لم تبقَ «الماريان» جزراً مرجانيّة كما كانت. إنّها ذرى سلسلة طويلة من البراكين ابتلعت أقدامها وهادُ الهادىء السحيقة. وهي تكوّن من الشمال إلى الجنوب قوساً ذات انعطاف ضئيل، تمتدّ على ٥٠٠ ميل من «فارالّون دي باجاروس» حتى «غوام». وأمّا سفوحها المخضوضرة فترتفع على علّو مئات الأمتار. كان طقسها ما يزال استوائيّاً، ولكنْ لا وجود فيها للاختناق وللأبخرة الوبيئة التي نجدها في أدغال جزر «سليمان» و«غينيا الجديدة». وقصّة «الماريان» طريفة. كان «ماجيلان» قد أطلق عليها إسم «جزر اللصوص» إشارة لخفّة أيدي الوطنيّين «الشامورّوس» الذين قدموا لزيارة سفنه. ولكنّها لم تلبث أن حملت اسماً أكثر تشريفاً، وهو اسم «الماريانّاس»، تيمّناً بـ «ماريا آنّا» النمساويّة زوج «فيليب الثاني». وقد أهمل الإسبان شأن هذه الجزر، ولكنّ الألمان ابتاعوها، وحصل اليابانيّون عليها، باستثناء «غوام» التي اكتفت «أميركا» بالاحتفاظ بها بعد انتصارها على «اسبانيا» سنة ١٨٩٩، وغايتها منها أن يكون لها فيها مستودع للفحم بين «الفيليبين» و«هاواي». ولكنّ اليابانيّين انتزعوها منها بعد «بيرل هاربور» بأيّام.

وفضلاً عن «غوام»، وفي جوارها المباشر، كانت جزر «الماريان» الكبرى هي «روتا» و«تينيان» و«سايبان». وكانت هذه الأخيرة، وهي العاصمة العسكريّة للأرخبيل، مقرّ الجيش الياباني ٣١، بقيادة الجنرال «هيديوشي أوباتي». والفرقة المدعّمة ٤٣ بقيادة الجنرال «يوشيتنز وغو ساييتو». وكانت عدّة الحامية، بما فيها التشكيلات البحريّة، تبلغ ٣١،٦٤٩ رجلاً. وكانت تحتلّ الجزر الأخرى عدّة دون هذه العدّة: ١٨،٥٠٠ رجل في «غوام»، ٨،٠٠٠ رجل في «تينيان»، وبضع مئات من الرجال في «روتا». وكان المجموع موضوعاً اسمياً تحت إمرة اسم شهير، اسم منتصر «بيرل هاربور»، «شويشوي ناغومو»، الذي أودت به كارثة «ميدوي» من أرفع مراتب الأسطول ظفراً إلى قيادة محليّة قاتمة. كان موجوداً شخصياً في «سايبان»، إلاّ أنّه لم يكن يلعب فيها غير دور وهميّ.

كان التنظيم الياباني متيناً، ولكنّ المخطّط الذي يقضي بموازرته بواسطة قوّات مقتطعة من «منشوريا» قد ذهب ضحيّة للغوّاصات الأميركيّة. وقد فقدت أكثريّة القوافل بعضاً من سفنها؛ وكانت نسبة الرجال الذين أُنقذوا هامّة نسبياً. ولكنّ معظم العتاد قد ذهب إلى قاع البحر. وإليك هذا المثال: نُسفت «السايبتومارو» بالطوربيدات في ٢٩ شباط، ومن مجموع الجنود الـ ٣،٠٨٠ المنتمين لفوج المشاة ١٨، تمكّن المنقذون من إنقاذ ١،٦٨٨، ولكنّهم وصلوا إلى «غوام» ومعهم ٧ بنادق فحسب، وقاذفة قنابل يدويّة، و١٥٠ حربة! وينتج عن ذلك أنّ وحدات كثيرة باتت من غير سلاح، وأنّ الوحدات جميعاً كانت مفتقرة للذخيرة.

بدأ غزو «الماريان» تماماً في الوقت الذي تحدّد مسبقاً لشهور عديدة خلت. أي في ١٥ حزيران. وكانت القوّات تحت إمرة الجنرال «هولاند سميث»، من فيلق المشاة البحريّين. وقد كان لمشهد تحرّك تشكيلات الانقضاض وقع لا يزول من المخيّلات؛ كان الصباح بهيّاً، والبحر هادئاً، والنسيم عليلاً؛ وكانت منطقة النزول تمتدّ من كلتا ناحيتي رأس «أفتينا». وكانت الفرقة الثانية إلى اليسار، على الشاطئين «الأحمر» و«الأخضر»، والفرقة الرابعة إلى اليمين، على الشاطئين «الأزرق» و«الأصفر». وكانت تنتصب في صدر المنطقة، في الطرف الداخلي، سلسلةٌ من الجبال تبلغ ذروتها ١،٥٥٤ قدماً. وفي المواضع الأماميّة كان البحر الأخضر يتحطّم على صخور المرجان، ثمّ ترقد مياهه داخل بحيرة مساحتها بضع مئات من الأمتار، وتهمد أنفاسه بعد ذلك على طول شاطىء ضيّق لاهب تحت القصف. وإلى جنوبيّ الرأس، وفي قطاع فرقة المشاة البحريّين الرابعة، كانت المنازل اليابانيّة في مدينة «شاران كانوا» الصغيرة قد ذهبت فريسة النار، وهي مصنوعة من الخشب والورق، إلاّ أنّ مدخنة مصنع للسكّر بقيت منتصبة سوداء فاحمة. وفي الساعة ٨،٥٠ تقدّمت ٣٤ سفينة إنزال إلى مسافة نصف ميل من الشاطىء، ثم انفتحت أجوافها وقذفت ٧١٩ جرّاراً ودبّابة برمائيّة راحت تنتظم بشكل موجات انقضاض. وكان المهاجمون مزمعين على ألاّ يتوقّفوا على الشاطىء ولو برهة واحدة، بل على الانقضاض بالنزول المصفّح وثبة واحدة نحو خطّ القمم. ومن هناك كانت الأودية المحرّجة تنحدر حتى خليج «ماجيسيين»، وهو فوهة نصفيّة لبركان غائص. وكان المهاجمون يعتزمون بلوغه وشطر الجزيرة جزئين في غضون يومين.

إلاّ أنّ أمر الانطلاق المهيب قد تحطّم. فعلى الشاطىء راحت أمواج مرتدّة، يبلغ علوّها بين ١٢ و ١٥ قدماً، ترهق الجرّارات والدبّابات البرمائيّة وتفكّك أرتالها. وتحت وطيس النار الحامية، التي انطلقت من رأس «أفتينا»، انحرفت الفرقة الثانية نحو الشمال وتشابكت كتائبها على الشاطئين «الأحمر» و«الأخضر». واجتازت الفرقة الرابعة «شاران كانوا» بسرعة، ولكنّها صادفت صعوبات في الانبساط نحو الشمال ونحو الجنوب. وكانت تعوز المصفّحات البرمائيّة القوّةُ اللازمة للتملّص من الحواجز

المضادّة للدبّابات؛ وبعدما غدت مرمى سهلاً للنار تخلّى المشاة البحريّون عنها للتقدّم مشياً على الأقدام أو زحفاً. لقد آمنت القيادة الأميركيّة إيماناً أعمى بجعل النزول آلياً مئة بالمئة؛ وعند حلول الليل كان المهاجمون قد احتلّوا نصف المنطقة «د–١» فحسب. وأمّا الجنرال «يوشتروغو سابيتو»، الذي حلّ محلّ «أوباتي» المجمّد في «غوام». فقد أرسل إلى «طوكيو» مذكّرة طنّانة تقول: «إنّ الجيش ٣١ سيشنّ هذه الليلة هجوماً مضاداً بكامل قواه، وسيبيد العدوّ ...»

وهكذا كان. ففي الساعة الثانية صباحاً انطلق هجوم من الطراز القديم على أنغام النفير. وفي وسط قبّة رسمتها القنابل المنيرة شهد مشاة البحريّة في الفرقة الثانية أشباحاً وكأنّها منبثقة من القرون الوسطى. كانت تشيح السيوف وتلوّح بالأعلام. وتلفّتهم نيران مروّعة حصدتهم حصداً. وبعثرت على السفوح ٨٠٠ جثّة. وبزغ الفجر والأميركيّون ما يزالون في جحورهم الفرديّة. فيما عادت الطائرات والسفن تسحق اليابانيّين والأمداد تنزل إلى الشاطىء دفقاً غزيراً. إنّ المدافعين ههنا؛ كما كانت الحال في «نورماندیا»؛ لم يعرفوا كيف يفيدون من سانحة الضعف في المهاجمين. ولقد تمّ من جرّاء ذلك إرساء رأس الجسر.

لقد وجدت "اليابان" "ميدويّ" أخرى

ولكنّ حدثاً جديداً جاء يلقي الاضطراب في نفوس البحّارة. ففي الساعة ١٨،٣٥ من الليلة الفائتة أبصرت الغوّاصة «فلاينغ فيش» أسطولاً للعدوّ. يضمّ حاملات للطائرات عديدة. ينبثق من مضيق «سان برناردينو». بين جزر «لوسون» و«سامار» في اتّجاه الشرق. ولم يمض نصف ساعة حتّى كانت غوّاصة أخرى هي «سيهورس»، تعلن عن وجود تشكيلة من البوارج في عرض «ميندناو». في اتّجاه إلى الشمال بشمال شرقيّ. وكانت الوجهتان تسيران نحو هدف واحد. إلى «الماريان». كان الأسطول الياباني قادماً لانتزاع سيادة الهادىء من يد الأميركيّين. لم يبقَ مصير «سايبان» وسلامة «طوكيو» وقفاً على القتال الدائر على السفوح. ولكنّه كان سيتقرّر في ساحة قتال مائيّة منبسطة بين «الفيليبين» و«الماريان». بين «غينيا الجديدة» و«اليابان».

كانت البحريّة الامبراطوريّة تسمو بلا انقطاع. في احتجابها الموقّت. إلى تلك المقابلة الحاسمة. إلى ثأر «ميدوي». وبعد مقتل «ياماموتو». قام خلفه «مينيبيشي كوغا». ببناء ستراتيجيّته على هذا الانتظار. متجنّباً العمليّات المتفرّقة. موفّراً قواه لليوم الأوحد الذي سيمحو الهزائم جمعاء. وفي ٣١ آذار ١٩٤٤. اختفت طائرة جوماليّة بين «بالو» و«دافاو»، وقتل «كوغا». ولكنّ المذهب بقي هو ذاته في عهد خلفه الأميرال «سوموتويودا»: إعادة تنظيم الأسطول أوّلاً. ومن ثمّ خلق وضع ستراتيجيّ مناسب. وسحق العدوّ.

كانت «اليابان» فقيرة. وكانت طاقة مصانعها البحريّة والجويّة ضعيفة. وأمّا فتوحاتها الأسطوريّة في ١٩٤٢. فهي خدّاعة. كانت قد أتت ببعض الموادّ الأوّليّة كالقصدير والمطّاط والنفط، من غير أن تأتي بالترتيبات الصناعيّة الضروريّة للإفادة منها. وعلى هذا الأساس كان على اسطولها أن يستعمل للوقود النفطَ الخام. وهو صاف نسبيّاً. من «بورنيو». على الرغم من العقبات والأخطار الجمّة. وقامت «اليابان» بمجهود محموم. وبأعمال ارتجاليّة ضخمة. أدّت إلى خلق حاملات للطائرات جديدة وأساطيل جويّة جديدة صغيرة؛ إلاّ أنّ ثغراً مخيفة كانت كامنة في تلك القوقعة التي أعيد بناؤها. لم يكن قد طرأ على الرادار أيّ تحسين. وكانت وسائل الدفاع المضادّة للغوّاصات بدائيّة. ولم تكن الطائرات مصفّحة. ولا مزوّدة بالخزّانات ذات السدّاد الذي يمنع تسرّب الغاز. وأمّا الطيّارون فقد كانوا حاصلين على خبرة سطحيّة وعلى تدريب تافه. فالرجال المدهشون الذين هاجموا «بيرل هاربور» كانوا قد تحضّروا تقنيّاً ونفسانيّاً خلال سنوات عديدة، وها هم اليوم في زوايا الموت.

كانت الأركان العامّة البحريّة قد تاقت إلى الوضع الستراتيجيّ الملائم في جنوبيّ غربيّ الهادىء وعملت على تحضيره. وكان الحلم الياباني هو في أن يخوض الأسطول الأميركيّ الكبير مثلّث «ياب–ميندناو–غينيا الجديدة» على مقربة من «الفيليبين»، لحلّ مشكلة التموين، في نطاق القواعد البريّة التي تعوّض ضعف الطيران البحريّ. وأتت حملة «ماك أرثر» إلى «بياك» تحمل على الاعتقاد بأنّ هذا الحلم قد أوشك أن يتحقّق. وكانت مفرزة قويّة تضمّ البارجتين الجبّارتين «ياماتو» و«موساشي» قد بُعثت مسبّقاً كمقدّمة إلى «باتجان» في «المولوك». وكان معظم الأسطول، وخصوصاً فرق حاملات الطائرات الثلاث، ينتظر بالمرصاد بين «الفيليبين» و«بورنيو»... ولكنّ «أميركا»، بدلاً من أن تزجّ نفسها في شباك جنوبيّ غربيّ الهادىء، سدّدت ضربتها في قلب المحيط، إلى «الماريان»، و«طوكيو» منها على مدى نشاط القاذفات!

وهكذا فإنّ حزام الأمان الوطنيّ الياباني قد أوشك أن يُخرَق. وإذا بالخطر يحدق بالوطن الأمّ وبرأس الأمبراطور على السواء! لم يكن بميسور البحريّة الامبراطوريّة أن تسمح باحتلال «الماريان» فتقف كما وقفت حيال غزو جزر «المارشال» مكتوفة الأيدي. ومن خلال طريقين، غربي «ميندناو» وشرقيّها. تحرّك الأسطول السريع، بإمرة الفايس–أميرال «جيزابورو أوزاوا». صاعداً باتّجاه بحر «الفيليبين»، حيث كان المخطّط العدوّ يوجّه صدمته الحاسمة. كان أسطول «الشمس المشرقة» الأخير هذا مهيباً: ٤ حاملات طائرات ثقيلة، ٤ حاملات طائرات خفيفة، ٥ بوارج، ١١ طرّاداً ثقيلاً، طرّادان خفيفان، ٢٨ مدمّرة. وكان في جملة حاملات الطائرات حاملتان من المحاربات القديمات مغمورتان بالظفر وبالجراح وهما «زويكاكو» و«شوكاكو». والحاملة «تايهو» التي أُنجز بناؤها مؤخّراً. فأتت أكبر حاملة في العالم كلّه. وقد بلغ عدد الطائرات المنقولة بحراً ٤٢٩ طائرة. أي ضعفي عدد الطائرات المغيرة على «بيرل هاربور». ولكنّ الخروج للملاقاة العدوّ لم يكن شبيهاً بالرحلة السحريّة في كانون الأوّل ١٩٤١. فقد تكبّدت القوّة خسائر ألبستها ثوب الحداد، ومن جملتها مدمّرة. وذلك بسبب بعض الحوادث والاصطدامات. وأمّا مصير الهجوم الذي شنّته الغوّاصات. على أنّه ملحق للعمليّة، فقد أخفق إخفاقاً ذريعاً. وأمّا الغوّاصات الـ ٢٥. التي كانت مكلّفة بتطهير بحر «الفيليبين». فإنّها لم تُغرق سفينة واحدة. وقد دُمّرت ١٧ غوّاصة منها. دمّرت ستّاً منها المدمّرة «إنغلاند» وحدها.

وأمام «سايبان» قام القائد الأعلى للأسطول الخامس الأميرال «ريمون سبرونس». بالاتّصال سريعاً بالفايس أميرال «تورنر» قائد القوّات البحريّة للمساندة المباشرة. قسمت هذه القوّات قسمين: فالبوارج القديمة. وجزء من الطرّادات والمدمّرات. قد واصلت مهمّتها. مستمرّة في توطيد رأس جسر «أفتينا» بقصف مدافعها. وأمّا الباقي فقد انضمّ إلى القوّة البحريّة ٥٨ للانقضاض على العدوّ العائم. وفي وجه الجيش البحريّ الياباني انتصبت ٧ حاملات طائرات كبيرة، و ٨ حاملات خفيفة. تقلّ ٩٥٦ طائرة متعدّدة الأجناس. تخدمها وتحميها ٧ بوارج سريعة. و٢١ طرّاداً. و٦٩ مدمّرة. ففي البحر وفي الجوّ على السواء كان التفوّق الأميركيّ بنسبة ١ ضدّ ٢.

كان ١٩ حزيران يوماً بلغت فيه الرؤية درجة غير محدودة، فوق بحر غمره النور وتطايرت على صفحاته الأسماك الطائرة. وكان الأميرال

«تويودا» ينعم بتفوّق تمي بفصل كشّافيه الذين قاموا بعمل جيّد: فقد كان عالماً بموقع العدوّ. وكان يتمتّع بتفوّق آخر هو أحد نتائج الضعف والتخلّف: فطائراته. التي لم تكن مصفّحة. كانت أكثر خفّة من الطائرات الأميركيّة. وأوسع مجالاً للعمل منها: ٤٠٠ ميل مقابل ٣٠٠ ميل. وهكذا كان العدوّ بمتناول يده. فيما كان هو نفسه بعيداً عن مرماه: إنّه لوقت مثاليّ لشنّ الهجوم.

وأخذت الطائرات تُقلع من على سطوح السفن: ففي الساعة ٨،٣٠ أقلعت ٦٤ طائرة من على سطح سفن المقدّمة. وفي الساعة ٨،٥٦ انطلقت ١٢٨ طائرة من فرقة «أوزاوا». وكان في عدادها طائرة المساعد الأوّل البحريّ «ساهيو كوماتسو» الذي أبصر أثناء ارتفاعه خطّ طوربيد كان منطلقاً نحو «التايهو». فانقضّ عليه منتحراً لإنقاذ السفينة الكبيرة. وأمّا الفرقة الثانية فقد أطلقت ٤٧ طائرة في الساعة ١٠. ثمّ صدر أمر في الساعة ١١ موجّه إلى الفرقتين ١ و٣ بأن تطلقا ١١٤ طائرة أخرى. فقد ألقى «أوزاوا» على العدوّ بأربعة أخماس قوّاته، محتفظاً بحفنة من المقاتلات لحماية سفنه.

لم يعثر الأميركيّون على موقع العدوّ. ولكنّ الرادار أنقذهم إذ كشف عن العدوّ القائم على بعد ١٦٥ ميلاً. فأقلعت المقاتلات للحال بسرعة عجيبة. ودارت اشتباكات كبرى غربيّ السفن بادىء ذي بدء. ومن ثمّ إلى الجنوب. مع الموجتين التاليتين. وتكبّد المهاجمون خسائر رهيبة. فكانوا يهطلون من السماء نفانفّ من دخان ومن لهب. أو أنّهم، راحوا يتحطّمون على جزيرة «غوام» بعدما أعيتهم الحيلة. ومن جملة الـ ٣٧٥ طائرة التي أطلقها «أوزاوا» تمكّنت نحو من أربعين طائرة أو أقلّ من مقاربة السفن، وتمكّنت طائرة واحدة لا غير من تسديد ضربتها فأصابت «الساوث داكوتا» وقتلت ٢٧ بحّاراً. ولكن من غير أن تحدث في البارجة أضراراً خطيرة. وأصيبت سفن أخرى بأضرار طفيفة بعدما أخطأتها القنابل عن كثب. لقد كان الثمن باهظاً إلى حدّ يفوق كلّ وصف: فنهار ١٩ حزيران قد كلّف اليابانيّين ٣١٥ طائرة، والأميركيّين ٢٩ طائرة.

كان الطوربيد الذي أوقفه المساعد الأوّل البحريّ منتحراً، على مقربة من حاملات الطائرات قد انطلق من الغوّاصة «ألباكور» وهي بإمرة الكومندان «ج. و. بلانشار». كان الطوربيد هذا واحداً من ستّة أطلقتها الغوّاصة على «التايهو» سفينة الأميرال «أوزاوا». فلم يصبها منها غيرُ واحد. وذلك في يسارها على مستوى المصعد الأماميّ. ولكنّ الصدمة كانت خفيفة. والأضرار طفيفة. ولم يشبّ في السفينة أيّ حريق واسع النطاق. وأبلغ الكومندانُ الأميرالَ بأنّ سفينته قد بقيت متمتّعة بكامل إمكاناتها العمليّة.

ولم تنقض ساعتان حتّى كان طوربيد آخر يصيب «الشوكاكو». وقد وجّهته الغوّاصةُ «كافالا» بإمرة الكومندان «هـ.ج. كوسلر». ويبدو أنّ الإصابة كانت خطرة: فلقد خفّضت السفينة سرعتها، وخرجت من التشكيلة. وراحت تكافح النار التي شبّت في داخلها. وأمّا الوقود الذي كان يتسرّب من الخزّانات غير المحكمة السّداد. والسيّئة الوضع. فقد قدّم للحريق غذاء رهيباً. وبعد الساعة ١٥ بقليل بلغت النار أحد أنبار الذخيرة. فدوّت للحال سلسلة من الانفجارات مزّقت «الشوكاكو» إرباً. وقد بقيت «الزويكاكو» هي الناجية الوحيدة من حاملات الطائرات الستّ التي شنّت الهجوم على «بيرل هاربور».

وفوق «التايهو» لم يدم تفاؤل اللحظة الأولى طويلاً. إذ تطوّر فيها وضع مخيف: فصدمة الطوربيد قد فتّقت الأنابيب المعدنيّة وقطّعت أوصال الخزّانات. وامتلأت السفينة بخليط متفجّر مؤلّف من بخار الوقود ومن الهواء. حاول من في السفينة عزله من غير جدوى؛ فحدث ما كان متوقّعاً: ففي الساعة ١٥،٣٢ دوّى انفجار عنيف نسف الجسر وراح يلتهم أعماق السفينة. وأقبلت المدمّرة «واكاتسوهي» لتنقذ صورة الإمبراطور وتنقل «أوزاوا» إلى الطرّاد «هاغونو». ولم يكد الأميرال ينجو من سفينته حتّى اجتاحت النار «التايهو» من كلّ صوب، فغرقت في الساعة ١٧،٠٦ محرقة البحر من حولها. وتمكّنت المدمّرات بعدئذ من أن تنقذ بصعوبة فائقة ٥٠٠ من مجموع ضبّاطها وبحّارتها الـ ٢،١٥٠.

إنّه لنهار كوارث يضاهي بفداحته «ميدوي»! لقد خسر «أوزاوا» اثنتين من سفنه الرئيسة. ولم يكن باقياً لديه غير نحو من مئة طائرة، في الوقت الذي كان فيه الأسطول الأميركيّ سليماً قبالته. ومع ذلك، بفضل حزمه الشديد، أو بفضل طاقته على التوهّم الخدّاع، لم يعتبر أنّه قد خسر المعركة. فقد أقنع نفسه، على ذمّة طيّاريه، بأنّ العدوّ قد تكبّد هو الآخر خسائر فادحة. وأبلغت قاذفات «الزويكاكو» أنّها قد أصابت قلب الهدف في إحدى حاملات الطائرات وأحد الطرّادات الكبرى. وأكّد طيّارو الفرقة الأولى أنّهم خلّفوا وراءهم أربع حاملات طائرات فريسةً للّهب. وقد دوّن تقرير آخر النهار «أنّه لا ريب في أنّ أربعاً أو خمساً من حاملات طائرات العدوّ. فضلاً عن بارجة وطرّاد كبير. قد أُغرقت، أو أنّها أرغمت على ترك القتال. وهذا لا ينفي كذلك احتمال كون سفن أخرى قد تفجّرت أو غرقت...» وكنتيجة لذلك كان «أوزاوا» مزمعاً على استئناف القتال في غضون يومين: في ٢١، بعد أن يملأ خزّاناته بالمازوت خلال نهار ٢٠.

ولكنّ القادة الأميركيّين، الذين حقّقوا انتصاراً لا ريب فيه، قد أظهروا التعقّل والتروّي. وقد أعلن الأميرال «سبرووانس» ما يلي: «سوف أهاجم غداً إذا ما تمكّنت من تحديد موقع العدوّ بدقّة مرضية». ولكنّ شيئاً لم يحدث بغية الحصول على هذه المعلومات البالغة الأهميّة. وقال «إيليوت موريسون»: «لم تُرسل طائرة استكشاف واحدة خلال ليل ١٩ إلى ٢٠ حزيران الحاسم...» وكان أحد الأسباب هو إنسانيّة «ميتشر». فهذا الأميرال المصغّر، الذي يبلغ طوله ١،٠٦٤ سنتم، ووزنه ١٣٥ ليبرة. والذي كان يحبّ طيّاريه الذين يشاطرونه هذا الشعور، «كان يمقت فكرة إرسال كشّاف منفرد قد يُرغم على الهبوط في متاهات المحيط. بعيداً عن كلّ أمل في النجاة...» وبزغ صباح ٢٠ حزيران، وهو يهيّ بهاء الصباح المنصرم، يشهد أسطولاً أميركيّاً يسير بخطّ مواز لسير العدوّ. ولكن دونما علم له بذلك. وانطلقت دوريّات الفجر كالمعتاد وعادت من غير أن تعثر على أيّ أثر. وأقلعت دوريّات ما بعد الظهر بدورها. وكانت طائرات عديدة من طائراتها قد عادت أدراجها حين التُقطت في الساعة ١٥،١٥ رسالة مشوّشة تشير إلى العثور على العدوّ. ولم تنقض دقائق حتّى كان ملازم البحريّة «نلسون» يؤكّد أنّه شاهد سفن «أوزاوا» بأمّ عينه. وعمد إلى تصحيح التقدير الخاطىء الذي أعطاه عن موقع هذه السفن. كان أسطول العدوّ على بعد ٢٥٠ ميلاً. على حدود مدى العمل تقريباً. ولم يكن قد تبقّى من النهار غير أربع ساعات. فهل يتوجّب الهجوم يا ترى؟ أم أنّه كان يجب التريّث حتّى نهار غد؟

واتّخذ «ميتشر» قراره: يجب شنّ الهجوم. وبمدّة عشر دقائق. وهو رقم قياسيّ: كانت ٢١٦ قاذفة ونسّافة ومطاردة تحلّق في الفضاء. وفي آخر لحظة أوقف «ميتشر» موجة ثانية مماثلة: فالمفروض أن تعود الطائرات ليلاً. وكان عدد هذه الطائرات أكثر من اللزوم.

بدأت العمليّة في الساعة ١٨،٢٠، وكانت حوادثها تجري في غمرة شمس حمراء تغوص رويداً في اليمّ. وقبلت ثلاثون مطاردة يابانيّة تقريباً أن تواجه القتال المتفاوت ببسالة. فتمكّنت من تخفيف حدّة الهجوم من غير أن تتمكّن من تحطيمه. واشتعلت حاملة الطائرات «هيبو» وغرقت بعد ما

آصابتها الطوربيدات. وأصيبت «الزويكاكو» و «الشيودا» بأضرار. وكذلك البارجة «هارونا». وأغرقت ناقلتا بترول. وهي سفن ثمينة. ولا ريب في أنّ هذا الانتصار لم يكن ذلك الانتصار المدمّر الذي كان يمكن أن يتمّ «لسبرووننس» و «ميتشر» لو توافرت فيهما جرأة أكبر. ولكنّ هذا النجاح كان ذا تأثير عميق. فمن مجموع الطائرات اليابانيّة، التي كان عددها ٤٣٠ طائرة في صبيحة ١٩ حزيران، لم يبقَ غير ٣٥ طائرة في عشيّة ٢٠ حزيران. وقد كتب التاريخ الرسميّ ما يلي: «إنّ أكثر النتائج أهميّة كائن في أنّ الطيران الياباني المنقول بحراً قد دُمّر بكامله عملياً. وبهذا شُلّ هذا الطيران حتى نهاية الحرب.»

في الساعة ١٩.١٩، وفيما كانت أشعّة الشمس تغيب وراء الأفق، غادرت آخر طائرة أميركيّة ساحة القتال. فما كان من «أوزاوا»، الذي حداه العنادأو اليأس، إلاّ أن أصدر أمراً بشنّ هجوم ليليّ بواسطة السفن. وأطلق الأميرال «كوريتا» على رأس المقدّمة باتّجاه العدوّ. ولكنّ سفنه لم تكن تملك من المازوت مقداراً يكفي لهذه العمليّة، فدُعي «كوريتا» إلى العودة. وتحرّك الأسطول الياباني السريع شطر «اليابان» خائباً.

وعادت الطائرات الأميركيّة في ليل حالك السّواد. وكان مستوى الوقود ينخفض بلا انقطاع، فسقط بعض الطائرات، وأعلنت الطائرات الأخرى جميعاً أنّها كانت تستهلك آخر نقاط الوقود لديها. وأما «ميتشر»، الذي أخذ منه القلق الشديد كلّ مأخذ، فقد راح يحسب حساب الوقت اللازم لهبوط الطائرات على سطح السفن خلال الظلمة، وهي عمليّة لم تكن لمعظم الطيّارين بها أيّة خبرة. فاتّخذ قراراً جريئاً. وأمر بإضاءة السفن. وإطلاق الأسهم، متعرّضاً لإرشاد الغوّاصات إلى موقعه. ومع ذلك فقد بقيت الخسارة فادحة؛ فمن جملة الطائرات الـ ٢١٦، كانت ٢٠ طائرة فحسب قد أُسقطت في المعركة، ولكنّ ثمانين طائرة هبطت في البحر أو تهشّمت على سطح حاملات الطائرات. وفي أيّة حال مكّن انتشال الطيّارين من الماء من تخفيض الخسارة في الأرواح إلى ٣٨ ضحيّة. وهذا، لعمري، ثمن زهيد للمعارك البحريّةبالنسبة لمن ينتصر فيها، إذا ما قيس بالمذابح البريّة.

حزام أمن "اليابان" يُخرق

قصب الهزيمة البحريّة على مصير «سايبان»؛ ولكنّ الاستسلام ليس بكلمة يابانيّة، فاستمرّ النزاع ضارياً مريراً كما كان.

تمكّن الأميركيّون من الاستيلاء على مطار «أسليتو» الرئيس، في ١٧ حزيران. وفي ١٨ أدركوا خليج «ماجيسيان» وشرعوا يطهّرون جنوبيّ الجزيرة. فوضع «هولند سميث» الفرقة ٢٧ التابعة للجيش الأميركيّ بين فرقتَيْ مشاة البحريّة الخاضعتين لإمرته، وعطف خطّ هجومه بغية فتح الوسط والشمال. كانت الفرقة ٢٧ بقيادة «سميث» آخر يُدعى «رالف»، جعله سميّه ورئيسه مسؤولاً عن النتائج الضعيفة التي حقّقها رجاله في ثلم الأشواك والنبات. المسمّى «وادي الموت». والممتدّ عند أصل جبل «توبوتشاو». ثمّ ما لبث أن أقاله من منصبه، بعد موافقة «سبرووننس» و «تورنر»، واستبدل به أحد رجال مشاة البحريّة، هو الجنرال «جارمان». ولسوف ينشأ عن هذا التدبير الحازم نزاعٌ حادّ سيمتدّ إلى مجالي السياسة والصحافة فيغذّي حملات أنصار «ماك أرثر» الذين كانوا يطالبون. مُلحفين. بإسناد قيادة المحيط الهادىء كاملةً إلى رجلهم العظيم. ولقد ثبتت موضوعياً صعوبة استخدام فيلق مشاة البحريّة، ووحدات الحرس القوميّ العامل. كفرقة المشاة ٢٧. جنباً إلى جنب؛ فالمستوى العسكريّ بينها كثير التفاوت.

مشاة البحريّة يطأون الثرى.

لقد أمسى وضع اليابانيّين رهيباً؛ فلم يبقَ لهم مدفع واحد، وأفواجهم تضمّ ما يتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ رجل فحسب، وهم مفتقرون إلى الماء. والأميركيّون من جهتهم يتقدّمون تحت غطاء من النار هائل، مطهّرين المغاور كلّها بقاذفات اللهب، ساحقين أقلّ مقاومة يصادفونها تحت بساط من قنابل الطائرات وقنابل المدفعيّة البحريّة. إستولوا على جبل «تابوتشاو». وطفقوا ينتزعون «غارابان»، عاصمة الجزيرة الصغيرة، خربةً خربة. حاصرين العدوّ بانتظام في الرأس الشمالي. فالتمس «سايتو» باتّضاع من الإمبراطور أن يعذره لأنّه لا يدافع عن «سايبان» بما يليق من العزيمة، وبعدما أمر بهجوم انتحاريّ يُشنّ ليل ٧–٨ تموز، عمد إلى اتّخاذ التدابير النهائيّة: فقطع شريان معصمه بسيفه، ثمّ أجهز عليه ضابط الخدمة بطلقة مسدّس. وفي مغارة مجاورة عمد الأميرال «شويشوي ناغومو»، بطل «بيرل هاربور»، والرجل الذي أبكى ٨٠ مليون ياباني عزّة وكبراً، إلى الوسائل عينها فوضع حدّاً لحياته.

حشد الهجوم الياباني كلّ اليابانيّين وليس لمعظمهم من السلاح غير حراب أو مدى مغروسة في القصب. كان كرّهم في الليل خارقاً رهيباً، فسطوا على بطّاريّتين من بطّاريّات المدفعيّة، وشرّدوا عدّة كتائب؛ فاستبدّ الذعر بالأميركيّين فأخذوا يلقون بأنفسهم في البحر جماعات جماعات، واجتازوا بحيرة المرجان ولجأوا إلى صخر «تاناباغ»، حيث أقبلت المدمّرات عند الفجر لالتقاطهم. وأخيراً تمكّنت المدفعيّة والدبّابات من إبادة الشراذم اليابانيّة حتى آخر رجل، فكست ميدان القتال بـ ٤،٠٠٠ جثّة، حملت معها إلى العالم الآخر ٤٠٦ أميركيّين. وهكذا تكون «سايبان» قد كلّفت ٣٠،٦٧٤ رجلاً من مشاة الجيش الأميركيّ، بين قتيل وجريح ومفقود، و ١٠،٤٣٧ من مشاة فيلق البحريّة الأميركيّ.

بدأ الهجوم على «غوام» في ٢١، بنزول مزدوج قامت به فرقة مشاة البحريّة الثالثة واللواء الاحتياطيّ الأوّل. وبدأ الهجوم على «تينيان»، بعد ذلك بأربعة أيّام، بنزول فرقة مشاة البحريّة الرابعة. وتمّ فتح هذه الجزيرة الأخيرة المسطّحة الملائمة لتحرّك الدبّابات والطيران في غضون أسبوع واحد؛ بعدإبادة رجال الحامية الـ ٨،٠٠٠ إبادة شاملة. أمّا «غوام»، وهي أرحب وأوعر كثيراً، فقد استوجبت من المعارك ما هو أطول كثيراً. وأخيراً حُطّمت المقاومة المنظّمة في ١٠ آب، باحتلال جبل «سانتا روزا». وقتل «أوباتي»، قائد الجيش الياباني الحادي والثلاثين، الذي فاته أن يشترك بمعركة «سايبان»، في ١١ آب. ولجأت إلى المقاومة في أدغال «غوام» جماعات من اليابانيّين أرادوا تحاشي عار الاستسلام أو واجب الانتحار.

دفع الأميركيّون ثمناً لاحتلال جزر «الماريان» ٢٣،٧٩٥ رجلاً بين قتيل وجريح ومفقود؛ وهو، لعمري، عدد ضخم بالنسبة لحملة ضمّت ١٥٠،٠٠٠ رجل. ولكنّ حزام أمن «اليابان» قد خُرق، وباتت «طوكيو» بمتناول طائرات «ب–٢٩».

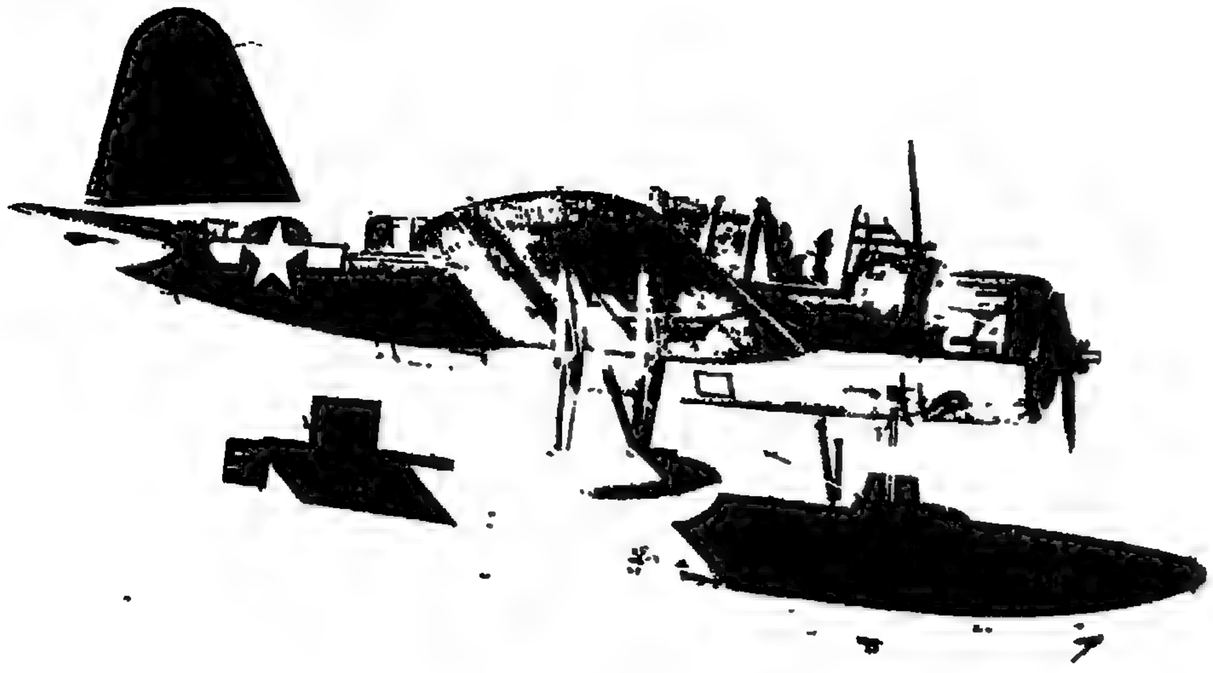

إحتلال "إنجبي" في "ميكرونيزيا"

إحتلّ الأميركيّون جزيرة «إنجبي» في ١٧ شباط ١٩٤٤، ولم يُبد اليابانيّون سوى مقاومة معتدلة. والصور الواردة في هاتين الصفحتين تمثّل طبيعة القتال في «ميكرونيزيا».

طائرة جومائيّة أميركيّة تراقب عمليّات النزول ، وقد بدا الشاطئ وسط سحب الدخان واللهب .

في تلك الجزر الصغيرة لم يكن بوسع مشاة البحريّة الأميركيّين أن يتقدّموا إلاّ زحفاً نظراً للمقاومة الضارية اليائسة التي كان اليابانيّون يبدونها .

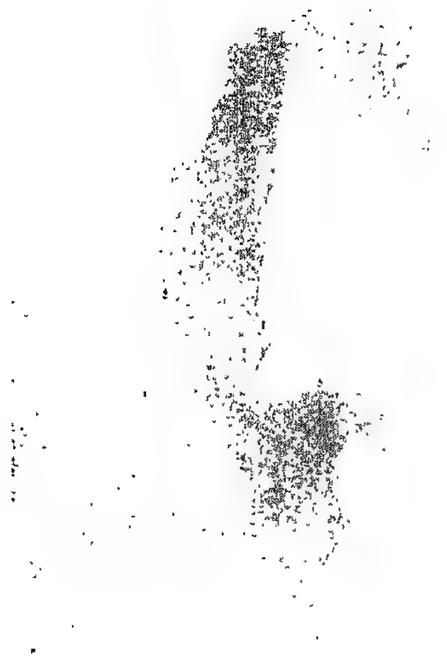

لقد توغّلت هذه الدبّابة البرمائيّة حتّى بلغت قلب المقاومة العدوّة ، فيما راحت أشجار جوز الهند تشتعل . ويبدو إلى اليسار شبح أحد مشاة البحريّة . أهو الليل ، أم تراه النهار إنّها من الصور التي تحمل مأساة حرب المحيط الهادىء .

الدبّابة البرمائيّة الرائعة . ما إن تنزل من زورق الإنزال حتّى تنطلق سريعة ، ومدفعها مصوّب متأهّب ، نحو النقطة التي عُيّنت لها على الشاطىء . إنّها هناك ، طليعة مشاة البحريّة .

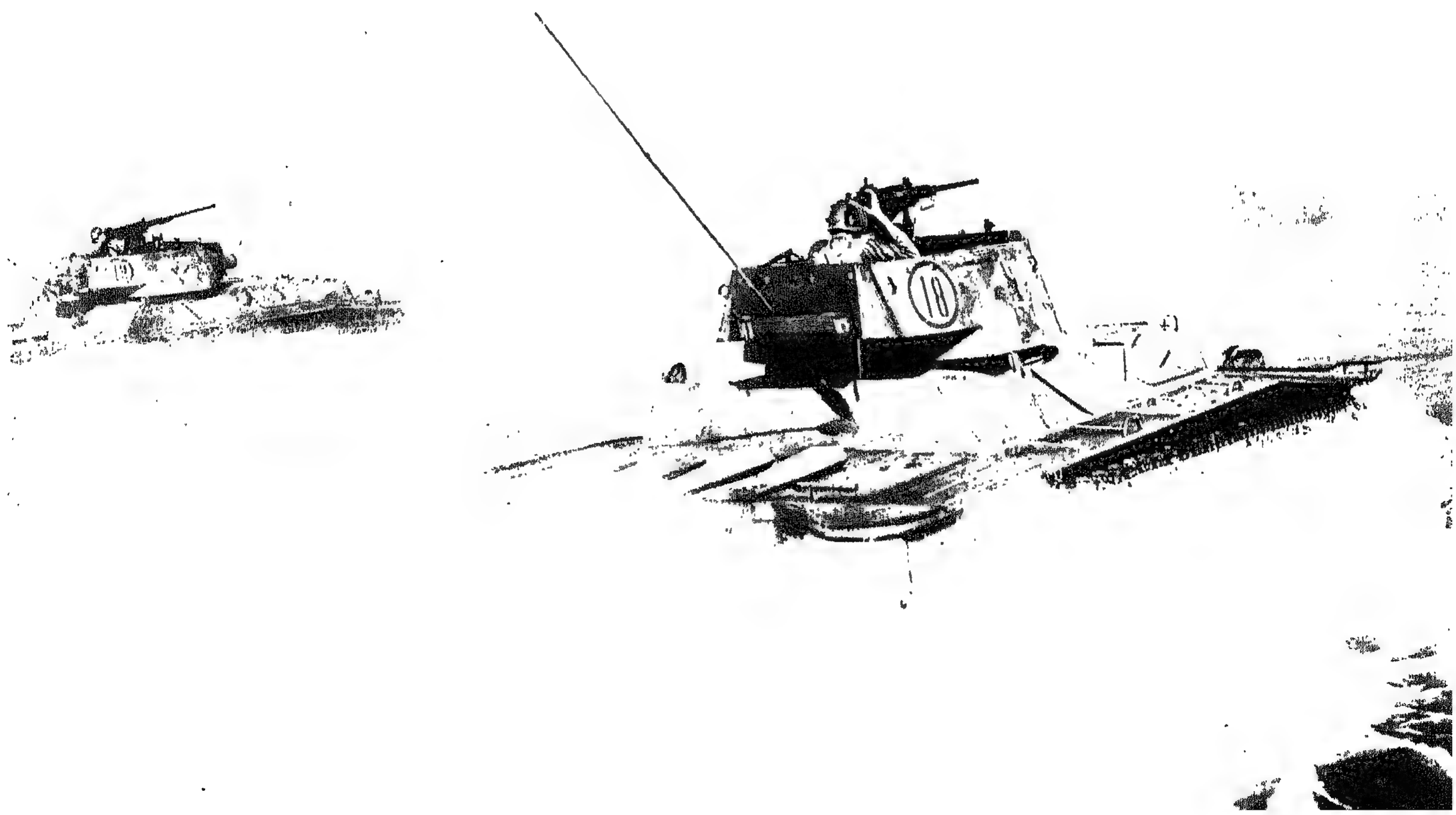

"أوستراليا"، معقل الغرب

منذ ٨ كانون الأوّل غاصت «أوستراليا» في غمرات الحرب إلى الرُكَب. وفيما كان اليابانيّون ينتقلون من نصر إلى نصر لجأت بقايا الطيران الأميركيّ الناجية من «الفيليبين» إلى «أوستراليا» . ولقد أبدى الأوستراليّون في الدفاع عن بلادهم وفي خدمة قضيّة الحلفاء ضروباً من البسالة نادرة .

الأوستراليّون يتدرّبون في بلادهم على فنّ النزول إلى الشواطىء .

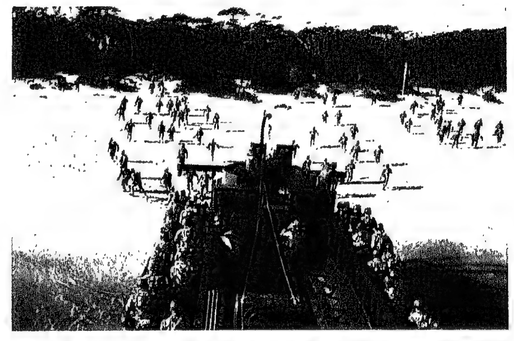

من جليد "روسيا" إلى مدار النار !

أتت معركة جزر «مارشال» مرحلة جديدة في الزحف إلى «طوكيو» . إنطلق الهجوم في ٣١ كانون الثاني ١٩٤٤ ، ولم تمرّ أيّام ثلاثة حتى سيطرت فرقة مشاة البحريّة الرابعة على المنطقة بعد تحطيم المقاومة اليابانيّة تحطيماً كاملاً .

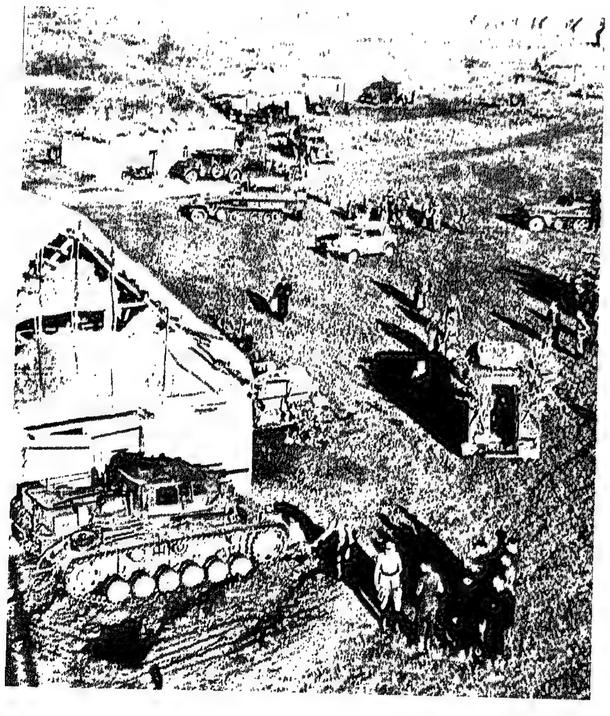

في قلب شتاء ١٩٤٣ – ١٩٤٤ القاسي : صورة لاندحار «كيروفوغراد» في أوائل كانون الثاني .

صيف ١٩٤٤ : تشكيلة من الدبّابات الألمانيّة تتجمّع للهجوم .

"يُريدُ "هتلرُ" حربَ إفناء ؟ فليأخذها منّا حربَ إفناء !" (ستالين)

جنود سوفياتيّون يصطلون النار على ضفّة «الدنيبر» قرب خزّان جبّار . لقد دُرّب هؤلاء الجنود الأفذاذ على حرب المستنقعات والمياه خير تدريب ، فكنت تراهم ، وهم يسيرون محمّلين بالأخشاب ، وكأنّهم غابة تسعى !

الزمان : ١٥ تموز ١٩٤٤ . المكان : جبهة «لينينغراد» في برزخ «كاريليا» . المشهد : رشّاشون سوفياتيّون قطعوا نهراً وانطلقوا عبر الشاطىء . لقد انهار الجيش الألمانيّ في كلّ جهة ، فبات تفكير الأركان السوفياتيّة محصوراً في المحافظة على استمرار التقدّم وسرعته .

تحرير (تابع)

إنقاذ «فرنسا»

ما علم المارشال «فون كلوغي» بثغرة «افرانش» حتى بادر إلى مقرّ قيادة الجيش السابع في «مانس»، حيث انفجر غضبُه بلسان عسكريّ صرف!

فالوضع «رديء في غاية الرداءة». والجيش السابع، إذ ترك فرقة الدبّابات «ليهر» في الخطوط الأماميّة، وفّر لبساط القنابل الأميركيّة فرصة تدمير أفضل وحداته الآليّة الكبرى؛ ولدى انكفائه في الاتّجاه الجنوبيّ الشرقيّ، متجاهلاً ما بلغه من أوامر صريحة حازمة، فقد اتّصاله بالشاطىء. وفتح ثغرة في الجدار الذي كان يحصر الاجتياح في الآجام النورمانديّة بمنتهى الصعوبة. وغدا أخشى ما كانت تخشاه القيادة الألمانيّة العليا، وهو وصول القوّات الآليّة المعادية إلى أرض حرّة طليقة، أمراً واقعاً ناجزاً.

والواقع أنّ «كلوغي» لم يكن ليخدع نفسه بالأوهام؛ فلقد صبّ جام غضبه وبارق صواعقه على المنفّذين، بحكم عادة عسكريّة قديمة؛ ولكنّه كان على يقين من أنّ الجبهة متصدّعة حتماً. هنا أو هناك، عاجلاً أم آجلاً. وكان قد أحال إلى قيادة الجيش العليا المذكّرة التي وقّعها «رومل» قبل إصابته بجروحه، والتي دارت على استحالة متابعة القتال، وطلب مقابلة الفوهرر ليعرض عليه الجلاء عن «فرنسا» حتى «السين» في أقلّ حدّ. فرفض «هتلر» استقباله. ورفض لذلك العودة إلى الجبهة الغربيّة، زاعماً أنّ وضع طبلتيه يحرّم عليه ركوب الطائرة.

في الوقت الراهن كان لا بدّ من سدّ ثغرة «أفرانش». ولدا تسلّم «كلوغي» إدارة الجيش السابع التكتيكيّة، منخطّياً حقوق «هاوسر»، من غير أن يجرؤ على تنحيته عن قيادته، ثمّ أوعز إلى الجنرال «فاهرمباشر» قائد الفيلق ٢٥، بأن يقيم حاجزاً على طول خليج «مون-سان-ميشال». كانت القوّات المرابطة في «بروتانيا» قد رأت أفضل عناصرها تُفصل عنها على التوالي، ابتداءً من فرقتَي المظليّين ٥ و٣، ومروراً بفرق المشاة ٧٧ و ٢٧٥ و٣٥٣، إلى غيرها. بيد أنّ «كلوغي» رأى من حقّه أن يضعفها بعدُ، حفاظاً على المهمّة الأساسيّة التي أشارت إليها مذكّرة «قيادة الجيش الألمانيّ العليا» الأخيرة إذ قالت: «مصير الحرب رهن بحصر الغزو في نورماندیا.»

ولكن سبق السيف العذل! فقد ساعد الإهمالُ الألمانيّ على تسليم الأميركيّين منفذاً للخروج من المقاطعة التي كانوا يشقّون فيها وينزفون منذ ٦ حزيران. فما استولوا على «أفرانش»، في ٣١ تموز، وسط جموع ألمانيّة متفكّكة، حتى انطلقت إحدى طلائع الفرقة المصفّحة ٤ إلى جسر «سيلون»، الواقع على بعد ٦ كلم جنوبيّ المدينة؛ على طريق «بونتورسون». كان الجسر بناء من إحدى عشرة قنطرة منخفضة يجري تحتها نهر سريع، ينحدر من «سويسرا» النورمانديّة ليمضي فيصبّ في خليج «مون-سان-ميشال»، بعد أن ينعطف في منعرجات كبيرة حول صخر «تونبلين». كانت قاذفات القنابل الحليفة قد أغفلته بتدبير من العناية، يوم انقضّت تهدم المباني الفنيّة الفرنسيّة؛ والجدير بالذكر أنّ الألمان أنفسهم لم يلغموه؛ فعبرته القوّة التابعة للكولونيل «كلارك»، قرب الساعة ٧ مساءً، واتّخذت على الضفّة الثانية ما يلزم من التدابير للدفاع عن قرية «بونتوبول».

كما في «روسيا»، و «بولونيا»، و «رومانيا»، كذلك في «فرنسا»: تحريرٌ وأنقاض!

عـــودة "بـاتون"

في اليوم التالي، أوّل آب. عاد «جورج باتون» إلى المسرح وقد تسلّم قيادة الجيش الثالث.

كان «باتون» قد أضاع وقته في الانتظار في «إنكلترا» حتى ٦ تمّوز. موطّداً بذلك اعتقاد الألمان بأنّ النزول الحقيقيّ لم يحلّ بعدُ، ما دام اشدّ الجنرالات الأميركيّين شكيمة كان باقياً في قاعدة الانطلاق. ولكنّه حصل على إذن بعبور «المانش» مع أركان عامّة صغيرة، وكان مكلّفاً بمهمّات متعدّدة موقّتة. كمراقبة الفيلق الثامن. وقد طُلب إليه أن يبقى في الخفاء لإطالة أمد الحيلة. وكانت الصفعة المشؤومة التي وجّهها للجنديّ «بينيت» في «صقليّة»، والتي أوغرت صدور الأمّهات الأميركيّات عليه حقداً، ما تزال عبئاً على وضع «جورج باتون». ولقد وعده «أيزنهاور» بأن يُسنِد إليه قيادة جديدة على الرغم من هذا الاعتبار. مقابل تعهّده بأن يتذرّع بالصبر قبل أن يفوه بأيّة كلمة، وبأن يتمالك نفسه ويضغط على يديه بشدّة إذا ما شعر بدنوّ الغضب. ولقد كان «باتون» خليقاً بأن يحثو متضرّعاً في سبيل الحصول على سانحة لخوض القتال!

كان مخطّط غزو «أوروبا» ينصّ على إيجاد مجموعتي جيوش بتجزئة الجيشين اللذين اشتركا في النزول جزئين: المجموعة ٢١، وهي تضمّ الجيش البريطانيّ الثاني، والجيش الكنديّ الأوّل؛ والمجموعة الثانية عشرة المؤلّفة من الجيشين الأميركيّين الأوّل والثالث. وقد أُسندت قيادة المجموعة الأولى إلى «مونتغومري»، والثانية إلى «برادلي»، وكان قوّاد الجيوش هم سير «مايلز ك. دمبسي»، و«هـ. د. ج. كريرار»، و«كورتني هـ. هودجز»، و«جورج س. باتون الأصغر».

في هذا التنظيم الجديد بقي دور «مونتغومري» مبهماً. فقد كان معلوماً أنّه سوف يؤمّن قيادة العمليّة بمجملها، فضلاً عن تمرّسه بقيادة مجموعة جيوشه. وذلك إلى أن يتسلّم «أيزنهاور» القيادة المباشرة لقوّات الحملة، في أيلول مبدئياً. وكان «مونتغومري» ينظر بامتعاض إلى هذا الحلّ الانتقاليّ الأخرق. فقد كانت له في الرئيس الأعلى لقوّات الحلف آراء دوّنها صديقه السير «آلان بروك» في يومياته السريّة، منها: «إن «أيزنهاور» لشخصيّة ساحرة، وهو منسّق بارع، ولكنّه ليس بالرئيس الحقّ... فهو لا يعرف من الستراتيجيّة شيئاً... إنّه يريد أن يتولّى القيادة، وبهذا سيطول أمد الحرب ستّة أشهر إضافيّة...» ففي عرف «مونتي» كان على «أيك» أن يكتفي بمركز الصدارة الاسميّة، تاركاً له القيادة الفعليّة.

باشرت المجموعة البريطانيّة للجيوش نشاطها في ٢٣ تمّوز. وبقيت المجموعة الأميركيّة للجيوش من غير حراك. وفي ٢٥ كان الجيش الأوّل الأميركيّ يعدّ ٢٢ فرقة قوامها مليون رجل، وهي كتلة صعبة القيادة، لا يمكن إدارتها في نطاق جيش واحد. وعلى الرغم من ذلك كان «برادلي» يخشى تفجير هذه القوّة. تهيّباً من الوقت الذي يصبح فيه «جورج باتون» تحت إمرته، (وكان «برادلي»، في الماضي تحت إمرة «باتون»)، وقد قال في ذلك: «ليس هذا بالاختيار الذي أتوق إليه...»

وأخيراً فرض «أيك» سلطته على «برادلي»، وحدّد له أوّل آب موعداً أقصى لولادة مجموعة الجيوش ١٢. احتفظ الجيش الأوّل بالفيالق ٧ و ١٩ و٥، مع أكبر عدد من الفرق والدوائر والأركان العامّة الأكثر أهميّة: وضُمّت إلى الجيش الثالث الفيالق ٨ و١٥ و١٢ و٢٠؛ ولكنْ لم يكن لهذين الفيلقين الأخيرين في «فرنسا» غير أجزاء، وكان الفيلق ١٥ قد ولد منذ أمد قصير. والفيلق الوحيد الذي كان جاهزاً بالفعل هو الفيلق ٨، الذي كان يضمّ الفرقتين المصفّحتين ٤ و٦، وفرقتي المشاة ٨ و٧٩، فألقى «باتون» بهما في الثغرة. وقد أقام مع «مونتغومري» رهاناً، قيمته ٥ ليرات سترلينيّة. على أنّه سيكون في «بريست» يوم السبت المقبل

كانت طريق «بونتورسون» هي المسلك الوحيد. ولم يكن هنالك غير جسر «بونتوبول»، فتدفّق عبر مسلكه الذي يبلغ خمسة أمتار نهرٌ من الآليّات: دبّابات، ومدافع مسيّرة آليّاً، وشاحنات. وسيّارات «جيب». وسيّارات مصفّحة، وعدّة الجسور، وجرّارات، وسيّارات إسعاف. كانت تجري ليلاً ومصابيحها مضاءة كلّها، كما لو أنّ الطيران العدوّ لم يكن له وجود. وقد أُهملت قواعد المسيرة كافّة؛ فكانت العناصر تتوغّل في الرتل حسب ترتيب وصولها إلى مراكز التنسيق، ولم تكن الوحدات تعود إلى التجمّع إلاّ على بساط الطرق النافذة نحو «رين»، و«رينان». و«فوجير»، و«كومبور»، و«فيتري»، و«لافال». واجتازت الفرق الأربع في الفيلق الثامن «سيلون» خلال ثمان وأربعين ساعة. وقد لحقت بها بالسرعة نفسها فرقتان من الفيلق ١٥. وبعد أمطار تمّوز القاتلة غدا الطقس رائعاً. وخرج الجيش الأميركيّ من الوهن الشديد الذي أوقعته فيه حرب السياجات. وأمّا المعدّات الهائلة التي كانت ترقد تحت الشباك المموّهة، نظراً لافتقار المساحة الملائمة لاستخدامها. فقد عادت إلى الحياة كما تعود أمّة كاملة من الحشرات بعثتها الشمس بعثاً جديداً.

كانت أوامر «باتون» في غاية البساطة: الفرقتان المصفّحتان ٨ و ٤ باتّجاه «رين»، والفرقتان المصفّحتان ٧٠ و٦ باتّجاه «بريست». وإذ التقى «باتون» صديقه «بوب غرو»، قائد هذه الوحدة الأخيرة، الذي كان ينظّم بنفسه سير العناصر على طريق «بونتورسون»، شدّ على كتفه بيده الفولاذيّة وقال له: «خذ بريست!». وإذ اعترض «غرو» قائلاً إن ٤٠٠ كلم تفصله عنها، أجابه «باتون»: «لا إخالك تتركني أفقد الليرات الخمس التي راهنت بها «مونتي»!».

كان مخطّطو غزو «أوروبا» قد حسبوا حساب حملة شتويّة في «فرنسا». كان على الجيوش الحليفة أن تحلّ في كانون الثاني على خطّ «أبفيل — أميانس — لاوون — ريمس — تروا»، فلا يمكن بالتالي أن يتمّ تحرير «أوروبا» الغربيّة قبل الصيف التالي. وفي هذا المخطّط كانت «بروتانيا» عتبةَ هذا الغزو. وكانت أعمال ضخمة قد أُعدّت لتحسين مواصلاتها الفاسدة، وقد نُظر في بناء مرفإ كبير في ظلّ رصيف «كيبورون» الطبيعيّ. وكان على الجيش الثالث بكامله أن يجهد في غزو شبه الجزيرة الأرموريكانيّة، في الوقت الذي يقوم فيه الجيش الأوّل المنبسط نحو «اللوار» بحماية جانبه.

بيد أنّ الأفكار تتطوّر، والجرأة تسير قُدُماً. وأمّا «مونتغومري» الذي كان متورّعاً في مخطّطاته، جسوراً في ستراتيجيّته، فقد كان السبّاق إلى رؤية جادّات أسرع إلى النصر. وكانت المرحلة البروتانيّة تبدو له من غير طائل. وقد بدا له أنّ استخدام جيش مؤلّف من أربعة فيالق، في وجه فرق ألمانيّة هرمة أربع، أمر لا مبرّر له. وكان «باتون» يفكّر بالطريقة نفسها. وكان أفضل مرؤوسي «باتون» يفكّرون على طريقة قائدهم. وكان الجنرال «جون س. وود»، قائد الفرقة المصفّحة ٤، قد وصل أمام «رين» منذ عشيّة الأوّل من آب، وإذ وجد المدينة محميّة استدار حولها، ولكنّه، بدلاً من أن يسير باتّجاه «فان» و«لوريان»، وفقاً لأوامره، سار على «أنجير». وبعد ما دعاه قائد فيلقه «ميدلتون» للاتّجاه إلى «موربيهان» أطاع مرغماً وهو يقول: «ليس «لوريان» هو الموضع الذي ينبغي أن أذهب إليه، بل «شارتر». فالخطّة والوحي يقفان ههنا وجهاً لوجه. وأمّا المناورة التي ستعجّل في خاتمة معركة «فرنسا»، فقد انبثقت في الساحة نفسها. نتيجة لاصطراع الواقعين الفكريّين هذين.

في ٣ آب كتب «مونتغومري» ما يلي: «إنّني أبعث بالفيلق الأميركيّ الثامن بمفرده إلى «بروتانيا».» إنّ في الأمر لمبالغة: فلقد تقدّم في اتّجاه

«رين» جزء من فرقة المشاة ٨ فحسب؛ ولم تطأ أرض «بروتانيا» عجلة واحدة من عجلات فرقة المشاة ٧٩ التي استدارت نحو «لافال» و«لومانس». وكانت الفرقتان المصفحتان ٤ و٦ هما الوحيدتان اللتان توغلتا غربيّ خطّ «سان مالو— سان نازير». فوجدتا هناك بعض المشاة، وهم ٢٠٠٠٠ جنديّ فرنسيّ نظاميّ من جنود الكولونيل «إيون»، الذي هبط بالمظلّة في «فرنسا» قبل ٦ حزيران. ولقد تحرّر تسعة أعشار المنطقة تلقائياً. فأشرعت الأبواب . وسلّمت المدن للدبّابات الأميركيّة .

وبشطحة قلم أعلن «هتلر» الموانىء الفرنسيّة جميعاً أماكن حصينة: «دنكرك». «كاليه». «بولون». «لوهافر». «سان مالو». «بريست». «لوريان». «سان—نازير». «لاروشيل». «رويان». والتعليل الذي عرضه في خطابه المسهب بتاريخ ٣١ تمّوز لم يكن باطلاً: فالقوّات التي تحتلّ المرافىء، والتي لم تكن تتمتّع بالسهولة في التحرّك، كانت مهدّدة بدمار أكيد إن هي خاضت القتال في الساحات المنفتحة، فهي إذاً تؤدّي مهمّتها على وجه أفضل إن هي أوصدت أبواب «أوروبا» البحريّة وإن هي احتفظت بالقواعد التي يمكن لحرب الغوّاصات أن تنطلق منها من جديد.

الجنرال «باتون» في سيّارة جيب .

بعد إنزال طراز ٢١. وبعد ما خاب أمل الفوهرر عند سقوط «شيربور» السريع، أمر بأن يُحقّق في أوضاع القادة، وبأن تُدرَس حالتهم العقليّة. فأقال بعضهم، وجعل الآخرين يؤدّون قَسَماً خاصّاً.

في «بروتانيا» إذاً قامت العناصر المشتّتة في الفيلق الألمانيّ ٢٥ بالتراجع إلى المرافىء، بدلاً من أن تحاول الإفلات باتّجاه الشرق. ولو أنّ الجرأة والثقة كانا أكثر فعالية لدى الجنود الفرنسيّين لتمكّنوا من الاستيلاء عنوة على «لوريان». ولكنّ السائحة أفلتت من أيديهم. ووصلت الفرقة المصفّحة ٦ أمام «بريست» في ٧ آب، ولكنّ لم يكن لديها الإمكانات للإغارة على موقع هامّ كذاك. وبذلك خسر «باتون» رهانه! وكان حصار «سان—مالو» هو الحصار الوحيد الذي بوشر فيه للحال بواسطة مجموعة قدّمتها فرقة المشاة ٨٣. وبنحو ١٢٠٠٠ رجل، لم يعرف الكثيرون منهم بندقيّة من قبل. قام الكولونيل «أندرياس فون أولوك» بالتمركز على ضفّتي مصبّ «الرانس». وإذ تلقّى إنذاراً أخيراً يطلب منه الاستسلام، أجاب بأنّه سيدافع عن «سان — مالو» حتى آخر حجر فيها .

الحرب تمضي حثيثة الخطى

إندفعت معارك «فرنسا» الحاسمة خارجَ نطاق «الكلفادوس» و«الكوتنتان»؛ فقد انحرف زحف «باتون» نحو الشرق، لا يلقى أمامه غير فراغ؛ وأعرب أحد التقارير عن ذلك إذ قال: «يتعذّر علينا أن نفيدَكم بأيّة معلومات عن العدوّ، إذ لا وجود لعدوّ أمامنا... «فقد خلّت «البيرش» و«المين» من الألمان، ولم يصادف الزاحفون سوى بعض الحواجز المقامة على الطرقات . أو بعض جنود مصلحة التموين الذين يقعون في الأسر فيهلّل أكثرهم اغتباطاً بنهاية الحرب. وراح المدنيّون ورجال الدرك والعصاة يقودون الأرتال ويمحون ما علق في نفوس الأميركيّين من أنّهم يحرّرون الناس مكرَهين، وهو انطباع قد خلّفه استنكار القرويّين الذين غاظهم ألاّ تحترم القنابلُ الأبقارَ والماشية! ففي «لافال» مثلاً، حيث كانت كتيبة ألمانيّة تدافع عن الجسر، قاد رجالُ الشرطة البلديّة الأميركيّين إلى أحد سدود «المايين». ووصلت فرقة المشاة ٧٩، المنقولة من الفيلق الـ ٨ إلى الـ ١٥ ، إلى «مانس» في الساعة ١٧ من يوم ٨، قبل الفرقة المصفّحة الـ ٥ التي أخذت تتقدّم على محاذاة ضفّة «السارت» اليسرى. وقد كانت المدينة الكبيرة لساعات خلت، وهي عقدة المواصلات غربيّ «فرنسا»، مقرّ أركان الجيش السابع الأميركيّ ومستودعه المركزيّ. أمّا مجموع الفيلق الـ ١٥، الذي يقوده الميجر جنرال «واد هـ. هايسليب»، فقد بلغها بعد اجتيازه جسر «بونتوبولت» بأقلّ من أربعة أيّام.

تحقّقت نبوءة «هتلر» هذه المرّة. ففي الأرض العراء. وتحت حماية تفوّق جويّ ساحق. زوّد تحريكُ الآليّات الشامل الجيشَ الأميركيّ بالأجنحة . ووفّر له قدرة على التحرّك شبيهة بالتي عرفتها فرق الدبّابات الألمانيّة عام ١٩٤٠. وقد أغرى هذا التشابهُ القوّادَ الحلفاء بمحاولة تطويق القوّات الألمانيّة في «نورماندیا»: كما سبق «لروندشتاد» و«بوك» أن طوّقا القوّات الفرنسيّة البريطانيّة في «الفلاندر». وسرعان ما خطر هذا الاحتمال المثير «لباتون»، الذي تغذّت حاسّته الستراتيجيّة بدرس عميق للتاريخ العسكريّ، وهو المدرسة الكبيرة الوحيدة التي تُخرّج القوّاد الكبار. ولذا قال «لهايسليب»: « لا يأخذنّك العجب إذا ما تلقّيت أمراً بالسير ناحية الشمال—الشرقيّ، وحتى ناحية الشمال ... »

هنالك شبه آخر أخّاذ بعام ١٩٤٠. ألا وهو ضيقُ الممرّ الذي توغّل فيه الزحف الآليّ. فيوم اندفع «باتون» على جسر «بونتوبولت»، لم يكن عرض الثغرة ليبلغ عشرة كيلومترات، والجبهة الألمانيّة لم تمزّق إلاّ في طرفها الأيسر؛ أمّا في ما عدا ذلك فقد تعرّضت لضغط شديد لم تثبت أمامه إلاّ متكبّدة خسائر لا تطاق، على المدى الطويل؛ ولكنّها كانت، في الوقت الحاضر، ما تزال صامدة. فالجيش الكنديّ الأوّل لم يتمكّن من الخروج من ضاحية «كين» الكبيرة، وصدّ الجيش البريطانيّ الثاني أمام «فيليه—بوكاج» . ووقف الجيش الأميركيّ الأوّل يراوح بين «تورينيي» و«فيل‌ديو—لي—بول». أمّا جولة «باتون»، فقد كانت، على غرار جولة «غوديريان» عقب «سيدان»، أشبه بغارة منها باستثمار لنصر . وقد دعت إلى ردّه الفعل نفسها التي خطرت «لغاملان» و«فيغان» عام ١٩٤٠: ألا وهي سدّ الثغرة. فبينا يكتشف الحلفاء احتمال تطويق العدوّ، ركّز الألمان تفكيرهم على خنق الممرّ المفتوح عبر خطوطهم، وإيقاع العناصر التي اجتازته في الأسر. وهكذا اعتقد «هتلر» يقيناً أنّ مفتاح الظفر في الغرب قد بات في يده، أي أنّه قد غدا قادراً على قلب مجرى الحرب رأساً على عقب قلباً حاسماً نهائيّاً !

ثمّة اعتبار آخر قد أسهم في تغذية تفاؤله: ألا وهو الوضع الذي تصوّر الجيش الأميركيّ متردّياً فيه . فقد تأبّط دراسةً وضعها «فون

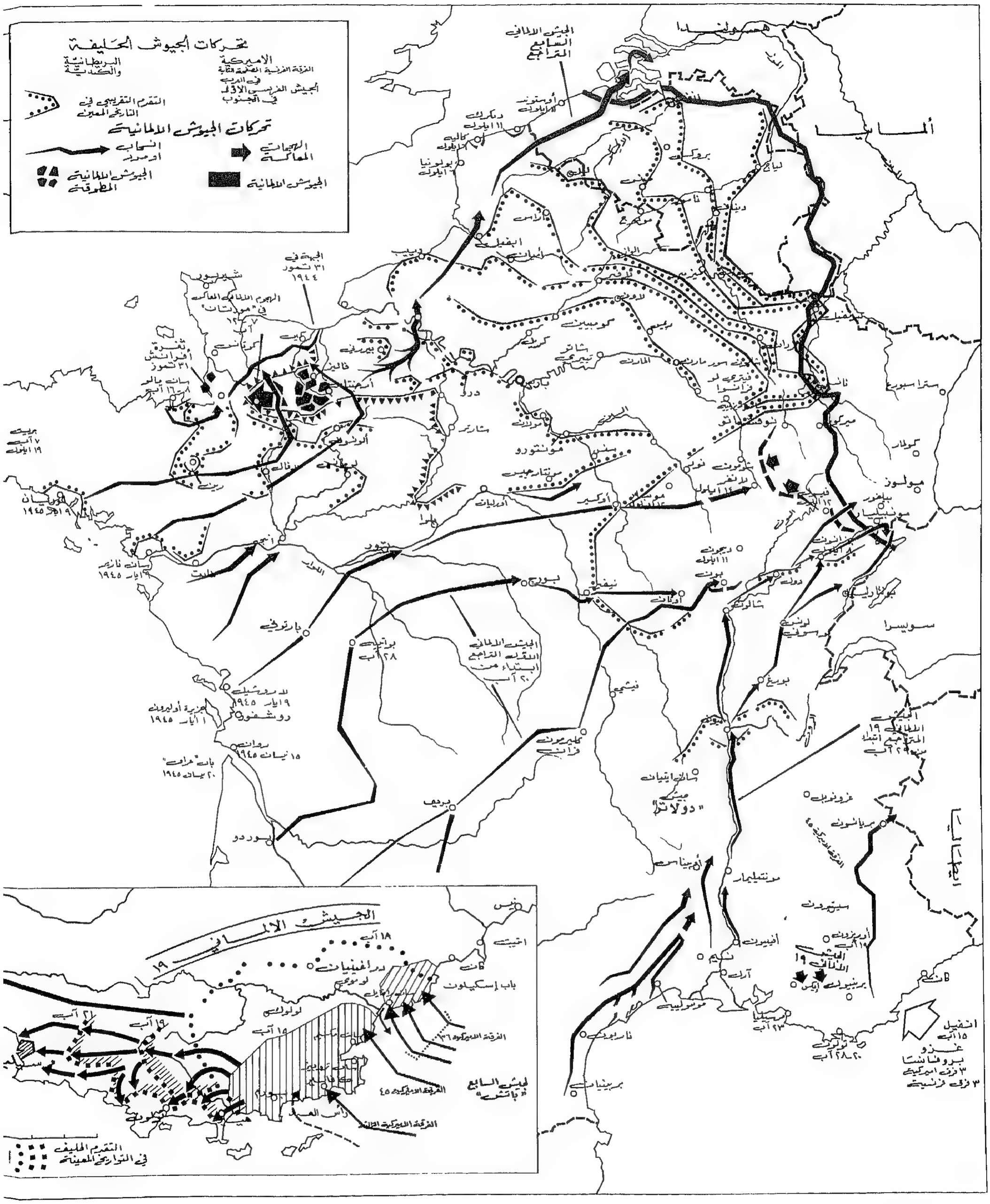
تحركات الجيوش الحليفة
البريطانية والكندية
الامريكية
الفرقة الفرنسية الصغيرة الثانية في العرب
الجيش الفرنسي الاول في الجنوب
التقدم التقريبي في التواريخ المعينة
تحركات الجيوش الالمانية
انسحاب او صدد
الهجمات المعاكسة
الجيوش الالمانية المطوقة
الجيوش الالمانية
الجيش الالماني السابع التراجع
هولندا
ألمانيا
بلجيكا
سويسرا
ايطاليا
الجبهة في ٣١ تموز ١٩٤٤
الهجوم الالماني المعاكس في "موالتان" ٧ آب ١٩٤٤
ثغرة أفرانش ٣١ تموز
سان مالو ١٦ آب
هزيمة ٧ آب ١٩ ايلول
فالين
أرجنتان
بيرنيف
دراغينيان
أورليان
مونتارجيس
أوكسير
مونتيليمار
نيفير
بورج
بارتوفي
برانيس ٢٨ آب
الجيش الالماني الثقيل التراجع ابتداء من ٢٠ آب
كليرمون فران
بريف
بورج
مولوز
بيلفور
مونبليار
سانت نازير ١٩ ايار ١٩٤٥
لاروشيل ١٩ ايار ١٩٤٥
جزيرة أولرون ١ ايار ١٩٤٥
روشفور
رواين ١٥ نيسان ١٩٤٥
باب "مراف" ٢٠ نيسان ١٩٤٥
الجيش الالماني
١٨ آب
دراغينيان
باب إسكيلون
لوموي
لولوس
١٩ آب
٢١ آب
١٤ آب
الفرقة الاميركية ٣٦
الفرقة الاميركية ٤٥
الجيش السابع "باتش"
راس العماد
الفرقة الاميركية الحادية
التقدم الحليف في التواريخ المعينة

كان التهديد الذي تعرّضت له «أفرانش» قد طرح على القيادة الحليفة مشكلة شائكة: أكان عليها أن تعيد «باتون» أدراجه، إبقاءً على صلاته بالشاطىء النورماندي؟ أم أنّها تجازف بقطع حبل سرّة الجيش الثالث الموقّت؟ لقد قرّر «أيزنهاور» شخصياً. صبيحة اليوم الذي أخذت فيه الدبّابات الألمانيّة تدنو من «سانت-هيلير-دو-هاركويه»، أن يعتمدَ جانب الجرأة المنطقيّة. فقد بلغت طاقة «مصلحة النقل الجوّي» ٢،٠٠٠ طنّ يومياً. بحيث أنّه كان بالإمكان تأمين حاجات الجيش الثالث الجوهريّة أيّة كانت الاحتمالات. وباتت متابعة فتح «فرنسا» ممكنة، بالرغم من المجهود الأخير الذي يبذله «هتلر» لترميم جبهته النورمانديّة.

بيد أنّ اندفاع «باتون» لم يبقَ يرمي إلى إنشاء «المنزل» الذي وضعت عمليّة الغزو تصميمه: فالعناد الذي تشبّثت به الجيوش الألمانيّة بالأرض ولّد فرصة ممتازة لتطويقها وأسرها. وهكذا يتمّ «باتون» - الذي كان يبغي «بريست» أوّلاً - شطر «ألونسون» لا شطر «شارتر»، مقوّماً محور مسيرته بما يزيد على ٩٠ درجة، حاملاً الدائرة التي بدأها منذ ثغرة «بونتوبولت» باتّجاه اليسار إلى ثلاثة أرباع مدارها. ومضى، على أن يبلغ في تقدّمه خطّاً يمرّ في «كروّج» و «سي»، حيث يوافيه الجيش الكنديّ الأوّل القادم من الشمال مروراً «بفاليز» و «أرجنتان»، فيُغلقَ الملزمة ...

في الوقت الذي بدأت فيه هذه المناورة الالتفافيّة الضخمة، كان الجيش الثالث مشتتاً على مسافة ٤٠٠ كلم تمتدّ من رأس «فينيستير» إلى ريف «مانس». فهو يقاتل على أبواب «سان-مالو»، محدقاً بمدينتها القديمة المحترقة، وهو يقوم بحصار «بريست» فاصلاً من أجله فرقة المشاة ٨، وهو إلى ذلك يسدّ منافذ «سان-لوريان» و «سان-نازير»، ويدرك نهر «اللوار» من «نانت» إلى «أنجيه». ولكنّه، مع هذا، يملك بسعة ما يلزمه من الحشود لتنفيذ مهمّته الجديدة. فثلاثة من فيالقه جاهزة بكاملها، أو بقسم منها: فالفيلق ١٥ الزاحف على «ألونسون» يشكّل مركز الثقل في العمليّة بكاملها؛ والفيلق ١٢ مستعدّ لتمديد عمله باتّجاه الشرق، كما أنّ الفيلق ٢٠ على استعداد لحمايته بوصله بالجيش الأوّل، قرب «دونفرون». وليس بين يدي الألمان لصدّ المناورة سوى بعض مفارز من جنود المؤخّرات؛ والفيلق المصفّح ٥٨ الذي يضمّ فرقة الدبّابات ٩ وفرقة المشاة ٧٠٨ الوافدة من جنوب «فرنسا» شراذم وأسمالاً.

كان ريف «ألونسون» مغايراً لأرياف «نورماندیا» التي خبرها الأميركيّون منذ شهرين. فالمراعي الخصبة، ومرابض الخيل، تتناوب والغابات الفخمة التي ينفرّ فيها المدفعُ قطعاناً من الأيّل! ازداد الفيلق ١٥ قوّة بانضمام الفرقة المصفّحة الفرنسيّة ٢ التي نزلت إلى البرّ يومَ ٣ آب في خليج «مون-سان-ميشال». مشى «لوكلير» بمقدّمته فانتزع جسور «ألونسون» سليمة. وما لبث أن اجتاز غابة «إيكوف»، وخرج عن طرقه المرسومة. فعرقل منطقة سير الفرقة المصفّحة الأميركيّة ٥. لم تكن «أرجنتان» في المنطقة الأميركيّة ولا في المنطقة الفرنسيّة، لأنّ فتحها كان قد تُرك لكنديّي مجموعة الجيوش ٢١. ولكنّ دوريّة فرنسيّة قد دخلتها مع ذلك في الساعة ٥ من مساء ١٣ آب، نزولاً عند رغبة دركيّين محليّين! ثمّ انسحبت بعدما رفعت العلم الفرنسيّ برهةً على إحدى نوافذ بيت المختار. وغدت «فاليز»، التي شنّ الكنديّون هجومهم عليها من جديد، على بعد ٢٥ كلم. أي ما يعادل مسيرة ساعتين بالنسبة للدبّابات!

في ١١ آب أطلعَ «كلوغي» «هتلر» على ضخامة الخطر وقرب وقوعه. واقترح أن تُسحب من ناتئة «مورتان» ثلاثُ فرق مصفّحة لشنّ هجوم معاكس من الغرب إلى الشرق على جانب الفيلق الأميركيّ ١٥. فقبل «هتلر» المبدأ، ولكنّه أخذ يناقش التطبيق. فرفض أن يقبل التخلّي عن الزحف على «أفرانش»؛ وبالتالي لم يسمح إلاّ بتراجع محدود في منطقة «مورتان». معتبراً أنّ مشروع مناورة المارشال كان متردّداً ضعيفاً. فالواجب يقضي بتوجيه الهجوم ناحيةَ الجنوب الشرقيّ على «مانس» مباشرة لبتر ساق العدوّ عند أصلها. وإذا ما أبادت الدبّابات الفيلق الأميركيّ ١٥ استدارت ناحية الغرب وسارت على «أفرانش» مروراً «بماين»، بالاشتراك مع القوّات المختلفة حول «مورتان».

كانت رؤيا «هتلر» خياليّة وهميّة؛ فالفرق المصفّحة التي يقذف بها في قطاعات الأفق كلّها ليست إلاّ حفنة من الدبّابات يخدمها رجال منهوكون، وقد أمسى تموينها بالوقود موقّتاً رهناً بالظروف، فضلاً عن أنّ قدرتها على التحرّك باتت ضعيفة جدّاً نظراً لسيطرة العدوّ على الجوّ. ولقد قال ذلك للفوهرر تلميذُ «غوديريان» المحبَّب والضابط الباسل «إيبرباخ». في تقرير خاصّ: «لا بدّ من الانتباه إلى أنّنا، في الطور القمريّ الراهن، لا يمكننا أن نتحرّك أكثر من ٦ ساعات على ٢٤ ساعة، وذلك من الساعة ٣ إلى ٩، وبشرط ألاّ يخوننا ضباب الصباح...» ومع هذا، كان «هتلر» منطقيّاً في رفضه القبول بهذه الاعتبارات. ذاك أنّه لو قبلها لما وسعه إلاّ أن يسلّم بهزيمة «ألمانيا» النهائيّة، أي بإخفاقه وانتحاره. فهو لم يبق يكافح ليبعد الكارثة عن بلده، إنّما للمدّ في أيّامه!

طفقت الدبّابات المعيّنة تغادر ناتئة «مورتان» ليل ١٢ آب. كانت الخطّة المرسومة تفرض أنّها، انطلاقاً من منطقة «كروّج»، ستشنّ هجوماً عامّاً نحو منطقة «سي»، خلال ليل ١٤-١٥ آب. بيد أنّ تلك كانت نظرة في البال مجرّدة: فقد اضطرّ «إيبرباخ» منذ ١٣ أن يعهد إلى فرقة الدبّابات الصاعقة ١١٦ - المؤلّفة من ١٥ دبّابة! - أمرَ الدفاع عن «أرجنتان». وفي الغد اضطرّت فرقة الدبّابات الصاعقة ١ - المؤلّفة من ٣٠ دبّابة! - أن تغلق الجبهة من «كروّج» إلى «لافرتي-ماسي»؛ ثمّ قضت الحاجة على فرقة الدبّابات الصاعقة ٢ - المؤلّفة من ٢٥ دبّابة! - بأن تصدّ الفرقة المصفّحة الثانية أمام «إيكوشي». أمّا فرقة الدبّابات ١٠، التي كان مفروضاً أن تهبّ للنجدة قادمة من ناحية «دونفرون»، فلم تستطع أن تقوم بالانتقال بسبب افتقارها إلى الوقود؛ وأمّا فرقة الدبّابات ٩، التي كان عليها أن تنضمّ إلى قوّات «إيبرباخ»، فقد دمّرها الفرنسيّون عمليّاً في غابة «إيكوف». وفي «رستنبورغ» احتشدت حول خارطة الفوهرر مجموعة جبّارة من الفرق المصفّحة كي تنقضّ على جانب الجيش الأميركيّ الثالث المتهوّر المعرَّض. أمّا في «نورماندیا» فقد انبسط بعض فئات من المحاربين بين «فلير» و «غاسي» فعشّشوا في السياجات، وهي، إن كانت قادرة على مقاومة صامدة ذات شأن، عاجزة عن القيام بحركة هجوميّة. وهكذا يمرّ قوّاد الحرب المتعاظمون المتعجرفون كلّهم في مرحلة يرفضون فيها الإقرار بواقع الأمور.

أعادت مجموعة الجيوش ٢١ كرّتها في ١٤ آب، فشطبت القنابل الملقاة بين «كيسني» و «تاسيلي» فرقةَ المشاة ٨٥ من جبهة القتال الألمانيّة. ومع حلول المساء كانت الفرقتان الكنديّتان ٢ و ٤ على بعد ٧ كلم من «فاليز» التي قُصفت بعنف لم يُبقِ أثراً لرسم الشوارع. ومدّد البولونيّون الزحف شرقيّ «الديف»، ليزيدوا كثافة الحلقة التي تنطبق على الجيشين الألمانيّين العالقين في الشرك.

نزول صاعق في "بروفانسا" تطويق مخفق في "نورماندیا"

قال «هتلر» بعد أسابيع مشيراً إلى يوم ١٥ آب ١٩٤٤: «لقد كان أكثر أيّام حياتي سواداً ...» ولكنّ القدر كان يخبّىء له المزيد من السواد.

خلال الليل هطل على «بروفانسا» مظليّو الفرقة الأولى المنقولة جوّاً الأميركيّون والإنكليز بالآلاف . وفي الساعة ٨ صباحاً نزلت ثلاث فرق أميركيّة بين «كان» و«هيير» . إنّ عمليّة «أنفيل—دراغون» قد انطلقت والحالة هذه؛ تلك العمليّة التي أُرجئت مراراً عدّة، والتي كان «تشرتشل» يناهضها، والتي أبقى الأميركيّون عليها لتحويل نظر الإنكليز عن «البلقان» أكثر منه لمقتضى ضرورة عسكريّة يقتنعون بها .

كانت القوّات التي اشتركت في هذه العمليّة ناتجة أصلاً عن تجزئة جيش «إيطاليا» . ففي ٢٨ تمّوز انتُزع الفيلق الأميركيّ السادس وفيلق الحملة الفرنسيّ من الجنرال «كلارك» بعد ما كانا في أوج ملاحقتهما . وبعد الاستيلاء على «ليفورنو» و«بيزا» و«سيينّي»، وقد أُعيد إلى جنوبيّ «إيطاليا» لكي يصار إلى إبحارهما من هناك شطر الساحل البروفنسالي . وأمّا فرقة مشاة المستعمرات التاسعة، التي احتلّت جزيرة «إلبا» في ١٧ و ١٨ تمّوز . وأمّا الفرقتان المصفّحتان ١ و ٥ اللّتان كُوِّنتا في «الجزائر»، فقد أتت تنضمّ إلى القوّات الفرنسيّة التي قُسمت بدورها إلى فيلقين كان لهما أن يؤلّفا جيشاً فيما بعد. وأمّا «جوان» فقد زال عن مسرح الحرب العاملة ليحلّ محلّه الجنرال «دي لاتردي تاسينيي» ، وذلك على الرغم من موقفه الباهر أثناء حملة «إيطاليا». كان معادياً لعمليّة «أنفيل» ، معتبراً بحقّ أنّ سهل «البو» إنّما كان المفتاح الستراتيجيّ للحرب، «وساحة القتال المثاليّة التي تقود إلى «فيينا» و«براغ»، وإلى خطّ «الإلب» في وقت يسير». بيد أنّ السياسة — سياسة «روزفلت» السوفياتيّة — قد قرّرت عكس ذلك دونما إلتفات إلى الستراتيجيّة .

وقد رافق عودة هذا العدد الضخم من الجنود الفرنسيّين نحو أرض «فرنسا» رعشةٌ عاطفيّة قويّة . إلاّ أنّ التحضيرات ، والإبحار، وعبور «أنفيل» لم تكن لتشبه تقلّبات غزو «أوروبا» المؤثّرة إلاّ مشابهة طفيفة. ومع ذلك فقد كانت الحملة بالغة الأهميّة، وقد تطلّبت تحريك حوالي ٢٠٠٠٠ سفينة إنزال أو سفينة نقل، ومواكبة بحريّة مؤلّفة من ٣٠٠ سفينة حربيّة، منها البوارج «نيفادا» و«تيكساس» و «أوكلاهوما» و«راميليز». وراحت القوافل تقترب من الساحل الفرنسيّ عبر ثماني طرق انطلقت من «وهران» و«مدينة الجزائر» و«بنزرت» و«باليرمو» و«تارانتو» و«برنديزي» و«نابولي» و«كالفي». ولم يُشب العبورَ أو الاقتراب أي عارض قطّ، سوى حادث طارىء في الساعة ٣،٤٧، بالقرب من جزيرة «الشرق» حين عكّرت صفوَ الرحلة لبرهة وجيزة السفينة الألمانيّة «إيسكاربورت»، ولكنّ المدمّرة «سومرز» أتت عليها بصلية واحدة . وفي ذلك الوقت بالذات كان المغاوير الفرنسيّون والمغاربة من جماعتَي «روميو» و«روزي» قد وطئوا الشاطىء في رأس «العبد» وفي ناتئة «إيسكيبون» ؛ فضلاً عن مظلّييّ فرقة «إيربورن» الجويّة الأولى. وكانت عمليّتان لإنزال مظليّين مفتعلين قيد التحقيق أمام «جنوا» و«لاشيوتات» .

بدأ القصف الجويّ والبحريّ مع طلوع الفجر. وعند بزوغ الشمس كانت السماء غائمة، ولكنّ البحر كان هادئاً، وكانت النشرة الجويّة ممتازة. وراحت موجات الهجوم في فرق المشاة الأميركيّة ٣٦، و٤٥، و ٣، تحتشد من غير عقبات أمام «سان رافاييل» و«سان تروبي» و«كافالير» على التوالي؛ وقد وطئت جميعها الأرض باستثناء واحدة في الساعة الثامنة والدقيقة الواحدة، من رأس «كافالين» حتى ممرّ «أنتيور» البحريّ الضيّق .

كان الجيش الألماني التاسع عشر يؤمّن الدفاع عن الساحل المتوسطيّ. وعلى رأسه الجنرال «فريدريك فيسي» الذي حلّ لتوّه محلّ «فون شودنشترن» . وكان هذا الجيش . بعدما اعتُصر لصالح جبهة «نورماندیا»، مقتصراً على سبع فرق لا تضمّ أقلّ من ٢٠ كتيبة شرقيّة. وعلى فرقة المصفّحات ١١ التي كانت موجودة لسوء الحظّ إلى غربيّ «الرون» في منطقة «مونبولييه» . ومنذ ساعات الصبح الأولى لاح للقيادة الألمانيّة أنّ المنشآت الناقصة في جدار المتوسّط، فضلاً عن القوّات الهزيلة المتمركزة فيها، كانت عاجزة عن مجابهة الغزو الجديد .

في «نورماندیا» لم يكن يومُ ١٥ آب يومَ هدنة؛ فلقد جلا الألمان عن ناتئة «مورتان»، فأعاد الأميركيّون احتلالها منقذين بذلك المحاصَرين في الخطّ ٣١٧، إلاّ أنّ سبعة فيالق ألمانيّة كانت محصورة بين «فلير» و«الديف»، في ممرّ طوله ٥٠ كلم وعرضه نحو عشرين، قال عنه رئيس أركان المجموعة «ب» العامّة «إنّ الوضع فيه يتأزّم من ساعة إلى ساعة». ولم يكن الجيب قد أُغلق بعدُ، ولكنّ تموينه قد غدا صعباً للغاية، وكانت القاذفات الحليفة تزرع فيه فوضى دامية. ومع ذلك فلا النزول في «بروفانسا»، ولا قتال «نورماندیا» المتفاوت القوى، كانا سبباً لهياج «أدولف هتلر»، وثورته، وقلقه الخانق، بل اقتناعه بخيانة جديدة : فالمارشال «فون كلوغي»، القائد الأعلى لجبهة الغرب، قد اختفى! كان قد أمضى ليله في «مول» في ١٤، في جوار «فيموتييه»، مركز قيادة «ديرتش» ؛ وعاد إلى الرحيل في الساعة ٥،٣٠ من صبيحة اليوم التالي، باتّجاه «نيسي»، في جوار «فاليز»، مركز قيادة «إيرباخ». ولكنّه لم يصل؛ وأمّا النداءات التي وُجّهت للشاحنة—الإذاعة التي ترافقه فقد لقيت أذناً صمّاء. وقد جرى البحث عنه في أنحاء الجيب كلّها، ولكنْ من غير جدوى.

ولم يتردّد «هتلر» في تعليل هذا الاختفاء: «فكلوغي»، الذي كان متورّطاً في مؤامرة ٢٠ تمّوز، والذي علم أنّ أمره قد افتضح، وأنّه هالك لا محالة ، قد انتقل إلى صفوف العدوّ! لقد ذهب إلى جيب «فاليز» للاستسلام على الأقلّ، أو للتفاوض في أمر استسلام جيشه على الأرجح .

وفي مستهلّ فترة ما بعد الظهر رفض «هتلر» أن ينتظر أكثر ممّا فعل. فأمر الجنرال «هاوسر» بأن يتسلّم موقّتاً قيادة مجموعة الجيوش «ب»، وراح يبحث عن رجل قادر على قمع خيانة «فون كلوغي» في مهدها. وبعدما تردّد في الاختيار بين «كيسلرنغ» و«مودل»، اختار الثاني واستدعاه إلى «رستنبورغ» للحال .

وعاد المختفي إلى الظهور في الواحدة صباحاً! كانت الطائرات الحليفة قد أحرقت سيّارته ، وأتلفت الشاحنة—الإذاعة ، وقتلت رفقاء رحلته أو أصابتهم بجروح . وكان قد أمضى يومه مختبئاً في حقل قمح، وقد كُتب عليه أن يلوذ بالجمود الذي يشلّ قوّاته خلال الساعات النهاريّة. وعند الغسق لم يجد سيّارة إلاّ بعد عناء كثير، ومن ثمّ بقي في الطريق ساعات قبل أن يبلغ «نيسي» حيث وصل ذليلاً ، رثّ الثياب، مرهَقاً. وكان ترحيبُ «رستنبورغ» به برقيّة تمنعه من العودة إلى الجيب، وتأمره بإدارة المعركة من مركز قيادة «ديرتش» تحت رقابة نازيّ عليا !

وأطاع «كلوغي» الأوامر، فعاد إلى «مول». وقد مكّنته المغامرة التي خاضها من أن يرسم «لجودل» لوحة حسيّة لإحدى الليالي في مؤخّرات جبهة «نورماندیا»: الطرقات التي اكتظّت بجموع غفيرة؛ الأرتال المتقاطعة التي تشلّ الحركة؛ عرقلة السير أمام الجسور المدمّرة؛ المدفعيّة وهي ترهق وتدمي المفارق؛ هدير الطيران العدوّ المتواصل ؛ السيّارات المشتعلة التي تستنزل قنابل جديدة بسبب النيران المندلعة فيها ... وكان «جودل» يصغي إلى هذا الوصف بشيء من الارتياب؛ ولكنّه لم يُعلم مخاطبه باستبداله الوشيك، واكتفى بإعلامه بأنّ الفوهرر سوف يسمح ولا ريب بإجلاء جيب «فاليز» .

كان الكنديّون في «فاليز». وأمّا البولونيّون ففي «ترون». وكان

الإنكليز يجتاحون وادي «الأورن». وفي «بروتانيا» كان الأميركيّون يُجهزون على «سان–مالو» حيث نقض «فون أولوك» عهده، فرفع العلم الأبيض على القلعة! وفي اتّجاه «باريس» استولوا على «درو»، وعلى «اللوار» استولوا على «أورليان». وفي «نورماندیا» راحوا يضغطون على قعر الجيب. فبات جليّاً أنّ كلّ شيء كان ينهار، وأنّ النهاية قد أقبلت...

وفي الواقع كانت إحدى أكبر فرص الحرب قد فاتت الحلفاء. فمن جملة قطاعات معركة «فرنسا» كافّة، بقي واحد هامدَ الأنفاس، وهو أكثر القطاعات أهميّة، ألا وهو قطاع «أرجنتان». لم يكن الفيلق الأميركيّ ١٥ قد جاوز الخطّ الذي بلغه في ١٣ آب. وكانت اثنتان من فرقه، الفرقة المدرّعة ٥ والفرقة ٧٩، قد سُحبتا من القتال وأُرسلتا إلى المنطقة الباريسيّة. وأمّا شعبة الكلاّبة التي كانت تُغلق جيب «فاليز» فقد توقّفت من تلقاء نفسها. وأمّا تطويق الجيش السابع، والجيش المصفّح الخامس، فقد بقي منقوصاً بعدما بوشر به بصورة محكَمة. فالأميركيّون يتشتّتون بسبب جولاتهم الميكانيكيّة الرحبة، بدلاً من أن يركّزوا اهتمامهم على الشيء الوحيد الذي يُعتبر في الحرب ذا أهميّة: ألا وهو إفناء العدوّ!

لقد كان «برادلي» هو المسؤول عن هذا الخطإ. وقد أقرّ بذلك إذ قال: «لقد كان القرار قراري أنا دون سواي... «فمنذ ١٣ كان «هايسليب» قد طلب الإذن بمتابعة تقدّمه، وبالخروج من منطقة مجموعة الجيوش ١٢ لاحتلال «أرجنتان»، ولكي يمدّ يده إلى الجيش الكنديّ الأوّل باتّجاه «فاليز». ولكي يُحكم من ثمّ إغلاق الدائرة حول العدوّ. وقد وافق «باتون» بحماسة، إلاّ أنّ «برادلي» تدخّل ممانعاً؛ قال في ذلك: «لقد كانت تعليماتي صارمة لدرجة أنّ «باتون» قد استدعى قوّات «هايسليب» من غير أن ينبس بكلمة...» وأمّا «مونتغومري»، القائد الأعلى لمسرح العمليّات. فلم يستعلم عن شيء، ولم يأمر بشيء. وأمّا «أيزنهاور» فقد كان غارقاً في أوساطه الرفيعة العالية، فلم يأبه للتدخّل في شؤون فيلق بسيط! وبقي «برادلي» هو الحكم المطلق. قال: «كنت شديد الرضى لكوني قد بلغت هدفي، وقد أنفقت أن أحدّد لي هدفاً سواه.» إنّ الرجال ذوي المخيّلات العاديّة لا يصبحون على الإطلاق جنوداً عظاماً. فالهدف، في نظر «عمر برادلي»، كان خطّ «تينشبري–ران–سيس–مولان لامارش»، فيما كان متوقّعاً أن تقوم في «نورماندیا» «ستالينغراد» ثانية. وذلك بأسر جيشين ألمانيّين، وبتعجيل أجل الحرب بأن تُسدّد إلى العدوّ ضربة ماديّة ومعنويّة قاضية.

لم يكن «كلوغي» عالماً بالمهلة التي مُنحها. وبعدما تأكّله القلق الشديد، أمر بالجلاء عن الجيب من غير أن يحصل على إذن «هتلر». بدأ التراجع في ليل ١٦–١٧، وكان لزاماً التخلّي عن السيّارات بسبب انعدام الوقود. كانت المسيرة بطيئة في الظلمة، عبر الطرقات المتضرّرة التي اكتظّت بالحطام. وطلع الفجر يشهد أرتال الجيش السابع الطويلة، التي تجرّها الخيل، مجمّدة غربيّ «الأورن»، أمام جسر «بوتانج» وهو ممرّ النهر الأوحد. واختلق «كلوغي» تمويهاً، فنقل اهتمام العدوّ إلى نقطة أخرى، وذلك بأن أمر بشنّ هجوم على «بور–سان–ليونار» على مدخل الجيب. وقامت فرقة المصفّحات الصاعقة ٢ بتدعيم ممرّ التسلّل بطردها فرقة المشاة الأميركيّة ٩٠ من القمّة التي تسيطر على ممرّ «الديف» في «شامبوا». وخلال النهار تمكّنت ٤٥ قاذفة من طراز «هاينكل»، حُوّلت إلى طائرات نقل، من أن تُنزل في الجيب بعض الذخيرة وقليلاً من الوقود للدبّابات الأخيرة الباقية. وقام «كلوغي» حتى آخر لحظة بأعباء قيادته كجنديّ ماهر ذي خبرة.

ولكنّ ساعاته الباقية كانت معدودة. أتى «مودل» في صبيحة ١٧ يؤكّد قبول القيادة الحربيّة العليا بإخلاء جيب «فاليز»، حاملاً إلى «كلوغي» في الوقت نفسه رسالة جافية من «هتلر» جاء فيها: «لم تبقَ صالحاً للقيام بقيادة الغرب. أرجو أن تضع نفسك بتصرّفي».

واختلى «كلوغي» بنفسه لنصّ الجواب. وبعد ذلك تشاور بهدوء مع «بلومنتريت»، رئيس أركانه العامّة، وطلب أن تكون سيّارته جاهزة للساعة الخامسة، واستأذن خلفه بالانصراف بتأدّب. وقد استهلّ الرسالة التي تركها «لهتلر» على الوجه التالي: «عندما تبدأ بقراءة هذه السطور، لن أكون في عداد الأحياء...» وقد نفض فيها عن نفسه مسؤوليّة كارثة «نورماندیا»، متمنّياً «لمودل» أن يكون أسعد حظّاً منه. وأضافت الرسالة: «وأمّا إذا كان الأمر غير ذلك، وأمّا إذا لم تأتك الأسلحة الجديدة التي تبني عليها آمالاً كباراً بالانتصارات المتوقّعة، فعندئذ يجب عليك أيّها الفوهرر أن تضع حدّاً للحرب. فالشعب الألمانيّ قد تألّم فوق طاقته. وقد حان الوقت لشجب هذه الفظائع الرهيبة».

وفي صبيحة اليوم التالي أوقف المارشال «كلوغي» سيّارته عند مدخل «متز». وقد رآه السائق يضع كبسولة بين شفتيه، وما لبث أن حمله إلى المستشفى وهو في الرمق الأخير. فهذا الذي قد أفقد متآمري ٢٠ تمّوز سانحتهم الأخيرة، انتقل في تلك اللحظة ينضمّ إليهم في عالم الآخرة.

وفي الجانب الحليف تنبّه المسؤولون إلى خطإ «برادلي» وعزموا على إغلاق الجيب. وانطلق الجيش الكنديّ الأوّل يهاجم باتّجاه «سان–لامبير». وجهّز الأميركيّون فيلقاً موقّتاً شنّ هجومه من «بور–سان–ليونار» باتّجاه «شامبوا». كانت المقاومة ما تزال ذات شأن، ولذا لم يكن الوصل قد تمّ بعدُ عشيّة ١٨. وقد تمكّن حشد من الأعداء من الفرار باجتياز «الديف» بين «ترون» و«شامبوا». وعادت العمليّات فنشطت في ١٩، فإذا بالأحراج تتلظّى بعدما أحرقتها قذائف الفوسفور. فهذه المنطقة النورمانديّة الرائعة، أرض مرابض الخيل، وأرض القصور، قد دُفنت تحت غشاء عفِن من الدخان الآسن الممتزج بالغبار والمطر. وغاصت الطرقات تحت كميّة هائلة من الحطام، واستحالت القرى مواضع هول طغت فيها على رائحة الحريق والنتانة البشريّة رائحةٌ هي من أرهب روائح الطبيعة: رائحة الخيل في طور تحلّلها. وراح الألمان يقاتلون بضراوة. وعند العصر تمكّنت الفرقة البولونيّة المصفّحة الأولى من طردهم من جبل «أورميل»، وهو دعامة محرّجة ضخمة كانت تبقي طريق التسلّل مفتوحة. ولحقت بهم فرقة المشاة الأميركيّة ٣١٧ قادمة من «شامبوا»، بعدما أخلت جرّارتها الطرقات بإزالتها الركام والجثث في خليط فوضويّ. وبذلك يكون الجيب قد أُغلق. ولكنّ إغلاقه تأخّر عن الموعد الضروريّ خمسة أيّام! فأكثر من نصف الرجال الذين كانوا فيه، ويبلغ عددهم ١٢٠،٠٠٠، قد تمكّنوا من الخروج منه. وهكذا فاتت الحلفاءَ سانحة النصر الباهر التي كان يمكن أن يوفّرها استسلام جيشين ألمانيّين بلا قيد ولا شرط!

على الرغم من ذلك كانت الفريسة دسمة؛ فالجيب، الذي لم يبقَ جيب «فاليز»، كان بمثابة مثلّث يبلغ طوله نحواً من عشرة كيلومترات. بين خطّ «كين» الحديديّ و«الديف»، ويبلغ عرضه نحواً من ١٢ كيلومتراً بين خطّ «نيسي–كروي» وخطّ «أرجنتان–شامبوا». وقد تكدّس فيه أكثر من ٥٠،٠٠٠ ألمانيّ، أكثرهم من النهّابين المستسلمين، الذين لا يتوقون إلاّ إلى الأسر. فأركانُ جيش عامّة، وأركانٌ عامّة لمجموعة مصفّحة، وأربع أركان فيالق عامّة، ونحو من عشرة أركان فرق عامّة، كانت هنالك سهلة المأخذ، ولكنّ المعركة لم تكن منظّمة، فما كان من البولونيّين، الذين تُركوا لأمرهم على جبل «أورميل»، إلاّ أن فقدوا الاتّصال مع الكنديّين، وانهمر المطر؛ ولم يعد

الطيران إلى الظهور. وتراخى المجهود البريّ نفسه. فالجيب الذي أتى إغلاقه متأخّراً قد أغلق بصورة سيّئة. وقد قرّر القادة الحازمون الذين أسروا فيه إعادة فتحه !

في ليل ١٩–٢٠ ألّف «أوجين ميندل»، قائدُ فيلق المظليّين الألمانيّ الثاني، رتلين، وأصدر إليهما أمراً بالتحرّك بالصمت التامّ. وأمّا «هاوسر»، قائد الجيش السابع، فقد انضمّ إلى أحد هذين الرتلين ورشّاشه معلّق إلى عنقه. وتمّ اجتياز «الديف»، بالقرب من «سان–لامبير»، عند قدم تلّة ارتسمت فوقها مصفّحات العدوّ. وما إن اكتشف «ميندل» أنّ العدوّ يحتلّ جبل «أورميل»، حتّى التفّ من حوله حتّى بلغ «كودهار» بالقرب من دسكرة «كاماميير» الشهيرة. والتقى «هاوسر»، الذي كان قد فقد إحدى عينيه أمام «موسكو»، والذي أُصيب لتوّه برصاصة هشّمت فكّه. وكان الدم يسيل منه. جلس القائدان في حفرة من الحفر التي أحدثتها القذائف وراحا يرتجلان هجوماً لإعادة فتح الجيب بواسطة فرقتي المصفّحات الصاعقتين ٢ و٩. وهما تضمّان ٢٠ دبّابة فحسب! وبعد ذلك حمّل «ميندل» شاحناته بالجرحى بمن فيهم «هاوسر»، وغطّاها بالصلبان الحمراء، ثمّ أطلقها في وضح النهار على طريق «فيموتييه». فتوقّف إطلاق النار برهة ريثما تمرّ بسلام.

وتمكّن قوّاد كبار من النجاة من الجيب بظروف «ميندل» عينها. وهم: «ماهلمان» قائدُ فرقة المشاة ٣٥٣، و«فون لوتفيتز»، قائد فرقة المصفّحات ٢، و«ميير»، قائد الفرقة المصفّحة الصاعقة ١٢، وغيرهم. وبدلاً من أن يجني الحلفاء قطافهم المثمر لم يتمكّنوا إلاّ من أسر جنرالات ثلاثة، منهم «فون إلفلدت» خليفة «فون شولتتز» على رأس الفيلق ٨٤.

لقد أدّى هجوم «ميندل» المعاكس شماليّ جبل «أورميل» إلى إعادة فتح منفذ. واجتاز بضعة آلاف من الرجال، وكذلك بعض الآليّات، «الديف» على جسر «سان–لامبير» الذي بقي صالحاً للاستعمال، وتمكّنوا من النجاة في ليل ٢٠–٢١. وكانت سيول المطر العارمة تزيد من دياجير الظلمة. وتمركز «ميندل» في زاوية حرج «كودهار»، عند أقدام جبل «أورميل» الذي كان البولونيّون يرقدون فوقه وقد أصابهم العياء. وكان رجال «ميندل» يرقدون هم أيضاً بمن فيهم المراقبون المرهقون. ولكنّ الجنرال بقي واقفاً على قدميه؛ وراح يوجّه بنفسه نحو «فيموتييه» مجموعات الرجال التي كانت تنبثق بهدوء من غمرة الليل والمطر. وقبل الفجر بساعة واحدة صرّح الناجون من كتيبة للرماة بأنّه لم يبقَ هنالك أحد في أعقابهم. فأيقظ «ميندل» رجاله، وأمرهم بالانصراف، وعاد إلى الانتظار حتى الخامسة تماماً، ثمّ انصرف بدوره ماشياً، وهو يكاد يكون وحيداً. وتضاعف عصف المطر. أمّا معركة «نورمانديا» فقد انتهت.

نهاية "فيشي"

كان بوسع هزيمة «نورمانديا» الألمانيّة أن تكون أشمل وألمع وأبهر، إلاّ أنّها كانت، في أيّة حال، حاسمة؛ فلقد فقد الجيش الألمانيّ معركة «فرنسا»، بل «فرنسا» ذاتها، بشكل نهائيّ.

كثيرون هم الذين خرجوا من جيب «فاليز»؛ غير أنّ مَن بقوا منهم فيه. بين قتلى وأسرى، يشكّلون نخبة المحاربين، أمّا الجيشان اللذان كانا فيه فقد دُمّرا عملياً؛ وأمّا فرق الدبّابات التي حملت عبء القتال الأثقل فقد أمست أثراً بعد عين. فلم يبقَ من الفرقة ١١٦ سوى ٥٠٠ رجل، ومن الصاعقة ٢ سوى ٤٥٠، ومن الصاعقة ١٢ سوى ٣٠٠، وهلمّ جرّاً. أمّا الفرقتان ١ والصاعقة ١٠ فلم يبقَ لهما دبّابة واحدة.

ومع هذا ما فتئت وحدات النخبة هذه صامدة، فيما تفكّكت الأخرى، وراح قطيع من البشر ينساب على جسر من جسور «روان» وقد رُمّم قسمٌ منه، فيما مضت جماعات من الجنود تجتاز نهر «السين» في كلّ ما يطفو، وحتّى في براميل عصير التفّاح المبقورة؛ ونشبت معارك دامية حول المراكب القليلة النادرة. هذا، ورجال الدرك الألمان يوجّهون الفراريّين نحو منطقة «أميان» حيث أُعيد جمعُ شملهم وتسليمهم.

وما لبثت المؤخّرات أن ارتحلت، فبدأ الجلاء عن «باريس»، وانكمشت أركان «سان جرمان» و«لاروش–غويون» على نفسها تحت إسمنت «مرجيفال». ولم يبقَ «مودل»، الذي كان «هتلر» يتوقّع منه أن يجترح معجزة، سوى قائد مرهق يئنّ من جراحه الكثيرة التي ما كان ليحسّ بها في حمّى الانتصار. فحلّ الجيش السابع، وصهر حطامَه في الجيش الخامس المصفّح الذي أعاده إلى «إيرباخ»، وأمره، بناءً لتوجيهات «هتلر»، بأن يتمسّك «بتوك» عن طريق «تروفيل–ليزيو–غاسي». ولكنّه نبّه «قيادة الجيش العليا» إلى أنّ كلّ أمل بالمقاومة جنوبيّ «السين» قد تلاشى؛ ورغبة منهُ في تحاشي الانهيار الشامل، طلب ٣٠ فرقة جديدة تكون ٩ منها مصفّحة. ولم يكن سحبها ممكناً إلاّ من الجبهة الروسيّة، و«مودل»، العائد من هناك، أدرى الناس باستحالة سحب كتيبة واحدة.

كان على الجيش المصفّح الخامس أن يلتحم بالجيش الأوّل المكلّف بحماية المنطقة الباريسيّة، بتمركزه بين «درو» و«أورليان». هذا على أن ينبسط الجيش الأوّل في ما بعد على «الإيون» ليتّصل بالجيش التاسع عشر المتراجع من الساحل المتوسّطيّ. وهكذا يتمّ بناء جبهة متماسكة تحمي مواقع إطلاق القنابل الطائرة من «الهافر» إلى «بيزانسون».

كان الجيش الأوّل، الخاضع لقيادة جنرال المشاة «كورت فون درشيفالري»، يحتلّ شاطئ الأطلسيّ من «اللوار» إلى «البيرينيه»، وكان عليه بالتالي أن يتراجع عبر القسم الأكبر من «فرنسا» ليقوم بالدور الستراتيجيّ الذي أُنتُدب له. بيد أنّه كان عاجزاً! فكلّ من فيلقيه يتألّف من فرقة واحدة من الأجناد الثابتة التي يبلغ اختلاط العناصر والألوان فيها حدّ الاشتمال على فوج هنديّ (هو الفوج ٩٥٠) جنّد أفرادَه العميدُ «شاندرا بوز». صدر في ١٦ آب أمرٌ يقضي بانسحاب التشكيلات غير المقاتلة إلى شرقيّ خطّ يمتدّ من «أورليان» إلى «كليرمون فرّان»، فقُدّف إلى الطرقات بـ ١٠٠،٠٠٠ رجل وامرأة من الجيش الألمانيّ ليس لهم من وسائل النقل، اجمالاً، إلاّ أقدامهم. وتحرّكت تشكيلات المحاربين بعد ذلك بيومين للحاق بالأولى، باستثناء الحاميات التي تُركت في الموانئ. ولكنّ قطع الطرقات، وهدم الجسور، وهجمات رجال المقاومة المتتالية، جعلت السير بطيئاً للغاية.

حلّ ٢٨ آب. وقد انقضى أسبوع على بدء التراجع. فإذا القسم

رتل مصفّح يجتاز «أرجنتان».

المارشال «بيتان» يغادر «فيشي».

الأكبر من الفيلق ٦٤، القادم من ناحية «الروشيل». لم يجتز بعد «بواتييه». كانت «أورليان» قد عيّنت كنقطة للالتقاء العام. إلاّ أنّ الأميركيّين سبقوا الألمان إليها. فلم يبقَ لهؤلاء إلاّ أن يتابعوا السير نحو الشرق للقاء الجيش التاسع عشر.

ما ابتعد الجنود الألمان حتى انعتق جنوبيّ غربيّ «فرنسا» ووسطها تلقائياً. وتشمل المنطقتان ما يُقدّر بثلاثين محافظة تقريباً. تغطّي ٥ مناطق من ١٢ منطقة عسكريّة حاولت هيئة أركان الجنرال «كونيغ» أن تحدّد بواسطتها معالمَ تلك الكتلة المبهمة التي تشمل القوّات الفرنسيّة الداخليّة. وهي: ب (بوردو). ر٣ (مونبولييه). ر٤ (تولوز). ر٥ (ليموج). ر٦ (كليرمون فرّان). فخرجت السلطات الثوريّة، التي شكّلت في المقاومة السريّة، إلى النور بضجيج وجلبة. كانت مدينة «الجزائر» قد عيّنت مفوّضين للجمهوريّة. ومحافظين ونوّاب محافظين. إلاّ أنّ المؤثّرات الشيوعيّة أو الفوضويّة هي التي تغلّبت في عدّة مقاطعات. وكاد يرافق التحريرَ في كلّ مكان استيلاءٌ ثوريّ على السلطة. ولا ريب في أنّ مؤرّخاً يعمد إلى أساليب «تين» في وصف سريرة الثورة الفرنسيّة وأسرارها. سيحيي تلك الحقبة الغريبة الرهيبة في غضون سنوات. أمّا الآن فذلك غير ممكن. وكلّ الذين حاولوا بحث الموضوع قد أخفقوا؛ فوثائق تلك الفوضى العفويّة الجديدة، وملفّات فترة الرعب تلك، ما تزال دفينة سرّ رهيب. ولم يستطع أحد حتى الآن أن يُحصي، ولو بصورة تقريبيّة، عدد الأفراد الذين أُعدموا بشكل اعتباطيّ، أو بالاستناد إلى عدالة مزوّرة. ولاشكّ في أنّ جرائم شنيعة قد ارتُكبت بالجملة، ليس لها من التبرير إلاّ أنّها انتقام لجرائم حيوانيّة فاجرة مماثلة ارتكبها الغستابو ورجال الشرطة الفرنسيّة وبعض وحدات الفرق الصاعقة. وكان لا بدّ من انقضاء بضعة أشهر قبل أن تستقرّ السلطة في المحافظات الجنوبيّة. فتُسلَّم قمعُ أعمال التعاون مع العدوّ إلى المحاكم النظاميّة وحدها.

كانت «فيشي» تقع على حدود مقاطعة «أوفرن» للمقاومة السريّة. فخشيت السلطة المحتلّة انقضاض رجال المقاومة عليها واختطاف المارشال «بيتان». ولذا نُقل العجوز في ٧ أيّار، في موكب ألمانيّ ضخم، إلى قصر «فوازان» بالقرب من «رانبوييه». وما انقضى أسبوعان حتى غيّر الألمان رأيهم فقرّروا، متذرّعين بنزول وشيك شماليّ «فرنسا»، أن يعيدوا مَن لا يزال يُدعى رئيس الدولة الفرنسيّة إلى عاصمته، مدينة المياه المعدنيّة. فأصرّ «بيتان» على أن يعود عن طريق «نانسي»، «إيبينال»، «ديجون»، «ليون»، «سانت-إتيان»، حيث استُقبل بالهتاف والتصفيق كما استُقبل في الشهر الفائت لدى زيارة قام بها إلى «باريس» و«روان»، ممّا زاده اعتقاداً بأنّه ما انفكّ يجسّد الشرعيّة محتفظاً بمحبّة الشعب الفرنسيّ، وشجّعه على توجيه رسالة إلى «ديغول» يعرض فيها عليه أن يقاسمه السلطة خلال بضعة أشهر. حتى إذا انقضت الفترة الانتقاليّة. انسحب هو من الحكم لينهي أيّامه في خلوة هادئة. غير أنّ هذا الاثر الساذج لم يلقَ أيّ جواب قط.

إنقضى حزيران وتموز بسلام. ووسمت الأسلاك الشائكة، التي أحدقت بفندق «بارك»، مدينةَ «فيشي» بطابع الحكم العرفيّ، إلاّ أنّ الطمأنينة الخارجيّة لم تعكّر؛ فالمآسي الفرنسيّة تجري في أماكن أخرى: في «نورماندیا» المنكوبة، في «الفيركور» حيث سالت دماء رجال المقاومة. في «أورادور-سور-غلان» حيث أبادت فرقة «الرايخ» السكّان كلّهم. أو على قارعة الطريق حيث اغتال رجال الشرطة «جورج ماندل» ثأراً لاغتيال وزير الأنباء «فيليب هنريو». كانت «فرنسا» منذ ١٩٤٠ قد سلمت من الزوبعة التي عصفت بالعالم، وإذا بالحرب تضاعف فجأة طرقَ جلدها وتعذيبها؛ ولكنّ مدينة المياه المعدنيّة التي جعلت منها

النكبةُ رأس «فرنسا» السياسيّ بقيت واحة هدوء وسلام.

في ٨ آب غادر «لافال» «فيشي» خفيةً؛ وفي ١٢ انتقل من «باريس» إلى «نانسي». حيث كان «إدوار هيريو»، رئيس مجلس النواب. قد تظاهر بمسّ من الجنون لطيف، وفرّ لهسبيل اللجوء إلى مستشفى الأمراض العقليّة؛ فإذا بلقاء السياسيّين العريقَين يتمّ بالدموع. كانت خطّة «لافال» تقضي بدعوة مجلس ١٩٤٠ الوطنيّ كيما يستقبل به الحلفاءَ ويفاوض «ديغول». وعلى غرار «بيتان»، كان ينوي الانسحاب: أو الهجرة إذا لزم الأمر، بعد أن يثبّت أركان الشرعيّة الجمهوريّة. غير أنّه، على نقيض المارشال، ما كان يفكّر إلاّ بالاعتزال المؤقّت.

أخفقت المحاولة إخفاقاً ذريعاً. فأبدى «هيريو». وقد أُعيد إلى «باريس»، الكثير من التحفّظ والتخوّف، بعد النشوة العاطفيّة التي أثارها خلاص «فرنسا». فعمد الهتلريّون، وليس ما يدعوهم إلى إعداد مستقبل «فرنسا»، إلى توقيف رئيس المجلس، وأعادوه إلى الأسر في ضواحي «برلين». ثم أرغموا «لافال» على نقل حكومته إلى «بلفور»؛ فرفض «لافال» معلناً أنّه سينتظر الحلفاء في فندق «ماتينيون»، فأتى الردّ عليه بالقوّة والإكراه؛ وفي الساعة ٢٣ من ١٧ آب مضت به قافلة من الغستابو باتّجاه الشرق. فقال وهو يستقلّ السيّارة: «ما أنا غير أسير ...»

وبعد ثلاثة أيّام أتى دور «بيتان». ففي الساعة ٧ من يوم ٢٠ آب حطّم جنديّ ألمانيّ باب غرفة نومه بقضيب من حديد. كان رجال الحرس في مدخل فندق «بارك» مزوّدين برشّاشات محشوّة، وبصناديق من القنابل اليدويّة مفتوحة، ولكنّ «بيتان» منعهم من اللجوء إلى مقاومة ميؤوسة؛ فخرج منتصب القامة، شاحب اللون، بحضور السفير البابويّ، والوزير السويسريّ المفوّض، اللذين كان قد استدعاهما ليسلّمهما احتجاجاً على عمليّة الخطف التي يتعرّض لها. وحين تحرّك رتل السيّارات الألمانيّة الذاهبة بالمارشال «فيليب بيتان» وقرينته، تحت رذاذ أغبر، أنشدت جماعة صغيرة من المخلصين نشيد «المارسيلياز». أمّا عهد «فيشي» العاصمة فقد انقضى.

"تولون"، "مارسيليا" "مونتيليمار"، "ليون"

في «بروفانسا» كانت العمليّات الحليفة تسير بسرعة لم تكن بالحسبان. وقد أُخضعت أوكار المقاومة الساحليّة بشدّة. ومنذ العشيّة الأولى تمّ الاتّصال بين القوّات التي نزلت من البحر والقوّات الهابطة بالمظلاّت. وجرى اعتقال الجنرال الألمانيّ «نويلنغ» في «دراغينيان» مع أركانه العامّة، وهو قائد فيلق الاحتياط ٦٢. وانطلقت مفرزة مصفّحة

باتّجاه «غرونوبل». عبر طريق «نابوليون». واستولت فرقة المشاة الأميركيّة ٣ على «برينيول»، ثمّ توجّهت شطر «إيكس». وبلغت الفرقة ٤٥ وادي «الدورانس» الأسفل، ويمّمت شطر «أفينيون». ولحقت الفرقة ٣٦ بالمفرزة المصفّحة. وراحت القيادة الألمانيّة تستغيث مستدعية قوّتها الوحيدة القادرة على ضفّة «الرون» اليسرى، وهي الفرقة المصفّحة ١١. ولكنّ الجسور قد دُمّرت جميعها، فبات عبور الدبّابات بمراكب مرتجلة بطيئاً جدّاً. لم يكن يداعب الجيش الألمانيّ أيّ أمل في صدّ الغزو الجديد، أو على الأقلّ في كبحه، فاقترح التخلّي عن القتال والجلاء الفوريّ عن جنوبيّ «فرنسا».

في ١٧ أذعن «هتلر» لهذا التخلّي القاسي. فإلى جناح الجيش ١٩ الأيسر سوف ينسحب حطام الفيلق ٦٢ إلى «إيطاليا» حيث ينضمّ إلى قوّات المارشال «كيسلرنغ». وكان على الفيلقين الآخرين، فيلق الطيران الرابع، والفيلق ٨٥، أن يتراجعا، الأوّل عبر الضفّة اليمنى، والآخر عبر ضفّة «الرون» اليسرى. كان وضعهما خطيراً: فالخطوط الحديديّة مقطوعة، ولم تبقَ «السيفين» و«الألب» غير أعشاش للمقاومة. وفي صفوف الأرتال المتراجعة كان عدد الرجال غير المقاتلين ثلاثة أضعاف المقاتلين، إذ لم يكن ثمّة جيش واحد يضمّ نسبة من الجنود المُبعَدين ومن الطفيليّين كنسبة قوّات الاحتلال الألمانيّة هذه. وهكذا، فلو أنّك نظرت إلى الطرق التي غشّتها حشود غفيرة لرأيت رتلاً من المساعدين التونكينيّين الذين انتقلوا إلى خدمة «ألمانيا» بعد ما استُدعوا لمحاربتها! وكان هنالك خطران يُحيقان بتلك الجماعة: الطيران وتقدّم الأميركيّين السريع في «الألب»؛ فقد كان بميسورهم أن يعترضوا الجيش ١٩ بعد اجتيازهم أودية «الإيغ» و«الدروم» و«الإيزير»، وانعطافهم باتّجاه «الرون». وعندما قام «بلاسكوفتز»، قائد المجموعة «ج»، بتبليغ الجيش ١٩ قراراً الفوهرر، أضاف قائلاً: «حاولوا بلوغ منطقة «شالون—سور—سون». إنّها قضيّة ساعات. هذا، وإنّكم لن تتلقّوا أيّ أمر آخر بعد الآن.»

لقد استُثنيت حاميتا «تولون» و«مرسيليا» من أمر التراجع، إذ كان عليهما، حسب الكلام المفخّم المألوف، أن تدافعا حتى آخر طلقة عن القلاع التي كلّفها الفوهرر بها. ولكنّ القوّات لم تكن جديرة بالقيام بمثل هذه المهمّة. فقد كانت تحمي «تولون» فرقة الموقع ٢٤٢، بإمرة الجنرال «باسلر»؛ وكانت الفرقة ٢٤٤، بإمرة الجنرال «شافر»، هي التي تؤمّن حماية «مارسيليا». وكانت هاتان الفرقتان وحدتين كبيرتين من النسق الثاني تضمّان كتائب شرقيّة عديدة، ونسبة قويّة من الرجال المسنّين والمُعاقين. فهي، بكونها عاجزة عن القيام بأيّ تحرّك تكتيكيّ. وبالتالي بأيّ دفاع مَرِن، لم تكن قادرة إلاّ على بسط ستار بشريّ رقيق حول دائرة المدينتين الكبيرتين الشاسعة.

هذا وقد جُعل غزو «تولون» و«مرسيليا» من نصيب القوّات الفرنسيّة. يا لها من مهمّة مقيتة! فقد كان من شأنها أن تبقي على الساحل فرقَ الجنرال «دي لاتر»، فيما كانت القوّات الأميركيّة تحرّر قطعاً واسعة من الأرض الفرنسيّة. كان الاستيلاء على «تولون» والاستيلاء على «مرسيليا» قد حُدّدا لـ ٥ و ٢٥ أيلول على التوالي. وبوجه الإجمال كان سياق العمليّة قد نُسّق على نمط وقور بطيء. ولم يكن متوقّعاً بلوغ «ليون» قبل ١٥ تشرين الثاني. ويعود السبب في وضع هذا التقويم إلى المبالغة الهائلة في تقدير قوّات العدوّ.

إلاّ أنّ الأميركيّين قد تحرّروا من قيود هذه التواريخ، فتمّ اجتياز «الدورانس» في «أوريزون» في ١٩ آب، فيما لم يكن متوقّعاً عبوره إلاّ في ٣٠ أيلول. وقد بات لزاماً على «دي لاتر»، والحالة هذه، أن يعجّل هو الآخر في إنجاز عملياته في «تولون» و«مرسيليا» كي تتمكّن القوّات الفرنسيّة من السير نحو «بورغون» و«الألزاس» في أسرع وقت ممكن. وأمّا «ألكسندر م. باتش»، قائد الجيش السابع الذي كان «دي لاتر» ما يزال متقيّداً بسلطته حتى إنشاء مجموعة الجيوش ٦، فقد قبل بذلك.

بدأ حصار «تولون» في ٢٠ آب، قبل أن ينجز النسق الثاني في الجيش الفرنسيّ عمليّات إنزاله. وكانت الجبال التي تحيط بالمدينة كثيرة الوعورة، فجعلت من المحاصرة سلسلة من التسلّق عبر ممرّات ضيّقة أو جدران تكسوها الأشواك. وفيما كانت الفرقة الفرنسيّة الخفيفة الأولى تخوض قتالاً عنيفاً في سبيل «هيير»، إلتفّت فرقة المشاة الجزائريّة حول المدينة، يقودها «مونسابير»، وبلغت البحر في «باندول» و«ساناري».

وبعدما تمّ تطويق المرفإ الحربيّ الكبير شُنّ الهجوم عليه من البحر والجوّ والبرّ. وقام أسطول فرنسيّ—أميركيّ قويّ، يضمّ «النيفادا» الهرمة و«اللورين» الأكثر هرماً، بقصف شبه جزيرة «سان—ماندرييه» وبطّاريّات رأس «سيسيي». وكان الحاكم الألمانيّ، الأميرال «روهفوس»، يعتزم سدّ المرفإ بأن يُغرق فيه البارجة «ستراسبورغ» والطرّاد «لاغاليسونيير» اللذين أُعيد تقويمهما بعد انتحارهما في ١٩٤٢؛ ولكنّ ٣٥ طائرة من طراز «ب—٢٥» حالت دون تحقيق هدفه بأن أغرقت هاتين العمارتين داخل المصنع البحريّ. وفي البرّ كان الألمان يقاومون بعصبيّة شديدة؛ كان القتال يدور في غمرة الحرّ الشديد، وتحت ضباب من الغبار كثيف، وسط أحراج الصنوبر الملتهبة. إلاّ أن نزول فرقة مشاة المستعمرات ٩ إلى خطّ النار، ونشاط المدفعيّة القويّة، لم يتركا للمدافعين أيّ أمل في الصمود. واستولى الفرنسيّون تسلّقاً على الحصون الثلاثة التي تسيطر على «تولون» وهي «لي كوم»، و«لوفارون»، و«لوكودون»، وتسلّلوا من ثمّ إلى المدينة من خلال خور «الداردين». وفي ٢ آب، وعلى الرغم من المقاومة المحليّة، سقطت المدينة في أيديهم.

كان المعقلُ هو شبه جزيرة «سان—ماندريي» مفتاح المرفأ. فالتجأ الأميرال «روهفوس» إليه. وانصبّت على شبه الجزيرة تسحقها ٧٨٥ طنّاً من القنابل، وأكثر من ٨،٥٠٠ قذيفة من القذائف البحريّة تتراوح عياراتها بين ١٣٨ و٣٤٠. فاستسلم «روهفوس» في ٢٨ آب. ومعه ١،٨٠٠ بحّار وجنديّ هم آخر المدافعين عن «تولون».

في ذلك التاريخ كانت «مرسيليا» قد غدت حرّة. كان الهجوم محدّداً لما بعد الاستيلاء على «تولون»، ولكنّ «مونسابير» راح يجوب المسافات من غير توقّف، وفي نيّته ألاّ يدع الأميركيّين «يحصلون بمفردهم، وفوق طرقات «فرنسا»، على قبلة الظفر المحرر». ومن عقدة طرقات «لوكان» راح يوجّه نحو «مرسيليا» قسماً من فرقة المشاة الجزائريّة ٣، ومجموعة من المشاة المغاربة، ومجموعة قتال من الفرقة المصفّحة الأولى. سقطت «أوبان» في ٢١، بعدما تدفّق عليها المهاجمون من الشمال والجنوب، وتمّ بلوغ ضاحية «سان—جوليان» في اليوم التالي. وانتاب القلق «دي لاتر» لدى مشاهدته حفنة الرجال تغوص في بحر من البيوت، فمنع موقّتاً اجتياز «الجاري»، وهو جدول يفصل «مرسيليا» عن ضواحيها؛ ولكنّ فيلق المشاة الأفريقي ٧، التابع للكولونيل «شابوي»، غاص في قلب الجموع. وفي الساعة ٨ من نهار ٢٣، خرج إلى جادّة «المادلين» التي قادته إلى «الكانوبيير». وفي الساعة العاشرة بلغ «المرفأ القديم»، شاطراً بذلك دفاع العدوّ شطرين. ودخل ضابط استعلامات «شابوي»، وهو «الكابتن» الراهب «كروسيا»، إلى مركز البريد، وبكلّ بساطة اتّصل هاتفيّاً بالجنرال «شافر» يدعوه إلى الاستسلام! وقبل الحاكم الألمانيّ بالاجتماع إلى «مونسابير» في حصن «سان—جان»، ولكنّه تصلّب حين أُبلغ أنّ ما يُطلب منه إنّما هو استسلام بلا قيد ولا شرط. فانفصمت الهدنة. وفي الساعة ١٩،١٥ عادت معركة «مرسيليا» إلى حالها.

لا يُستَبْعد أن تكون معركة «مرسيليا» هذه أكثر معارك الحرب بهاءً. فقد دارت رحاها وسط حشود من الناس طغى عليهم الهياج، كانوا ينتقلون من مرحلة الغفلة إلى طور الهلع الشديد. وكان ٥٠٠ من القوّات غير النظاميّة، أصبح عددهم ٢٠،٠٠٠ بعد النصر، يحاربون إلى جانب القوّات النظاميّة. وأمّا «مونسابير» فقد ارتدى بزّته التي كان يرتديها سنة ١٩٣٩، وأقام في مقرّ المحافظة، في شارع «سان-فيريول»، في بقعة من الأرض محايدة، وكان على الراغب في الوصول إليه أن يسير بين الرصاص سيراً متعرّجاً. وكانت «الكانوبيير»، بعد ما قصفها مدفع حصن «سان-نيكولا»، مثقلة بالقُطرُ المدمّرة التي تشابكت بأسلاكها الكهربائيّة. وقد تمّ اقتحام الهضبة وكاتدرائيّة «نوتردام-دي-لا-غارد» على مرأى من آلاف الفضوليّين.

في ٢٧ خُيِّل «لشافر» أنّه قد استهلك كلّ مورد للمقاومة لديه فاستسلم. بلغ عدد الأسرى ٣٧،٠٠٠، منهم ٧٠٠ ضابط، وهو عدد يبلغ ضعفي عدد أسرى «تولون». وما من شكّ في أنّ المعركة لم تكن لتنتهي بهذه السرعة لو أنّ الحامية كانت مشبعة بروح العصبيّة التي بشّر بها «هتلر».

وعلى بعد ١،٠٠٠ كلم من «بروفانسا» كان مرفأ آخر ينوء تحت الحصار هو «بريست»: ففي ٢٥ آب كان الفيلق الأميركيّ ٨ قد هاجم المعسكر المحصّن وهو يطمح إلى الاستيلاء عليه في غضون خمسة أيّام. وعلى الرغم من أنّ جنرال المظليّين «رامكي»، لم يستشهد تحت أنقاض المدينة، فقد أبدى حيال تفوّق العدوّ الماديّ حزماً رائعاً. ولم تسقط «بريست» إلاّ في ١٩ أيلول، وكانت سيّئة الحال لدرجة أنّ مرفأها لم يرجع صالحاً للاستعمال إلاّ بعد شهور من الترميم طويلة.

وفي وادي «الرون» كان مصير الجيش الألمانيّ ١٩ على كفّ عفريت. وكان رجال مقاومة «الألب» الممتازون قد جعلوا من المسيرة نحو «غرونوبل» والحدود الإيطاليّة أمراً سهلاً للغاية، ممّا مكّن الفيلق الأميركيّ ٦ من تركيز القسط الأوفر من قوّاته للإطباق على أرتال العدوّ التي كانت صاعدة نحو «ليون» بجهد وعناء.

في ٢٢ آب، قُطِع التراجع الألمانيّ شمالي «مونتيليمار». وكانت إحدى المفارز قد تقدّمت الفرقة ٣٦، فوصلت إلى الطريق رقم ٧، ورفعت مدفعيّتها إلى غابة «مارسان» التي تشرف على الوادي من مسافة ٥٠٠ متر تقريباً. يا لها من مناظر رائعة! كانت المنطقة بكاملها تنبسط أمام شدق المدافع الأميركيّة: ضفّتا «الرون»، و«الدروم» الذي يصبّ في النهر الكبير، والطريق وخطّ السكّة الحديديّة على الضفّة اليسرى اللذان يفترقان في سهل «لوريول» الصغير الخصب، ثمّ يعودان فيتّجهان معاً شطر قرية «كوكورد» ويجتازان من ثمّ الممرّ المسمّى «باب مونتيليمار» جنباً إلى جنب. لقد أُمسِك بالجيش ١٩ من خناقه. وقد بدا أنّه لا مفرّ البتّة من الاستسلام.

غير أنّ قوّاد القوّات الألمانيّة، وجزءاً منها، قد احتفظوا بالعزم. فقد صُدّت محاولات أميركيّة عدّة للاستيلاء على «مونتيليمار» من خلال وادي «روبيون». وبعدما دعّم «فيسي» هذه الركيزة جمع فرقة المصفّحات ١١ وفرقة المشاة ١٩٨ معاً ووضعهما تحت إمرة «فون فيترشايم»؛ وأصدر إليه أمراً بأن يعيد فتح طريق «ليون» مهما بلغ الثمن. كانت التحرّكات صعبة بصورة تفوق كلّ وصف، وكانت الاتّصالات تتصدّع في كلّ لحظة؛ وأمّا شاحنات الغازوجين القديمة فقد كانت الآليّات المتحرّكة الوحيدة لديهم، وكان على العناصر الذاهبة إلى الجبهة أن تشقّ سبيلها بالقوّة وسط الحشد اللاغط الذي كان يعرقل السير على الطريق رقم ٧. وقد شُنّ هجوم أوّل فثان فثالث فرابع خلال النهار والليل، بيد أنّها أخفقت جميعها. وقد ارتكبت القيادة الأميركيّة الخطأ نفسه الذي ارتكبته في «فاليز»: فهي لم تأخذ بزمام القتال كما يجب. وهي لم تكرّس قوّاتها كافّة لشدّ الحبل الذي طوّقت به عنق العدوّ. وبدلاً من أن يرسل «تراسكوت» في طلب الفرقة ٤٥، وكلّ من باستطاعته أن يقاتل، باتّجاه «مونتيليمار»، إذا به يسحب إحدى المفارز ويرسلها إلى وادي «الإيزير» في مهمّة استكشافيّة! فأضعف بذلك نفسه في المكان والزمان الحاسمين.

في الساعة ٨ من صبيحة ٢٦ أعلم «فيترشايم» رئيسه بأنّه قد تمّ استعادة «كوكورد» وأعيد فتح الطريق. كان التراجع قد بدأ ثانية منذ أمد قصير، فإذا بمياه «الدروم» تفيض فجأة، معطّلة المعبرَين الوحيدين موقّتاً؛ ولم يعد الفيلق ٨٥ إلى مسيرته إلاّ في ٢٧ ظهراً. وأمّا المدفعيّة الأميركيّة، التي كانت تطلق نيرانها بدقّة وسهولة من مرتفعات «مارسان»، فقد سدّدت إلى الرتل الألمانيّ ناراً رهيبة سحقت السيّارات، وفجّرت عربات المؤن وأبادت البهائم، ملقية فوق الطريق خليطاً عجيباً من الحديد الملتوي والأجساد المسحوقة. وأمّا التاريخ الأميركيّ فهو يصف ذلك بقوله: «لقد كان ذلك حلم رجال المدفعيّة». ولكنّ بعض ضبّاط الأركان العامّة الألمان الحازمين راحوا يعجّلون بالعبور، ويلقون في «الدروم» بقايا الجيش ١٩.

وإلى ما وراء ذلك كانت القوى الحليفة والألمانيّة تتّجه بكاملها نحو «ليون». وجعل «فيسي» فيلق الطيران الرابع يحتلّ وسط المدينة كيما يتمكّن الفيلق ٨٥ من اجتيازها من غير عناء. وكان الأميركيّون قادمين من «غرونوبل» و«فالانس»، وكان الفرنسيّون، الذين فرغوا من احتلال «مارسي» وعبور «الرون» في ظروف بهلوانيّة، قادمين من «سان إيتيان» وفجّ «أربريل». وقام مناضلو منطقة «را» الفرنسيّون، بقيادة الكولونيل

جيوش أميركيّة تنزل في أحد شواطئ «بروفانسا» يوم ١٥ آب.

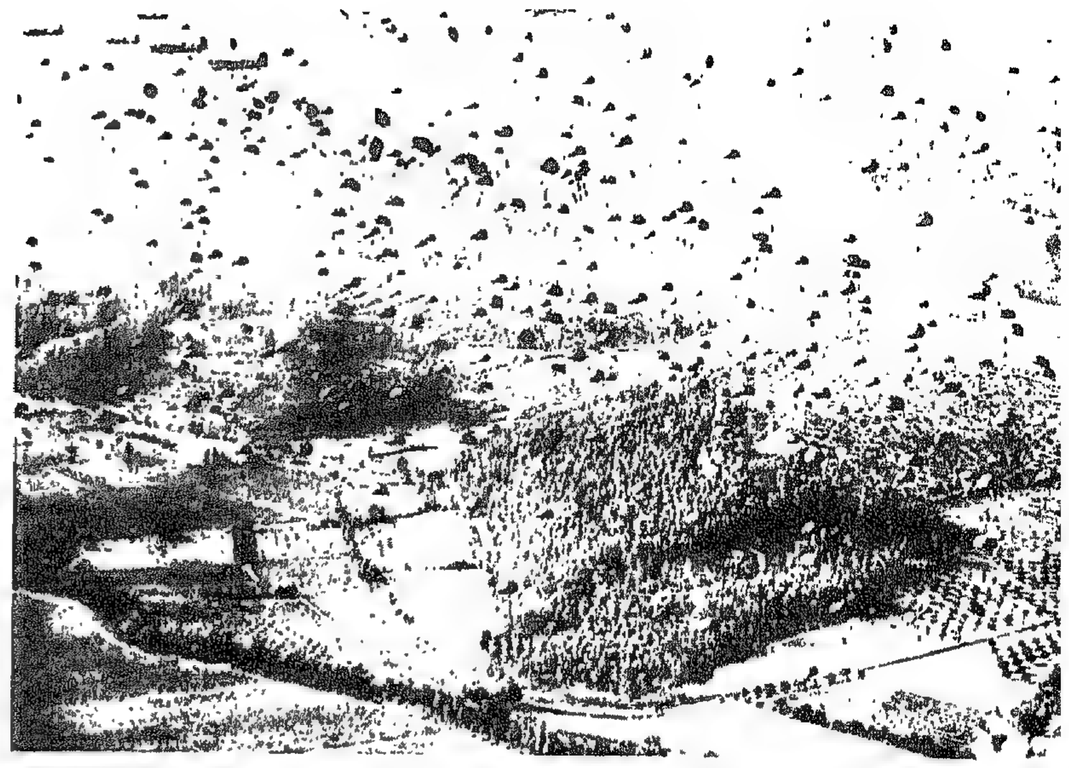

هبوط المظليّين بين «نيس» و «مرسيليا».

«ديكور». بالانتظام على كلتا ناحيتي المدينة في مجموعات ثلاث. وقد بدا من جديد أنّ مصير الجيش الألمانيّ ١٩ كان الأسر لا محالة. ولكنّه سوف ينجو مرّة أخرى نتيجة لافتقار التنسيق في صفوف مطارديه. وخلال ثلاثة أيّام راح حشد مرهق يجتاز «ليون» جارفاً مجموعات من الحرس في بزّات سوداء. يتجّه نحو «بور» عبر رصيف «السون». ولم تنشب الثورة في المدينة، وذلك بسبب انعدام التشجيع من قبل السلطات الفرنسيّة والحليفة. أكثر منه بسبب القمع الشرس الذي كان يعصف حتى آخر لحظة. وفي أوّل أيلول نضب دفق الهاربين. وفي ٢ أيلول من الفجر حتى المساء، وتحت المطر، قام عنصر هندسيّ صغير بنسف جسور «الرون» كافّة ومعظم جسور «السون»، وذلك من غير أن يعكّر صفوه أحد. ويوم الأحد في ٣ أيلول دخلت الفرقة الفرنسيّة الخفيفة إلى «ليون» وعلى رأسها الرماة البحريّون. ولكن من جملة ٢٠٩،٠٠٠ رجل خاضوا عمليّة التراجع، تمكّن «فيسي» من إنقاذ ١٣٠،٠٠٠ والسير بهم نحو ثغرة «بلفور».

في الحرّ والغبار وقف سكّان «مرسيليا» يرحّبون بقوّات الجنرال «دولاتر دو تاسيني». فلأجيال خلت ما عرفت «مرسيليا» حرباً مثيرة كتلك التي شهدتها بين ٢٣ و ٢٧ آب.

هل تلقى باريس مصيرَ "فرصوفيا"؟

أنتزعت مدينتا «فرنسا» الثانية والثالثة من العدوّ خلال أسبوع. إلاّ أنّ تحرير «باريس» قد سبق تحريرهما وكسفه.

والواقع أنّ انتظار هذا التحرير قد طال. كان بوسع أيّ من فيالق «باتون» الثلاثة أن يزحف عليها منذ مطلع آب. ولكنّ خطّة الغزو كانت قد وضعت ترتيباً آخر: كان على «باريس» أن تسقط. لا بهجوم مباشر. بل بتطويق. فقد صدقت القيادة الحليفة عن أنْ تزجّ بنفسها في متاهة المدينة. وخشيت ما قد تلحقه حرب الشوارع من أضرار بتراث فنّي لا مثيل له. هذا فضلاً عن أنّ مصالح التموين والنقل العسكريّة قد حسبت. في نظرة أكثر واقعيّة. أنّ تزويد «باريس» المحرّرة بالمؤن يقتضي ٤٠٠٠ طنّ يومياً. أي ما يعادل استهلاك ثلاثة أيّام من الوقود. لا بدّ أن تفقدها النقليّات العسكريّة على حساب العمليّات. كان على «باريس» اذاً أن تسقط سقوط الثمرة اليانعة. حوالي ١٥ تشرين الأوّل. أمّا ما قد يتمخّض عنه شهران من الانتظار. بالنسبة لأربعة ملايين من الرجال والنساء والأطفال قُطعت عنهم المؤن ولم يبقَ لديهم شيء من احتياطيّ المواد الغذائيّة، وباتوا لا يكسو عظامهم شيءٌ من الدهن. فأمرٌ يبدو أنّه لم يخطر ببال.

كانت مشكلة «باريس» شائكة كذلك بالنسبة للألمان. فالدفاع عن المدينة، على أساس الاحتفاظ بها، كان يفرض عدداً كبيراً من الرجال ويثبّت الجبهة على «السين»، ممّا كان لا يتّفق وتوصيات هيئة الأركان. ومع هذا، فقد قرّر «هتلر» أن يُبقي في العاصمة الفرنسيّة حاميةٌ فرض عليها أن تقاتل حتى آخر رجل، على اعتبار أنّ التضحية بها، ثم بالمدينة، سيسهّل إقامة موقع للمقاومة على «السوم» وعلى «المارن». ويوفّر للجيش الألمانيّ استراحة ثمينة.

وراح «هتلر» يبحث عن رجل يدفنه تحت أنقاض «باريس». كان قائد الموقع جريحاً كبيراً عريق النسب: هو الجنرال بارون «فون بوانبورغ — لنغسفيلد»، كان قد تميّز في ٢٠ تموز بمبادرته إلى اعتقال رجال الصاعقة. فاقترح «بورغدورف». رئيس موظّفي «قيادة الجيش العليا». أن يستبدَل به الجنرال «ديترتش فون شولتتز» الذي أُعفي حديثاً من قيادة الفيلق ٨٤ بسبب خطإ لم يرتكبه. وأصرّ «هتلر» على تزويد هذا الجنديّ المشكور العزيمة بأوامره شخصياً. فمضى «شولتتز» إلى «رستنبورغ» في ٧ آب. لا يحسب أقلّ حساب للدور الذي استدعته من أجله ثقة الفوهرر.

لقد أساء بعض مؤرّخي تحرير «باريس» معاملة «شولتتز» فصوّروه جندياً عتيقاً كاد يصيبه الذهول. وليس ذلك من الشهامة والحقّ في شيء. فقد كان «شولتتز». ربيبُ جيش معاهدة «فرساي». كثيرَ السمنة. مريضَ القلب. ذا نظّارة واحدة، وكان جندياً نبيهاً قديراً، وفي وقت ما كان أفتى رؤساء فرق الجيش الألمانيّ. كان. ككلّ الضبّاط الممتهنين تقريباً. غريباً عن السياسة مبدئياً، فلم يكن في الأساس هتلرياً ولا خصماً للهتلريّة. ولكنّه أخذ يفكّر عندما بدت له الهوّة التي يقذف فيها الرايخ

الثالث «ألمانيا». ومع أنّه كان جبرالا فتيّاً صغيراً، تجاسر فسأل المارشال «فون مانشتاين» عمّا يعرفه عن المؤامرة العسكريّة التي دُبّرت ضدّ «هتلر». ولكنّ «مانشتاين»، صاحبَ الذكاء الفذّ والخُلق الرفيع، كان قد اختار الطاعةَ حدّاً له. فنصح الضابطَ الفنّيّ بالتزامها، من غير أن يخفي عليه ما يشعر به من تشاؤم عميق. ومن مقت للطاغية. فأذعن «شولتتز» لذاك الصوت الموسوم بطابع السلطة والنفوذ؛ ولكنّ ذلك لم يمنعه من أن يسائل نفسه عن الحدود التي تتوقّف عندها الطاعةُ. قبل أن يُعهد إليه بقيادة موقع «باريس».

ما أُدخل إلى حضرة «هتلر». بعد التفتيش الذي غدا إلزامياً. حتى ألفى نفسه إزاء «رجل كهل أغبر الشعر مقوّس الظهر مرتجف الأوصال»؛ فصافحه بحذر وانتباه. وراح يسمع سرداً كاملاً لتاريخ القوميّة الاشتراكيّة. وعندما وصل «هتلر» إلى رواية ٢٠ تموز شهد نوبة من الجنون الدموي المشبوب. «كان ارتجاف بدنه يهزّ الطاولة التي جلس إليها هزّاً عنيفاً. وراح يرغي ويزبد ... فأدركت أنّني أمام مجنون.»

بيد أنّ الأوامر الخطيّة التي سلّمت «لشولتتز» لم تحمل أثر ذاك الجنون. فقد منح سلطات حاكم موقع محاصَر تمتدّ صلاحيّاتُه إلى مختلف أقسام الجيش الألمانيّ، ورُبط «بقيادة الجيش العليا» المباشرة، وزُوّد بتوصيات مشدّدة بشأن العلاقات التي يجب أن يقيمها مع قيادة الجبهة الغربيّة، والشرطة. والسفير «أبتز» الخ ... أوعز إليه أن يطهّر «باريس» من جنودها المبتعدين عن خطّ النار ويجعل منهم «عبرة لكلّ من يتهرّب من القيام بواجبه الفعليّ على الجبهة». وطُلب إليه أخيراً أن يؤمّن الهدوء في «باريس الكبيرة»، فيمنع كلّ تمرّد، وكلّ تخريب، وكلّ عمل إرهابيّ. من غير لجوء إلى تدابير خاصّة تعتمد الزجر والإرهاب.

لمّا وصل «شولتتز» إلى مقرّه في ٩ آب كانت «باريس» هادئة. فالباريسيّون، وقد باتوا على بيّنة ممّا يجري، يترقّبون النتيجة التي ستسفر عنها معركة «نورماندیا»؛ والمصانع ماضية في عملها؛ أمّا القُطر فيصل بعضها ببعض؛ ويوزّع بعض البريد؛ وأماكن التسلية تفتح أبوابها؛ والأولاد يلعبون في الحدائق العامّة؛ وقد انتشرت على ضفاف «السين» جماعات أرادت أن تحافظ على مظاهر حياة الشاطئ؛ ولكنّ التموين غدا صعباً؛ وأخذت محطّات المترو تغلق أبوابها واحدة بعد واحدة؛ ولا يُوصَل التيّار الكهربائيّ سوى نصف ساعة في اليوم. هذا، ورحيل مصالح الجيش الألمانيّ وأركانه ماضٍ على قدم وساق؛ وتوارت النساء المساعدات، أو «الفئران الغبر»؛ أمّا منظّمة الغستابو، وقيادة سلاحَي البحريّة والطيران، فقد رحلت، أو هي على أهبة الرحيل. كان «شولتتز» جندي الجبهة، يمنّي نفسه بافتتاح مطاردة المتوارين المستخفين. إلاّ أنّه كان يريد تجنيدهم في تشكيلات طوارئ. فإذا بهم يلجأون إلى مخابئ جديدة!

وكذلك أخذ في الرحيل جماعةُ الذين تعاونوا مع الألمان؛ فكان «شويدمان»، مستشار السفارة، أوّل من عمل على بثّ الذعر عندما نبّه فوهرر الصحافة الباريسيّة، «جان لوشير»، إلى أنّ الجيش الألمانيّ قد يضطرّ إلى مغادرة «باريس» موقّتاً. ففيما أقدم «دريو لاروشيل» على الانتحار. بقي بعض الشجعان، أمثال «برازلاك» و«سواريز» وهم على استعداد لتبرير موقفهم؛ أمّا الباقون، أشباه «برينون» و«دوريو» و«لوشير» و«جانتيه» و«راباتيه» و«كوستو» وغيرهم، فقد اختفوا، متزوّدين بوعد «أبتز» ووعيده: «إنّنا لعائدون، ولقد اهتدينا إلى أسلحة فتّاكة رهيبة. أتسمعون؟ رهيبة مخيفة. وإنّ قلوبنا لتنفطر أسى إذ ندرك ما ستُنزله هذه الأسلحة «بفرنسا»... سنعود قبل حلول الميلاد في أقصى حدّ.» أمّا الآن، فالوسائل العسكريّة المتوافرة للجنرال «فون شولتتز» ضعيفة هزيلة. فثلاثة من أفواج فرقة الأمن ٣٢٥ الأربعة القديمة، وهي حامية «باريس» العاديّة، قد أُرسلت لتغذّي مجزرة «نورماندیا»؛ وتناثر الفوج الرابع بين نقاط الارتكاز الستّ والثلاثين المهيّأة في الأساس للفرقة بكاملها، فلم يبقَ من القوّة المتحرّكة غير كتيبة واحدة اعتمد رجال سريّتين من سراياها على الدرّاجات، وامتلكت، فضلاً عن ١٧ دبّابة فرنسيّة ترقى لعام ١٩١٧، مدفعاً من عيار ٧٥ ينتسب إلى العهد ذاته، مزوّداً بـ ٦٨ طلقة. تمكّن «شولتتز» من احتجاز ١٧ دبّابة من طراز «بنتير» كانت في طريقها إلى الجبهة، ولكنْ توجّب عليه أن يعيدها باستثناء ٤ بناء لأمر صادر عن مجموعة الجيوش. وهكذا بلغ ما تحت إمرته من الرجال، بمن فيهم جنود المكاتب والأقلام، والجنود الفتيان الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٥ و ١٧ سنة، والعاملين في المدفعيّة المضادّة للطائرات، ٣٠،٠٠٠ رجل. فكان من الوهم بمكان تكليفُهم بملء خطّين للدفاع الخارجيّ، وتكليفهم، في الوقت عينه، بمهمّة السهر على الأمن والنظام في مدينة يبلغ عدد سكّانها ٤ ملايين.

وإذ تبيّن «شولتتز» بجلاء أنّ القيام بمهمّته النظريّة أمر محال. حدّد لنفسه مهمّة عمليّة تقوم على إبقاء خطوط المواصلات اللازمة للقوّات الألمانيّة مفتوحة سالكة. ولقد زاد من خطورة هذا الهدف وأهميّته أنّ جسور «باريس» وحدها هي السليمة؛ وأنّ المدينة التي أُعفيت من القصف هي الاسطوانة الدائرة الموزّعة بالنسبة للمعركة. كان أمر المحافظة على الهدوء في مدينة «باريس»، بالتالي، ضرورة ملحّة. أمّا بالنسبة «لفرنسا» فقد اتّخذت مشكلة «باريس» العسكريّة خطورة أساسيّة أولى. واستحوذت على تفكير ذاك الرجل الذي أدرك أنّه يحمل مسؤوليّة الوطن التاريخيّة في ساعة حاسمة خطيرة: ألا وهو «شارل ديغول». أمّا عودته إلى الاتّصال بأرض الوطن فقد حصلت يوم ١٤ حزيران، في «بايو»، حيث استُقبل بهتاف متواضع، وعبّر عن سلطته بتنظيم إدارة المناطق المحرّرة؛ وعاد من غده إلى مدينة «الجزائر». وبعد أيّام ساقته سفرة جديدة إلى «إيطاليا» حيث تلقّى بركة قداسة «البابا». ونزولاً عند شرط وضعه «روزفلت»، سأل عمّا إذا كانت زيارته مستحبّة، واستقلّ الطائرة إلى «واشنطن». ذاك أنّ الرئيس كان قد أجاب سفيره «جون وينانت»، المؤيّد للديغوليّة، لأسابيع ستّة خلت، متلفّظاً بهذه الكلمات: «لو استطاع أيّ إنسان أن يقدّم لي وثيقةً تثبت أنّ «ديغول» يمثّل الشعب الفرنسي، لكنت على استعداد للتفاوض معه؛ وما لم يتمّ ذلك، فأنا لا أنوي العدول عن موقفي.» فعمدت السلطات الأميركيّة منذ ذاك الحين إلى تحليل مشاعر الشعب الفرنسيّ، وتوصّلت، على حدّ قول «كورديل هال»، إلى هذه النتيجة التي تقرّ بأنّ البلاد تعترف «بديغول» «كسلطة موقّته». فما كان من السياسة الأميركيّة إلاّ أن تقيّدت بهذا الواقع.

عاد «ديغول» من «واشنطن» بإعلان تعترف به حكومة «الولايات المتّحدة» بأنّ «لجنة التحرير الفرنسيّة مخوّلة لإدارة فرنسا». فتبدّد شبح (الحكومة الأميركيّة البُعبع): من غير أن تتبدّد تلك الريبة العميقة التي تشكّل طبع الجنرال وما يمتاز به على التوالي من قوّة وضعف.

والآن هيّا بنا إلى «باريس»! «باريس»، مفتاح «فرنسا»، وقاعدة الحكم الوحيدة. إستبدّ القلق «بديغول» وأقضّ عليه مضجعه، إذ علم بمؤامرة «لافال ـ هيريو»، وأيقن أنّ خيوطها قد حيكت برضى «أميركا». فرأى من الضرورة الملحّة أن يعود «ليجمع شمل الأمّة الخارجة من الهوّة»؛ فغادر مدينة «الجزائر» في ١٨ آب، مارّاً «بالدار البيضاء» و«جبل طارق». إلاّ أنّ بعض الحوادث الطارئة التي ألمّت بالطائرة، وتأخيراً فنيّاً عارضاً، قد جعلاه يعتقد أنّ هناك من يسعى إلى احتجازه، وربّما إلى التخلّص منه؛ ولسوف يُتناول ذكر تلك العودة الكبرى بروايات محمومة لاهثة.

بعد النزول في «نورماندیا»: «تشرتشل» يتفقّد رأس الجسر الحليف فيها.

تسلّق هذان الصبيّان بقايا شجرة في ضواحي «سان — لو» ، وراحا ينظران إلى قافلة عسكريّة تجتاز بقايا مدينتهم .

وحقيقة الأمر أنّ لجنة رؤساء الأركان المشتركة قد أعلنت ، جواباً عن سؤال طرحته هيئة تنظيم الغزو أنّها لا ترى مانعاً يحول دون إتمام الرحلة ، وأنّ على الجنرال «أيزنهاور» أن يستقبل الجنرال «ديغول» كقائد أعلى للقوّات الفرنسيّة .

جرت المقابلة في ٢١. فوقف «أيزنهاور» أمام خرائطه ، وعرض الوضع العسكريّ الناجم عن انتصار «فاليز» ، فإذا هو باهر للغاية ؛ فقد خسر العدوّ ٣٠ فرقة ، وعمد ما تبقّى له من القوّات إلى التقهقر في غير نظام .

وفيما نشط الجيش الكنديّ الأوّل ، والجيش الانكليزيّ الثاني ، إلى مطاردة الفارّين من «فاليز» جنوبيّ «روان» ، استولى الجيش الأميركيّ الأوّل على معابر «السين» بين «فرنون» و«إلبوف» ليقطع عليهم طريق التراجع . كان التصميم قد حسب حساب فترة من التوقّف على النهر ، إلاّ أنّ «أيك» قرّر أن يختصر مهلة قد أبطل وضع الحصم كلّ نفع يرجى منها . ففي عشيّة اليوم الأسبق عثرت دوريّة تابعة لفوج المشاة ٣١٣ ، قادها الرقيب «وايت» تحت وابل من المطر ، على معبر لم يتمّ تدميره يقع بالقرب

شاحنات النزول على شواطىء «بروفانسا».

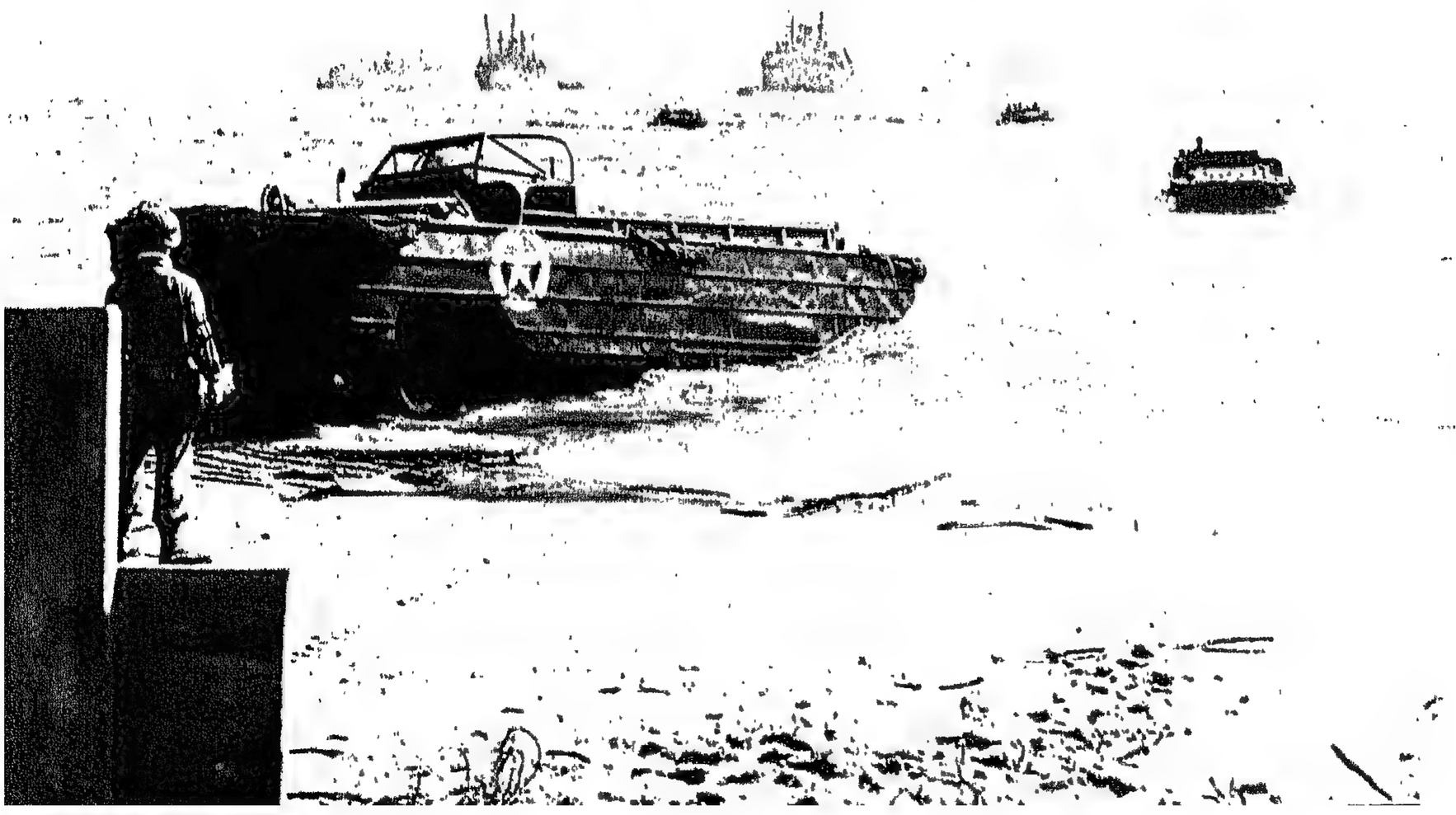

من «مانت–غاسيكور». فاستخدمته للعبور ؛ والماء يبلغ الصدور؛ وما لبث الفوج الذي انتزع من سباته أن تبعها؛ وسرعان ما وصل عمّال الجسور فبادروا إلى العمل، ولم يمضِ طويل وقت حتى عبرت فرقة المشاة ٧٩ إلى الضفّة اليُمنى بمدفعيّتها ومصفّحاتها. وهكذا فعلت فرقتا المشاة ٤ و٧ في «مولون» و«مونتيرو». وأخذ فيلق بكامله يستعدّ للزحف إلى «المارن». فيما توجّهت عناصر أخرى من جيش «باتون» ناحية «تروا» و«ديجون» لتحقّق اتّصالها بالجيش السابع.

ولكنّ «ديغول» كان يسعى لتحقيق فكرة قد ملكت عليه شعوره وعقله. ألا وهي تحرير «باريس». أمّا الحجج التي تقدّم بها فعسكريّة صرفة: لِمَ لا يعبر الحلفاء نهر «السين» في «باريس» نفسها بدلاً من أن يعبروه في القطاعين الأعلى والأسفل من مجراه؟ كان لتحاشي الهجوم الجبهيّ ما يفسّره، فيما لو كان الدفاع عنها قويّاً ضارياً، والمعروف أنّ الحامية الألمانيّة في غاية الضعف ؛ وقال : «فبضع طلقات من المدافع تمكّنكم من احتلال «باريس»... «وإنّ ذاك ليعني أنّ أهمّ عقدة للمواصلات في «أوروبا» الغربيّة ، وإمكانات مدينة صناعيّة ضخمة ، ومجموعةً من ٦٢ جسراً سليماً على الأرجح ،قد تسقط بين أيدي الحلفاء، بالقليل البخس من النفقات.

تحدّث «ديغول» في مذكّراته عمّا لمسه من الارتباك لدى محدّثه، ورأى فيه تثبيتاً لشكوكه في أنّ الاعتبارات العسكريّة لم تكن وحدها تملي على القائد الأعلى موقفه؛ بل انّ الانكليز والأميركيّين يبحثون عن وسيلة ينازعونه فيها ذاك التكريس الذي كان من حقّه أن ينتظره من مبايعة «باريس». والواقع أنّ واضعي تصميم الغزو لم يحاولوا قطّ إقصاء الفرنسيّين عن تحرير عاصمتهم. ففي الأيّام الأولى من عام ١٩٤٤ كتب المصمّم «فريدريك مورغان» ما يلي : «إنّه لمن الخطورة بمكان أن تتضمّن القوّات الأولى التي ستفتح «باريس» عناصرَ من الفرنسيّين». وما كان إلحاق الفرقة المصفّحة الثانية، وهي وحدة ديغوليّة صميمة ممتازة، بجيش «نورماندیا»، إلاّ تحقيقاً لتلك الرغبة. صحيح أنّها قد تُركت على خطّ القتال على أبواب «أرجنتان»، فيما مضت عدّة فرق أميركيّة تواصل زحفها باتّجاه «درو» و«شارتر»؛ ولكنّ، عندما اتّخذت هذه التدابير ، لم يكن فتح «باريس» متوقّعاً قبل انقضاء عدّة أسابيع ، ولم يكن أحدٌ بعد يهتمّ بمعرفة ما إذا كان المحرّرون سيفدون من الشمال أم من الغرب أم من الجنوب. ومهما يكن من أمر فإنّ الحجج الفنيّة التي أوردها الجنرال «ديغول» قد خلّفت في نفس «أيزنهاور» أثراً بليغاً. فقداحة الهزيمة الألمانيّة قد أفقدت عمليّة التطويق في الواقع كلّ جدواها. وعندما خرج «ديغول» من معسكر «أيزنهاور» ساخطاً حانقاً لعدم فوزه بموافقته. كانت قضيّته على وشك الفوز! ففي المساء عينه كتب «أيزنهاور» إلى «مارشال» يقول: «لا أرى إرجاء فتح «باريس» أمراً مرغوباً فيه بعد اليوم». ولقد خلُص «برادلي» إلى الرأي عينه إذ قال: «بوسعنا السير إلى «باريس». وإنّ ذلك لواجب». وقال لصحفيّي معسكره إنّ عددهم يمكّنهم من القيام بفتح «باريس» وحدهم! وبقي «مونتغومري» وحده يصرّ على تأجيل موعد التحرير «إلى أن يغدو اقتراحاً عسكريّاً صحيحاً سليماً». ذاك أنّ فكرة كانت قد استحوذت على تفكير «مونتي»، وهي تطهير شواطئ بحر الشمال من قواعد إطلاق الصواريخ. فصواريخ «ف ١» كانت ما تزال تعيث في «لندن» دماراً وخراباً؛ وصواريخ «ف ٢»، التي تفوق سرعتها سرعة الصوت؛ كان انطلاقها مرتقباً بين يوم وآخر.

ومهما يكن من أمر. ففي ٢١ آب لم تبقَ المشكلة تامّة مطبقة؛ لأنّ نار الثورة كانت قد اندلعت في «باريس». كانت الإضرابات قد بدأت في ١٠ آب. بتخاذل متردّد أقدم عليه قسم من عمّال الخطوط الحديديّة

في سراديب «باريس» وقف الكولونيل «رول – تانغي» قائد القوّات الفرنسيّة المستقلّة ينظر في خارطة المدينة الثائرة.

وموّظفيها، وفي ١٥ منه، وبشكل لم يسبق له مثيل، توقّف حرّاس الأمن عن تأمين خدماتهم، واختفوا من الشوارع. فانفجر «شولتز» مهدّداً متوعّداً، ولكنّه قبل بتنفيذ الاتّفاقية المعقودة بين قنصل «أسوج» العامّ «راوول نوردلينغ» والإدارة الألمانيّة، حول تحرير الأسرى السياسيّين الذين حُشيت إبادتهم في اللحظة الأخيرة. وهكذا خرج من المعتقلات ٤٠٠٠ سجين، بينهم بضع مئات كانت القُطُر قد مضت بهم إلى ديار المنفى. وبذلك أعاد قائد موقع «باريس» إلى العدوّ فريقاً من قادته في عشيّة محنة لا تبقي ولا تذر؛ وهي ، لعمري، خطوة لم يكن من اليسير تبريرها أمام الفوهرر!

ومع اقتراب موعد التحرير شهدت هيئات أركان المقاومة اشتداداً لذاك النزاع الصامت المعقّد الذي دارت فيها رحاه. أمّا موضوع ذاك النزاع ،فنظام الأمّة الفرنسيّة العتيد. فما عسى أن تسفر عنه المحنة الطويلة، والكفاح السرّيّ، وذاك القدر من البطولات والتضحيات؟ أنظام شيوعيّ، أم ديموقراطيّة حرّة؟ كان الجواب متوقّفاً إلى حدّ بعيد على الموقف الذي ستقفه «باريس».

الجنرال «لوكلير» يشهد دخول دبّابات الفرقة الفرنسيّة المصفّحة الثانية إلى «باريس».

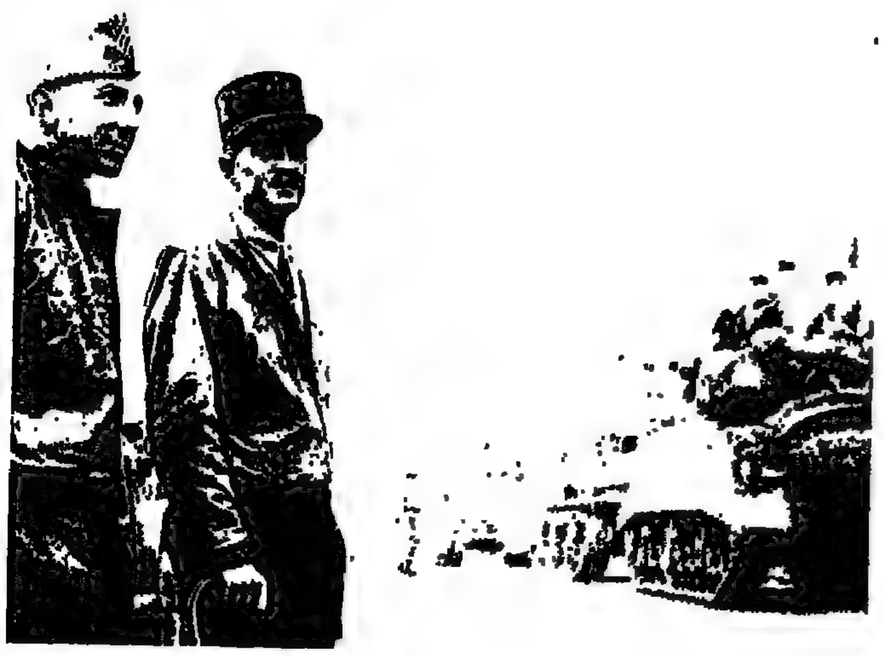

كان الموقف واضحاً بالنسبة للشيوعيّين: كان على سلطة ثوريّة أن تستقبل «ديغول» في العاصمة. فتحصره في دور ظاهريّ إلى أن تسنح فرصة إبعاده تماماً. فبدلاً من أن تُستبعد الآلام والمآسي والحرائق وأنهار الدم. كان لا بدّ منها لخلق الجوّ الثوريّ وتشكيل الثقة الشعبيّة التي سيعمد الحزب الشيوعيّ إلى استغلالها. ولقد كان يتمتّع بالكثير من القوّة والنفوذ. أفلم يكن «باستيان». الذي صرع أوّل ضابط ألمانيّ قُتل في «باريس». واحداً من أعضائه؟ أوليس «برونون تانغي» المتطرّف العنيف. الملقّب بكولونيل «رول». والذي يقود قوّات المقاومة الفرنسيّة في محافظة «السين». أحد أعضائه كذلك؟ لقد سيطر الشيوعيّون على لجنة التحرير الباريسيّة. وعلى اللجنة العسكريّة. بيد أنّ قوّاتهم المقاتلة وعدد قتلاهم لم يبلغ من الضخامة ما كانوا يزعمون. إلاّ أنّهم كانوا يشكّلون الجناح السائر الذي كان في الفترات الثوريّة يجرّ وراءه كلّ شيء.

أدرك قادة المقاومة من غير الشيوعيّين تلك الخطّة. وأدركوا الخطر. فوافقوا على الرفض الانكليزيّ الأميركيّ المتعلّق بإلقاء الأسلحة بواسطة المظلاّت في المناطق العامرة من المدينة. كما وافقوا على القرار الذي اتّخذه الجنرال «كونيغ» بإيقاف حرب العصابات رغبة منه في وضع حدّ لأعمال الانتقام التي تسبّبها. لم يكن رجال مدينة «الجزائر»، ابتداءً بممثّل الحكومة المؤقّتة العامّ. «الكسندر بارودي»، ليجهلوا أنّ الخطّة الشيوعيّة موجّهة ضدّ «ديغول». الحاجز الوحيد الذي يحول بينهم وبين الوصول إلى الحكم. فتخوّفوا من ثورة «باريس» للسبب الذي من أجله أرادها الحُمر. ولكنّ الاتّهامات التي تعرّضوا لها كانت قاتلة قاضية. ومحاولات الضغط التي تحمّلوها لم تعرف لا رحمة ولا شفقة.

في ١٥ آب عاد «شابان دلماس». مساعد «بارودي» العسكريّ، عن طريق «نورماندیا» من مهمّة استطلاع قام بها في «لندن». عرف أنّه لم يكن في نيّة الحلفاء أن يفتحوا «باريس» قبل مرور أسابيع عدّة، ممّا جعل تطوّر الأحداث وسيرها نحو الإضراب العامّ والفتنة أشدّ إثارة للقلق والاضطراب. فكان النداء الذي أطلقه معبّراً عن قلقه واضطرابه. قال: «حذّروا الأهالي بواسطة الإذاعة البريطانيّة تحذيراً واضحاً دقيقاً. كيما نتحاشى «فرصوفيا» جديدة...»

ولكنْ سبق السيف العذل! ففي ١٧ آب عقد مجلس المقاومة القوميّ اجتماعاً له في أحد منازل «فانف»، فلحظ «بارودي» أنّ المتطرّفين أقوى نفوذاً منه. وأنّ الفتنة واقعة شاء ذلك أم أبى؛ فرأى من الحكمة أن يأمر بها بدلاً من أن تُفرض عليه فرضاً!

وفي ١٩ منه بدأت في شوارع «باريس» مطاردة ما ومن انفرد من عربات الجيش الألمانيّ وجنوده. وكان الحادث الرئيس الذي أشرف على توجيه حركة العصيان كلّها هو احتلال أفراد الشرطة مركزَ إدارة الشرطة. واعتصامهم فيه بحفنة من الأسلحة وبعض أوعية البنزين اللازمة لصنع القذائف من «كوكتيل مولوتوف». وهناك أعلنوا الولاء بحماسة للمدير «لويزيه» الذي عيّنته لهم مدينة «الجزائر». كان ذلك الحدث بالغ الخطورة وسابقةً قَبِل بها الشيوعيّون من غير أن يتبيّنوا حقيقة مرماها. والحقّ أنّهم سيلعبون دورهم ولا سلطة لهم. فرؤساؤهم كانوا رجالاً صالحين لحرب العصابات ولم يكونوا ثوّاراً بالمعنى الصحيح؛ وهكذا لم تعرف «باريس» في شهر آب من عام ١٩٤٤ رجلاً «كلينين». وإلاّ لكان مصير «فرنسا» و «أوروبا» قد تغيّر وتبدّل.

كان من شأن هذه الفتنة المندلعة، في اليوم التالي للإفراج عن الأسرى السياسيّين، أن يحمل «شولتتز» على الخلوص إلى أنّ حملة زجريّة لا تعرف الهوادة قد باتت تشكّل الموقف الوحيد المعقول. ولكنّ شيئاً من

جنود ألمان يأسرهم جنود.

ذلك لم يحصل، بل أتت الأوامر التي أصدرها مائعة ليّنة: «يجب الابتعاد قدر المستطاع عن تعكير الحياة المدنيّة... وعلى مجموعات القتال أن تلزم موقفاً حذراً متفهّماً إزاء شبيبة متوتّرة...» ولقد حظّر استخدام الأسلحة الثقيلة، كما حُظّر على الدبّابات أن تستعمل القنابل المتفجّرة. وعمد «شولتتز» إلى التخفيف من أهميّة الفتنة، على اعتبار أنّ أيّاً من الأبنية التي يشغلها الألمان لم يتعرّض للهجوم، وأنّهم لا يزالون يُشرفون على الجسور كلّها. فالمهمّة التي وضعها لنفسه، وهي تأمين حريّة المرور للقوّات التي تجتاز «باريس»، ما فتئت مضمونة. وهو يعتقد أنّه يغامر بها أكثر ممّا يخدمها فيما لو عمد إلى اتخاذ تدابير زجريّة متطرّفة بحقّ الثوّار.

ألواقع أنّ وجهة النظر هذه كانت مصطنعة زائفة. فالأحداث التي جرت في ١٩ آب كانت جدّ مقلقة. فقد سقط الكثير من الجنود الألمان، وأُحرقت العربات الألمانيّة في أكثر أحياء المدينة وضواحيها، واحتلّ المتمرّدون مراكز المخاتير كلّها فضلاً عن مركز إدارة الشرطة. لم تكن الثورة شديدة الوطأة، إلاّ أنّها كانت تستقرّ وتتوسّع. فأنذر قائدُ موقع «باريس» رئيس المجلس البلديّ «بيار تيتنجر» بأنّه قد يُضطرّ إلى انتهاج سياسة حازمة لا تعرف الرحمة، إلاّ أنّ تهديده ووعيده قد انتهيا باعتبارات عاطفيّة تتعلّق بجمال «باريس» وبالتفطّر الذي قد ينال فؤاده لإراقة دم الحسناوات الباريسيّات! إنّها، والحقّ يقال، أحاديث لا تجدر بقائد حازم!

إنّه ليوم من أجمل ما شهدت «باريس» : الجنرال «ديغول» في جادّة «الشانزيليزيه» يحيط به إخوانه في السلاح من جماعة «لندن» ومن اللجنة الوطنيّة للمقاومة .

"ها قد وصلوا !" لم يسبق قدومهم مجرَّد إشاعة

تجلّت « المفاجأة الإلهيّة » في ظهور هؤلاء الجنود الفرنسيّين في العاصمة الفرنسيّة المحرّرة بعد أربع سنوات من الاحتلال .

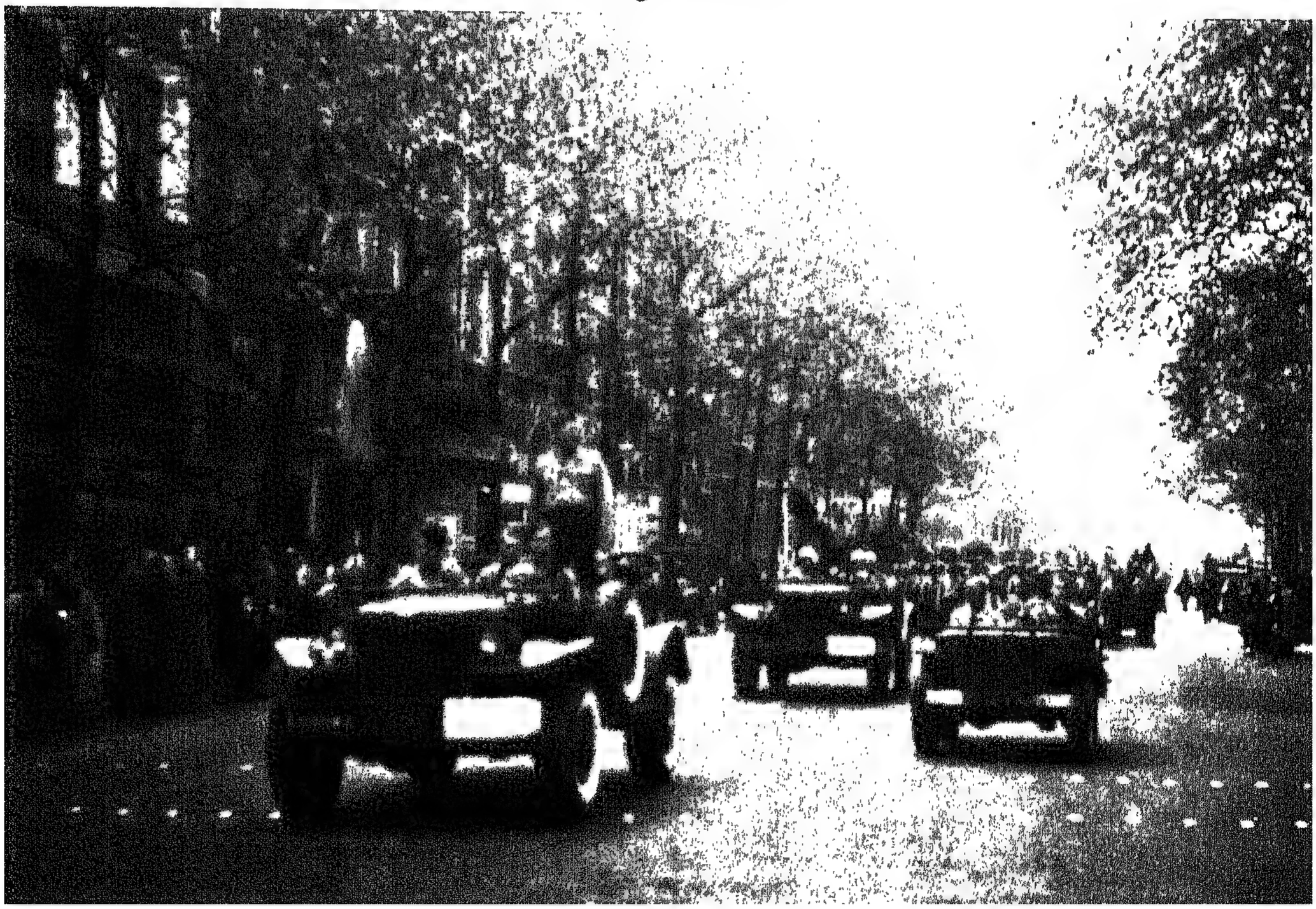

هـدنة، ومتاريس
ووصُول الفرقة المصفّحة الثانية

لاح نذير العاصفة في نهاية نهار محموم. فمقرّ الشرطة، حصن الثورة، قد كان عرضة لنيران المدافع التي أطلقها بعض الدبّابات؛ ومع أنّه قد صدّ محاولة للتسلّل فقد بات جلياً أنّ قدرته على المقاومة كانت محدودة. وقد شتّت صفوف المدافعين فيه ذعرٌ شديد؛ فمن جملة حرّاس الأمن الألفين الذين احتلّوا المبنى في الصباح، لم يبقَ غير ٥٠٠ فحسب؛ وباتت أسلحتهم الأوتوماتيكيّة، وهي نحو من ثلاثين بندقيّة رشّاشة عاجزة عن إطلاق النار لأكثر من دقيقتين. وفي الساعة ١٧ اتّصل «بيساني»، رئيس غرفة «لويزيه»، هاتفياً بزوجته وقال: «لن نخرج أحياء من هذا المكان...» وفي الساعة ١٨ أصدر «بارودي» أمراً بالجلاء وهو في الخارج؛ فأتى الجواب بأنّ هذا الأمر محال، إذ أنّ المنافذ كافّة واقعة تحت نيران العدوّ.

وفي تلك اللحظة وقع حدث هامّ: فقد تلقّى القنصل «نوردلنغ» مكالمة هاتفيّة، صادرة على الأرجح عن «بوسيير» مدير الشرطة المخلوع، الذي كان محتجزاً في شقّته، تشرح له وضع مقرّ الشرطة اليائس، وتسأله ما إذا كان بميسوره أن يقوم بأيّ مسعى لإنقاذ المدافعين فيه. وتمكّن «نوردلنغ» من مقابلة «شولتتز» في فندق «موريس»، حيث علم أنّ هجوماً سيُشنّ على مقرّ الشرطة عند فجر اليوم التالي، بعد إعداد جوّي تشترك فيه ٣٠ طائرة كانت ما تزال في مطار «بورجي». فأشار بأنّ القنابل سوف تسقط على الكاتدرائيّة، وقدّم بكثير من التشاؤم اقتراحاً بوقف إطلاق النار، فكانت معجزة! لقد قبل «شولتتز» بذلك! وأمّا الشروط التي تفوّه بها هو نفسه فقد كانت بعيدة التصديق: فقد قبل بالتناقش مع سلطات المقاومة، حتى إنّه قبل باستقبالهم من غير أن يمسّهم سوء. وتعهّد بألاّ يهاجم المباني التي يحتلّها «الوطنيّون» على حدّ تسميته، وراح يفكّر بإيجاد وسيلة للتعايش للأيّام المقبلة!

ربّما كنّا اليوم نقيس ما كان في مسلك «شولتتز» من مخاطرة. لم يكن قد مضى على الـ ٢٠ من تمّوز غير شهر أو أقلّ؛ وكان أحد أشهر المارشالات الألمان قد انتحر منذ ليلتين، عالماً أنّ مجرّد ارتياب في كونه قد اتّصل بالعدوّ سوف يودي به إلى المشنقة. كان شكّ «هتلر» قد اتّسم بطابع شرس، وكان «شولتتز» قد شهد بأمّ عينه هذيانه، وأُنذر في الوقت نفسه بأنّ طاعة الجنرالات ستؤمّن بفضل قانون للرهائن يُطبّق على نسائهم وأولادهم؛ كان بميسور الهدنة أن توفّر للجيش الألمانيّ بعض الفوائد، وكانت بالتالي جديرة بأن يُنظر في أمرها من الناحية التقنيّة. ولكنّه بعيد عن التصديق، أو يكاد، أن يأخذ «شولتتز» على عاتقه عقدها من غير أن يستشير المارشال «مودل» بصددها، وهو قائده الأعلى، أو القيادة الحربيّة العليا التي كان يربطه بها خطّ هاتفيّ مباشر!

وفي اليوم التالي الموافق ٢٠ آب، أعلنت الهدنة في شوارع «باريس» بواسطة مكبّرات للصوت بالفرنسيّة والألمانيّة. كان «بارودي» قد رفض أن يتّصل شخصياً «بشولتتز»، وقد اقتصر النداء الفرنسيّ الصادر باسم الحكومة المؤقّتة وباسم مجلس المقاومة الوطنيّ على طلب «وقف إطلاق النار في وجه المحتلّ ريثما يتمّ الجلاء التامّ عن «باريس».» ومع ذلك لم تحل الهدنة دون تفشّي الثورة. ففي مطلع النهار كان قد تمّ احتلال دار البلديّة، وهي المصدر الأعلى للثورات الباريسيّة. ولكنّ والي «السين»، الذي عيّنه «ديغول»، على غرار مدير الشرطة، قد تسلّم مهامّه من غير عناء كثير. ونعمت الهدنة سريعاً بتطبيق غير مرتقَب. وبعد الظهر، وأمام وزارة الحربيّة أوقف حاجزٌ ألمانيّ سيّارةً كانت تقلّ «بارودي» واثنين من معاونيه؛ وتقدّم ضابط من الغستابو يتطوّع لرمي الرجال الثلاثة بالرصاص على الفور. ولكنّ «شولتتز» أمر باقتيادهم إلى فندق «موريس»؛ وحين استنجد هؤلاء بالهدنة المعقودة أمر بإطلاق سراحهم؛ وامتقع لونه إذ تغاضى «بارودي» عن اليد التي مدّها له مصافحاً «مصافحة ضابط لضابط»؛ ومع ذلك لم يرجع عن قراره. وخرج المندوب العامّ طليقاً، ولكنّ معرّضاً لشبهات المتطرّفين الذين رأوا في التوقيف الذي حدث في «بولفار سان جيرمان» خطّة مدبّرة لإحلال الاتّصال الشخصيّ الذي اصطنع «بارودي» رفضه.

في مركز الشرطة أتت الهدنة رسالة خلاص. وقد استقبلها الناس في «باريس» برضى وبلهفة في كثير من الأحيان. وفي المجلس الوطنيّ للثورة كان الصوتُ المعارض الوحيد هو صوت «فيون» ممثّل الحزب الشيوعيّ. ولكنّ زملاءه قد أخطأوا التقدير ساعة لم يروا في تصويته غير ظاهرة مبدئيّة بسيطة. فالهدنة كانت بمثابة كارثة بالنسبة للشيوعيّين؛ وعندما قيل لأحد رؤسائهم إنّها تنقذ حياة ٢٠٠،٠٠٠ باريسيّ، أجاب، بشيء من المنطق، بأنّ الثورة تستحقّ هذا الثمن.

في اليوم التالي انتشرت في «باريس» إعلانات صادرة عن الحزب الشيوعيّ وعن الجبهة الوطنيّة المهتدية بهديه تقول: «إنّ الهدنة خدعة ألمانيّة، وإنّ شعب «باريس» يريد القتال! هاجموا الألمان بلا شفقة أو رحمة!» وقد اهتزّ المجلس الوطنيّ للثورة من تأثير هذه الغضبة. وعندما اجتمع أعضاؤه قامت بين الحاضرين مناقشات حادّة. ودافع «شابان ـ دلماس» عن الهدنة، واعتبرها نجاحاً لم يكن بالحسبان، وأنّها تمنع سحق الثورة وتشكّل اعترافاً من العدوّ بها. وهنا انفجر «فيون» صائحاً: «أنا لم أرَ قط جنرالاً فرنسياً أجبن من هذا!» واعترض «بارودي» على هذه الإهانة، ولكنّه، كما انقاد لثلاثة أيّام خلت، فأوقد ثورة كان يناهضها، انقاد هذه المرّة فتهجّم على الهدنة التي كان يعتبرها فرصة إلهيّة. وكانت حجّته في ذلك هي ايّاها: محاولة تجنّب الانجراف في تيّار المتطرّفين، والحفاظ على مظاهر السلطة.

وطارت للحال كلمة السرّ: «إملأوا «باريس» بالمتاريس!» وأضاف «رول تانغي» إلى هذا الأمر صيحة الموت التالية: «فليكن لكلّ منّا ألمانيّه!»

ومع ذلك رأينا الهدنة تحدّ من الانتفاضة الثوريّة. صحيح أنّ «باريس» قد غُطّيت بالمتاريس، ولكنّ معظمها نُصبَ في طرقات لا يمرّ الألمان فيها، وكان معظمها منشآت ضعيفة ورمنطيقيّة أكثر منها تحصينات حقيقيّة. وشهد نهارا ٢١ و٢٢ هبّات من القتال، تخلّلتها مآثر بطوليّة بديهيّة غزيرة، ولكنّ حدّة القتال تضاءلت خلال نهار ٢٣. وفي ٢٤، وفيما كان رتلٌ ألمانيّ مصفّح يجتاز «باريس»، انصبّت عليه العبارات النازيّة، فردّ بالمثل، وأحرق «القصر الكبير»، وألقى على «الشانزليزيه» غشاء من دخان، بيد أنّ النهار ذاك كان أكثر هدوءاً من النهار الفائت على وجه الإجمال. كانت المقاومة مفتقرة إلى السلاح والذخيرة، وقد تخلّف الحلفاء عن إنزال الأمداد بالمظلاّت في فناء «نوتر دام» كما طُلب إليهم. ولم يغادر الألمان نقاط ارتكازهم، ممّا جعل الاحتكاك بين المحاربين نادراً. ومن جهة أخرى كان أكبر قسم من «باريس» في حالة تحرّر ذاتيّ. وراحت الصحف التي كانت بالأمس سريّة تدعو إلى ذلك بما تملكه من عزم وقوّة. وأمّا سلطات المقاومة فقد أحلّت فيها سلطانها، دونما اعتبار إلى كونها تمثّل المفوضيّة العامّة أم لا.

في فندق «موريس» كان «شولتتز» يحاول كسب الوقت. فقد تلقّى في ١٧ أمراً بنسف الجسور، ولكنّه تمكّن من إلغائه إذ برهن أنّها كانت ضروريّة لانسحاب القوّات الألمانيّة. وأمّا الأمر الجديد الذي وصله في ١٩، فقد وقّعه «هتلر» نفسه، وورد فيه: «يجب أن تتحوّل

ساحة «الكونكورد» تستعيد سالف تقاليدها . فقد انعقدت فيها المظاهرات الوطنيّة كما انعقدت في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، وسهرت الجموع نشوى حتى الصباح على أضواء القناديل التي بقيت أربع سنوات غارقة في الدّيجور .

«باريس» إلى أطلال!» وكان على الجنرال القائد أن يدافع عنها حتى آخر رجل، وأن يُدفن تحت أنقاضها... «وشكر «شولتتز» ساخراً قيادة الغرب، وقدّم تقريره بالعبارات التالية: «لقد وضعت ثلاثة أطنان من المتفجّرات في «نوتردام»، وطنّين في «اللوفر»، وطناً واحداً في «الأنفاليد». ولسوف أنسف برج «إيفل» فيسدّ حطامه «السين»، ولكنّه لم يأت حركة! واجتاحت العالم موجة من الحماسة ولدّتها ثورة «باريس»؛ ولكنّ الثورة أوجدت في الوقت نفسه المخاوف. فتطوّر الوضع الثوريّ، في مدينة حضنت هذا العدد من الثورات، قد أقلق أولئك الذين كانوا يقيسون مدى الخطر الشيوعيّ الذي راح يتضخّم في أعقاب الهزيمة الألمانيّة. وأمام «فرصوفيا»، وفي وضع مناف لهذا، كان السوفيات قد توقّفوا لأسابيع عديدة خلت متيحين لرجّال الصاعقة مجال إفناء البولونيّين المناهضين للشيوعيّة؛ ولكنّ هذه الواقعيّة الحازمة ليست من عادات الغربيّين. فقد كانوا يتجنّبون العار الذي قد يلحق بهم إن هم وقفوا مكتوفي الأيدي حيال سحق الثوّار الباريسيّين، وإن هم حرّروا «باريس» وهي خراب ورماد.

وأمّا «لوكلير». وهو المحرّر المعيّن، فقد راح يشتعل حنقاً. فمنذ ١٤ آب، عندما تخلّى نصف الفيلق ١٥ عن القتال أمام «أرجنتان»، كان قد سأل «باتون» متى تتّجه الفرقة المصفّحة الفرنسيّة الثانية بدورها نحو «باريس». وقد عيل صبره عندما نُقلت فرقته من الفيلق ١٥ إلى الفيلق ٥، ومن الجيش الثالث إلى الجيش الأوّل. وفي ٢١ ضاق بالوضع ذرعاً، فأصدر إلى الليوتنان-كولونيل «دي غيبون» أمراً بأن يسير على رأس مفرزة من الخيّالة المغربيّين. أي ١٥٠ رجلاً و ٣٠ مصفّحة.

فضلاً عن رايته وحرسه، وبأن يتحرّك لتوّه باتّجاه «باريس». وقد لُخّصت المهمّة في نقطتين: «١) تمثيل الجيش الفرنسيّ في العاصمة المحرّرة؛ ٢) القيام بأعباء السلطة الإقليميّة الفرنسيّة ريثما يصل ذوو الحقّ الشرعيّ.»

وقد أثارت هذه البعثة عاصفة في الأركان العامّة. وسأل الجيشُ الثالثُ الجيشَ الأوّل إيضاحاً عن ذلك الرتل الفرنسيّ الذي كان ينزلق عبر طرقاته المعرقلة. وبعث «لوكلير» إلى قائد فيلقه، «ليونارت. جيروي»، ضابطاً بشرح له مبادرته؛ فعاد إليه رسوله على صهوة جواد ينقل إليه من «جيروي» الرسالة التالية: «إنّ الفرقة المصفّحة الثانية (فرنسيّة) هي تحت إمرتي لأيّ غرض من الأغراض، ولا يُسمح لك باستخدام أيّ جزء منها إلاّ لتنفيذ المهمّات التي أعيّنها أنا شخصياً.» وقد انتهت المذكّرة بأمر يقضي باستدعاء «غيبون» للحال.

كان وضع «لوكلير» حرجاً. فبعدما شارف العصيان عاد فأرجأ التنفيذ، وطار إلى مركز قيادة «برادلي» للاستئناف. وكان كلّ من «كونيغ» و«ديغول» يبذل ما بوسعه، حتى إنّ الثاني قد نظر في احتمال سحب الفرقة المصفّحة الثانية من قيادة «أيزنهاور» لإطلاقها نحو «باريس». ولكنّ كلمة أميركيّة واحدة كانت جديرة بأن تُسمّر «لوكلير» إلى الأرض بقطع الوقود عنه.

كان بعد ظهر ٢٢ على وشك الانقضاء. وراح «لوكلير» ينتظر «برادلي» الذي كان يتداول مع «أيزنهاور»؛ ولكنّ المساء أقبل، وكان عليه أن يعود بعد برهة بطائرته الصغيرة إلى مقرّ قيادته لتنفيذ أمر «جيروي». وأخيراً هبط «برادلي»، وانجلى فجأة كلّ شيء: فقرار توجيه الفرقة المصفّحة

دوريّة من القوّات الفرنسيّة المستقلّة في «باريس».

في مركز الشرطة : حرّاس الأمن يطلقون ال

في "بَاريس" المـــتمـرّدة

مناضلون وطنيّون جدّهم الألمان في

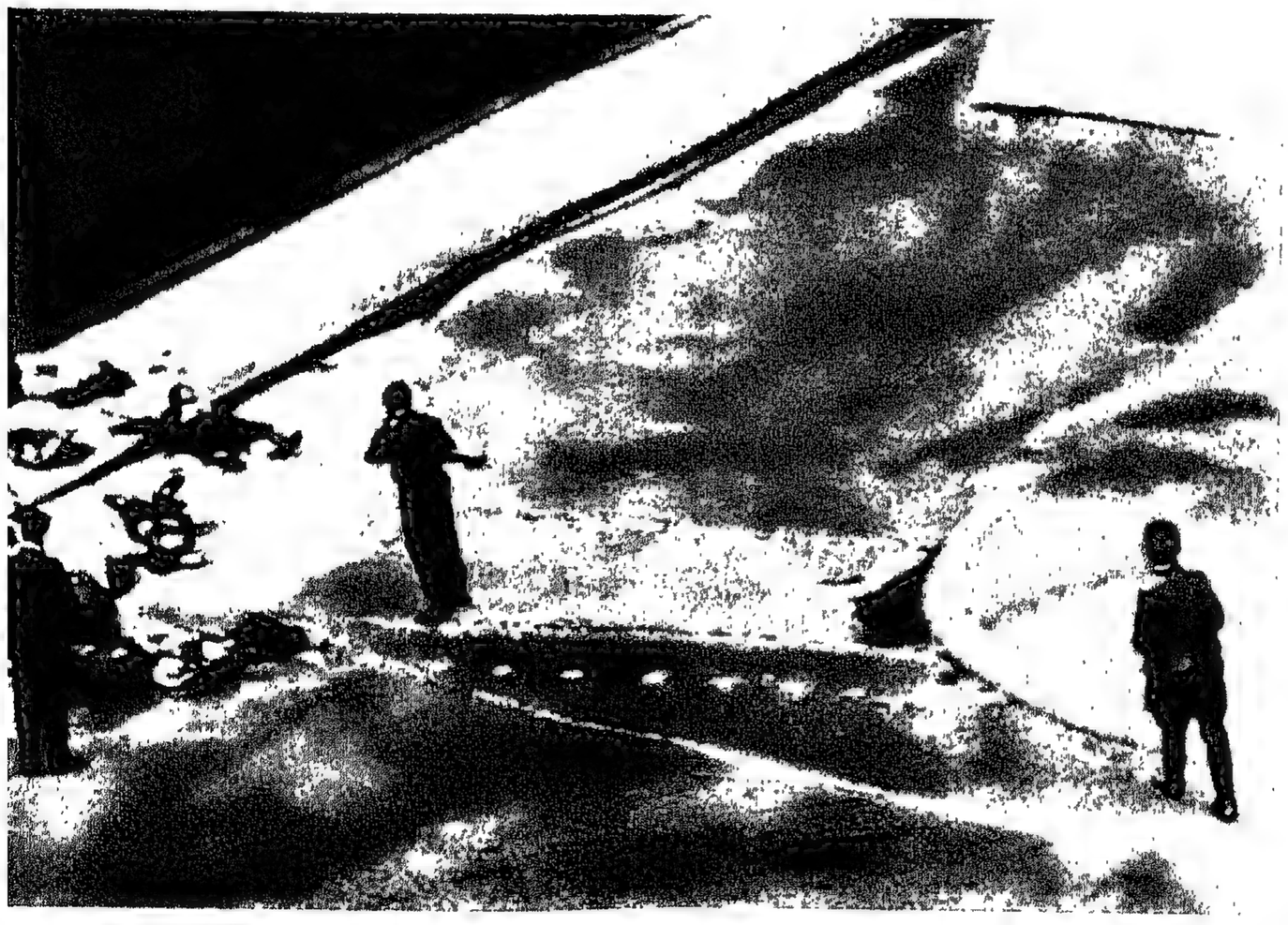

جنديّ ألمانيّ أسر في ساحة «الأوبرا» .

متراس هائل : فندق «ماجستيك» .

الثانية نحو «باريس» كان قد اتُّخذ في مجموعة الجيوش في الصباح . وكان «برادلي» قد طار إلى «غرانفيل» لسبب واحد هو الحصول على موافقة القائد الأعلى . وقد أعطى «أيك» موافقته، وزاد عليها أوامر تقضي بتسيير ٢٦،٠٠٠ طنّ من المؤن والفحم نحو «باريس» ؛ منها ٣،٠٠٠ طنّ بطريق الجوّ، كنجدة معجّلة. وأمّا الاحتراز الوحيد فقد كان التالي: يجب ألاّ يقع في المدينة نفسها «قتال عنيف». وأضاف: «وإذا تعذّر تحقيق هذا الشرط ، يجب إيقاف الزحف واتّخاذ موقف دفاعيّ ...»

كان وضع فرق أميركيّة عديدة أوفر حظّاً من الفرقة المصفّحة الثانية لإنقاذ «باريس» . كان على هذه الفرقة أن تأتي من «سيس» ومن «ألونسون» ، قاطعة مسافة ٢٠٠ كلم، فيما كان الفيلق الأميركيّ السابع . الذي يضمّ في ما يضمّ فرقة مصفّحة، محتشداً قرب «كوربيل» على بعد ٥٠ كلم فحسب. ومع ذلك اتّخذ «أيك» الاحتياطات اللازمة لكي يعود شرف استرجاع المدينة للفرنسيّين أنفسهم، مبطلاً بذلك الشكوك

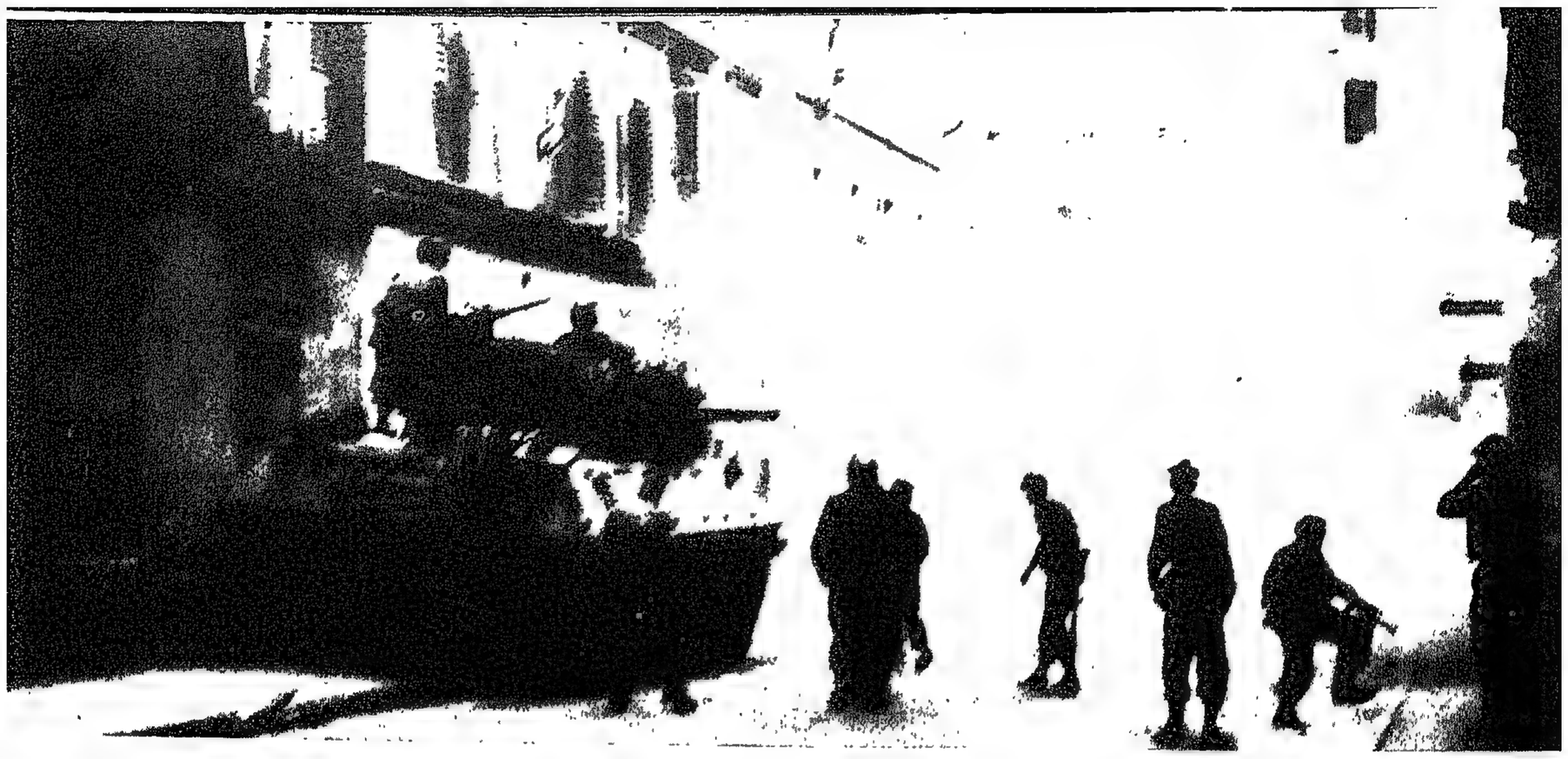

كتيبة رماة البحريّة في الفرقة الفرنسيّة المصفّحة الثانية تعمل في «باريس».

ات الأميركيّة. وقد كُلِّفت فرقة المشاة الأميركيّة
ـّك «لوكلير»، فانتشرت إلى اليمين وإلى الوراء للسيطرة
ين» ولتحرير الجزء الشرقيّ من الأرباض الباريسيّة.
لقاة على عاتق الفرقة المصفّحة الثانية هي «نوتردام».
ـ» أن تتمثّل الجيوش البريطانيّة في التحرير. فطلب من
ال مفرزة؛ ولكنّ الإنكليزيّ الصعب المراس قد تخلّف.
ف على «باريس»، نموذجاً للتكتيك وللتعاون المشترك بين
جيروي» قد عيّن «للوكلير» مسيرتين: الأولى عبر
ونوف ــ أون ــ تيمري» و«مينتونون» و«رامبويي»
نية عبر «نوجان ــ لي ــ روترو» و«شارتر» و«نومور»
أنّ واحدة من هاتين المسيرتين لم تنعم بالتطبيق الكامل؛
ـ» المجهود الرئيس من الغرب إلى الجنوب، من طريق
طريق «إيتامب»، وهو تدبير لم ينل التوفيق الكامل، إذ

أنّه قد وقع في «أرباجون» على أقوى مقاومة ألمانيّة. وفي آخر يوم ٢٤، قام الكولونيل «دي لانغلاد»، الذي يقود مجموعة الغرب، باجتياز جسر «سيفر»، ودفع بـ ١٥ دبّابة إلى «بولون ــ بيلانكور»، فيما كان معظم الفرقة، وهو يضمّ المجموعتين «ديو» و«بيوت»، ما يزال يقاتل في محاذاة «فرين»، على بعد نحو ١٢ كلم من مدخل «أورليان». إلاّ أنّ «لانغلاد» توقّف نظراً لانعدام الاتّصال لديه، فلم يجسر على أن يقيم في «باريس» ليلاً.

وفي تلك الأثناء بلغ الملل والسخط قلب «جيروي» و«برادلي». فهما لم يتلقّيا منذ الليلة البارحة أيّ تقرير من «لوكلير» الذي اختفى أثره. كان الأمل يداعبهما بالاستيلاء على «باريس» قبل الظهر، فإذا بأملهما قد خاب. وبالنسبة «لبرادلي»، كان التعليل بسيطاً: إنّ حماسة الجموع ونشوة المحرّرين قد أخّرتا تقدّم الفرقة المصفّحة الثانية. وقد قال «برادلي» فيما بعد: «لم أكن قادراً على الانتظار ريثما يشقّ الفرنسيّون طريقهم مختالين

بضع مئات من الأسرى الألمان قرب «الأوبرا».

جنود من الفرقة الفرنسيّة المصفّحة الثانية ، وعناصر من القوّات الفرنسيّة المستقلّة ، يهاجمون فندق «كونتيننتال» .

نحو «باريس». تبّاً للعنفوان ! فقد أبلغت «بارتون» بأن يدخل «باريس» أكان الفرنسيّون فيها أو لم يكونوا.» وقد أضاف «برادلي» قائلاً: «وعندما علم فتيان «لوكلير» بذلك، راحوا ينهبون الأرض نهباً». وفي الواقع لم يعلم «لوكلير» نفسه بالأمر الذي أصدره «برادلي». لقد كان النهار عاتياً، وحصيلة «الاختيال» قاسية. إذ أنّها كلّفت الفرقة المصفّحة ٣١٧ قتيلاً وجريحاً ومفقوداً: و٢٥٢ دبّابة أو مصفّحة أو شاحنة مدمّرة. ولم يكن «لوكلير» يعبث في المخافر الأماميّة، بل كان يحاول تبليغ المنفّذين ضرورة التعجيل تنفيذاً للرغبة التي أبداها «ديغول» أمامه في «رامبوييه» في الليلة الفائتة. وفي نهاية النهار كان قد بلغ مفترقاً للطرق مجاوراً «لكرو-دي-برني». وانحرفت مفرزة يقودها الكابيتين «درون» على الطريق الكبير. بعد قيامها باستكشاف جانبيّ؛ فأمر «لوكلير» رئيستها بأن يعود إلى «فرين». وأن يدخل إلى «باريس» من الطريق الذي يجده حرّاً. وقام «درون» بالتنفيذ، فتسلّل عبر «لاي-لي-روز» و«بانيو» و«كاشان» و «أركوي»، وطرقات الدائرة ١٣ الضيّقة، واجتاز «السين» على جسر «أوسترليتز». فوصل إلى دار البلديّة قبيل منتصف الليل في فصيلة من المشاة بالشاحنات وبعض الدبّابات الخفيفة.

وبعد انقضاء ساعة راحت أجراس كنائس «باريس» كافّة تقرع باستمرار. وذلك بفضل خطّ كهربائيّ أُعيد وصله بأعجوبة. واتّصل «شولتتز» بمجموعة الجيوش، فتسلّم «شبايدل» المكالمة. واقترب «شولتتز» بآلة الهاتف من النافذة وقال: «أتسمع ؟ أجل، إنّها الأجراس! إنّ الجيش الفرنسيّ-الأميركيّ في «باريس». هل لدى المارشال «مودل» أوامر يصدرها إليّ؟» فأتاه الجواب: «إنّ المارشال يمسك بسمّاعة الهاتف الأخرى». قال «شولتتز»: «دعني أخاطبه». فقيل له: «كلاّ إنّ المارشال يكلّفني بإعلامك بأن لا شيء لديه يقوله». وإذ ذاك قال «شولتتز»: «وداعاً إذاً. حاولوا أن تُعنوا بأمر امرأتي وأولادي.»

كان سكون الليل هائلاً. ولم تشب الصمتَ طلقةُ رصاص واحدة. ولم يكن من شأن الصبح أن يوقظ التاريخ للحال. فنهار ٢٥ هذا قد أطلّ بلون ذهبيّ لازورديّ، ولكنّ الطرق المقفرة كانت ما تزال في سبات متأخّر. وخلال الليل كان «شولتتز» قد أمر قوّاته بعبور «السين»، وحينذاك لم يكن يعرقل المسيرةَ المحرّرة غير الحشود النشوى. وفي الفرقة الأميركيّة الرابعة، خصّ «بارتون» فوجَ المشاة ١٢، الذي فقد ١،٠٠٠ رجل أمام «مورتان»، بشرف الدخول إلى «باريس» قبل الجميع، فاستولى على محطّات «أوسترليتز» و«فنسين» و«ليون» ووصل إلى المدينة ظهراً. وفي الفرقة المصفّحة الثانية تقدّم «لانغلاد» من طريق «قوس النصر» و«الشانزيليزيه»؛ ووصل «بيوت» إلى ساحة «الشاتولي»؛ وقسم «ديو» مجموعته إلى رتلين، اتّجه واحد منهما نحو المدرسة العسكريّة، وسار ثانيهما نحو محطّة «مونبارناس» و«الأنفاليد» وقصر «بوربون». وأمّا الألمان الذين أُسقط في أيديهم فقد راحوا يدافعون عن أنفسهم داخل المباني التي يحتلّونها. وقد تمّ الاستيلاء على فندق «ماجستيك»، والمدرسة العسكريّة، ووزارة الخارجيّة، وقيادة الشرطة في ساحة «الأوبرا»، بعد قتال بلغ درجات متفاوتة من العنف. وفي الساعة ١٢،٣٠ عاد العلم المثلّث الألوان يرفرف فوق قمّة برج «إيفل» لأوّل مرّة منذ أربع سنوات.

في الساعة العاشرة وجّه الكولونيل «بيوت»، بواسطة القنصل «نوردلنغ» إلى الجنرال «فون شولتتز» إنذاراً أخيراً. وتمنّع «شولتتز» عن مقابلته. ولكنّ مساعده، الملازم «فون أرنيم»، نوّه بأنّ مقاومته سوف تكون رمزيّة، وبأنّه، إذا أُسر سوف يأمر بتسليم نقاط الارتكاز. وبدأت مهاجمة فندق «موريس» في الساعة ١٥،٣٠، من خلال طريق «ريفولي»، منطلقة من ساحة «الشاتولي». وقد اجتيح الفندق. الذي كانت تحميه فصيلة من المشاة، بعد قتال وجيز. وقد وصف «شولتتز» ما جرى قائلا: «وفجأة انفتح الباب، وانقضّ على مكتبي مدنيٌ بالغ الهياج.

«ديغول» هو «ديغول» .

وإصبعه على زناد رشّاشه، فصوّب سلاحه إليّ وهو يصيح: «أتتكلّم الألمانيّة؟» فأجبت بهدوء: «أظنّ أنّني أتقنها أكثر منك». عندئذ دخل ضابط برتبة ميجر ففهم الوضع، وأمسك بالمدنيّ وألقى به خارجاً. إنّ مؤرّخي تحرير «باريس» الفرنسيّين لم ينقلوا هذه الرواية، بل إنّهم قد وضعوا لوحة تاريخيّة أكثر إطراء «للمدنيّ البالغ الهياج»، وهو في الواقع الملازم «كارشي» من «قوّات فرنسا الحرّة» . . .

اقتيد «شولتتز» من «موريس» إلى دار البلديّة. وهناك أملى عليه «لوكلير» شروط استسلامه. إلاّ أنّ «رول تانغي» طلب باسم «القوّات الفرنسيّة المستقلّة» أن يكون مع المتفاوضين في النصّ الذي يُعتبر محضر تحرير «باريس». وأمّا «لوكلير»، الذي لم يكن واقفاً على كوامن السياسة، فقد قبل حتّى أن يظهر اسم الرئيس الشيوعيّ قبل اسمه على الصيغة المعدّلة! ولسوف يؤنّبه «ديغول» على ذلك أيّما تأنيب.

وبعد ما نُقل «شولتتز» إلى محطّة «مونبارناس»، نُقل إلى نقاط ارتكازه أمراً بإلقاء السلاح، فأطاعت كلّها الأمر، بما فيها قلعتا مجلس الشيوخ وساحة الجمهوريّة. وسارت في الطرق أرتال طويلة من الأسرى، وسط شعب انقلب عند رؤيتهم من الابتهاج إلى السخط والفورة. فالجرائم، التي كان يتوقّع صدورها من جموع ثائرة، قد ألبست يوم التحرير هالة رهيبة من هالات الأيّام الثوريّة الكبرى؛ فاغتيل بعض الأسرى، وشُنق بعض الأبرياء. وقُتل بعض الذين ظُنّ أنّهم كانوا معاونين للألمان، أو عُذّبوا. وجُزّت شعور بعض النسوة، أو اغتصبن، وامتلأت السجون بعدما خلت مدّة. فيما ارتُجلت سجون أخرى حسب أهواء رؤساء الجماعات المسلّحة.

كانت حجّة الشيوعيّين القويّة أنّ «باريس» قد تحرّرت تلقائيّاً بثورة شعبيّة كانوا هم أنفسهم محرّكيها. وكان مخطّطهم يقضي بأن ينصبوا . في وجه طابور خامس موهوم . المجموعاتِ المسلّحةَ التي بعثوها من الشارع. ولسوف تصبح الفرقة المصفّحة الثانية، بعد مدّة وجيزة، في دعاوتهم الشفهيّة، فرقةَ من الجنود تخيّب بنصرها شعب «باريس».

ولكنّ «ديغول» هو «ديغول». فالثقة بالنفس، والتجبّر، والاتّحاد بفكرة الدولة، التي جعلت منه طوال مدّة الحرب شديد التشبّث، جاءت تساعده إلى أبعد حدّ في وضع حافل بالمهالك. فمجلس المقاومة الوطنيّ كان يعتزم استقباله في العاصمة المحرّرة واقتياده إلى دار البلديّة لكي يعلن باسمه الجمهوريّة الاجتماعيّة. ولكنّ «ديغول» رفض: فبدلاً من أن يلحق بمجلس المقاومة الوطنيّ، سبقه، ثمّ حجبه، ولم يمض زمان طويل حتّى أزاله من الوجود. وأمّا مسيره في «الشانزيليزيه» في ٢٦ آب فقد كان آية من آيات العالم بنفسيّة الجماهير؛ فالرصاص الذي كان يلعلع حول هيكله الفارع الثابت الجنان، قد أسهم في تنصيبه. ولسوف يعيش أيّاماً مفعمة بالقلق، ولسوف يسمح باقتراف بعض الأعمال الشاذّة التي ستشكّل ضدّه فيما بعد عناصر أتّهام واضطهاد لا تعرف الرحمة. ولكنّه قد أنقذ ما هو الأهمّ: فقد اجتاز الفرجة الخطرة، وأبقى على استمرار الأمّة.

واستمرّت الحرب. وفي غد تحرير «باريس»، اجتازت مجموعة الجيوش ٢١ «السين» الأسفل مسارت متجهة نحو «با دي كاليه». وفي ٢٧ آب اقتحم الجيش الثالث «المانش» في «شاتو تييرتي». وفي آخر يوم من الشهر ذاته، تمّ بلوغ «السوم» و«الموز» في «أمياس» و«كومبرسي» في آن معاً. كانت المقاومة شبه معدومة. فقد كان العدوّ يفرّ هارباً. وكان يستسلم حالما يتمّ اللحاق به. وأحصت الأركان العامّة أنّ الجيش الألمانيّ في الغرب قد فقد منذ ٦ حزيران أكثر من نصف مليون رجل. بين قتيل وجريح وأسير. وأمّا الحامياء فقد أنزلوا ٢٠١٠٠٠٠٠ رجل و ٤٦٠٠٠٠٠ مركبة. تشكّل مدّاً هادراً راح يتقدّم في نشوة الغلبة المطلقة.

توقّف

أثلج صدورَ الكنديّين ، في أوّل أيلول ، استيلاؤُهم على مدينة « ديب » ، حيث استشهد الكثيرون من رفقائهم عبثاً عام ١٩٤٢ .

حملة «هتلر» الأخيرة

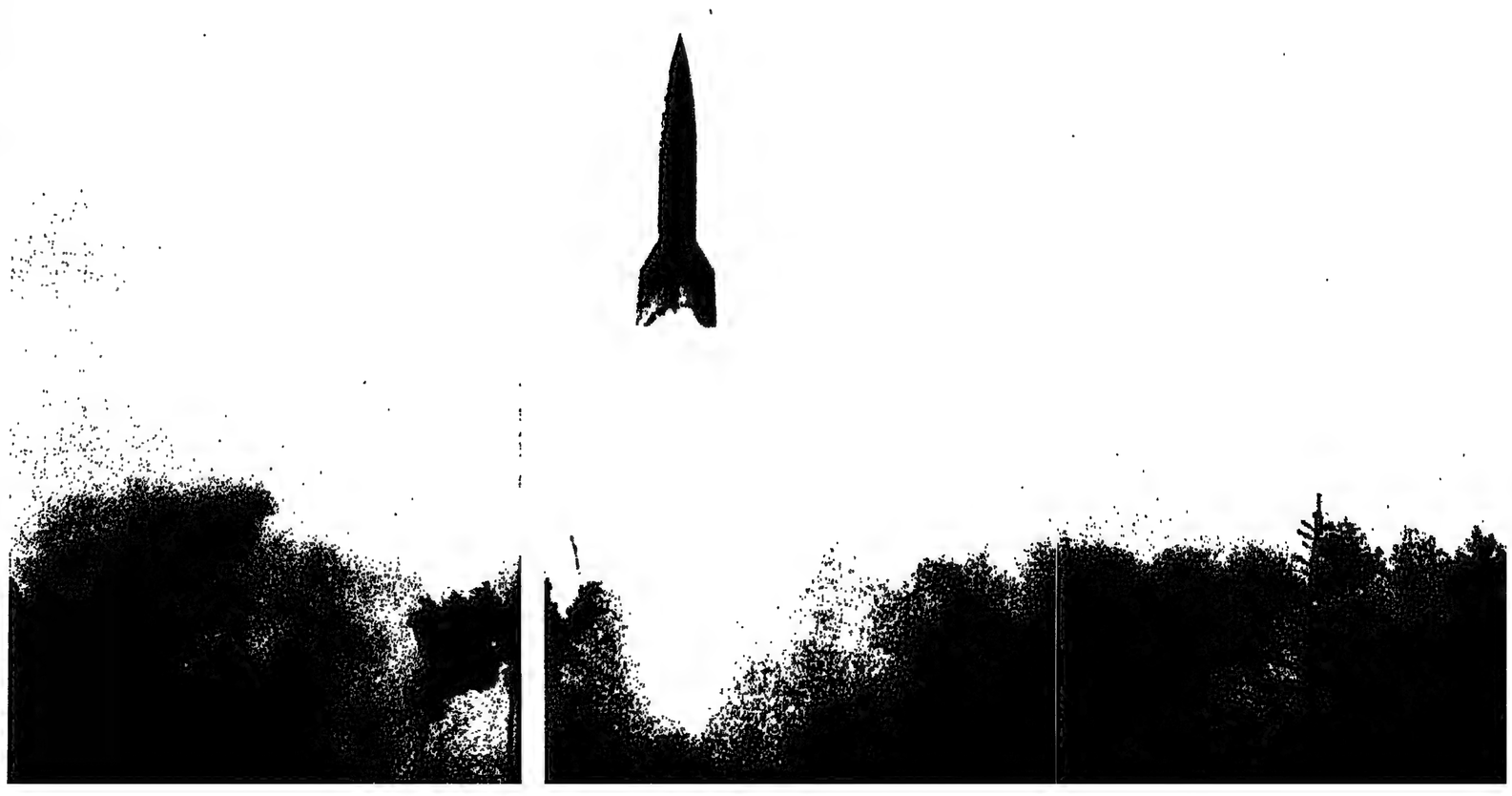

إجتاز الجيش الانكليزيّ الثاني مدينة «أراس» دونما توقّف. آسراً في طريقه جنرال الدبّابات «إيرياخ» الذي نُكّل به على أبواب «كين»؛ وفي اليوم التالي دخلت قوّة الحرس الانكليزيّ أرض «بلجيكا» فاستولت على «تورني». فيما استولى الأميركيّون على «نوايون» و«سان-كنتان». وفي ٣ أيلول، يوم تحرير «ليون»، حرّر الانكليز «بروكسيل». وطوّق الأميركيّون ٣٠.٠٠٠ ألمانيّ حول «مونس». في ٤ انتزع الجيش البريطانيّ الثاني مدينة «أنفير». ووضعت فرقة المشاة الأميركيّة ٤٥ يدها على «بورغ-ان-بريس». أمّا ٥ أيلول فكان يوماً مظفّراً: ففيما عبر جيش «هودجز» نهر «الموز» في «سيدان». حرّر جيش «باتون» مدينة «نانسي». واستولى جيش «كرير» على مدينة «بولونيا» واقترب من «كاليه». وفي ٦ دخل الفيلق الفرنسيّ الأوّل، بقوده «بيتوار». خطّ القتال إلى ميمنة الجيش السابع الممتدّ على طول الحدود السويسريّة. وبلغ الجيش الأميركيّ الأوّل في اليوم عينه خطّ «تيرلون-نامور». وحاذى في اليوم التالي قناة «ألبير»: فإذا بالحرب تعود إلى النقطة التي انطلقت منها في أيّار ١٩٤٠ . واقتحم الجيش الأميركيّ الثالث فجّ «سانت-ماري-أو-شين». واستولى على «سان-بريفا». وفي أقصى اليمين احتلّ الجيش الأميركيّ السابع مدينة «بوزانسون». وهكذا يكون الأسبوع الأوّل من أيلول قد حمل الحلفاء من «السين» إلى «الموز». ومن «بروفانسا» إلى «الدوبس» .

حافظ التقدّم على سرعته في ٨ أيلول: ففيما انتزعت قوّات «دي لاتر» «بون» و«أوتان». استولت قوّات «باتون» على «برياي». واحتلّت قوّات «هودجز» مدينتَي «لياج» و«مايستريخت». وعبرت قوّات «دمبسي» قناة «ألبير». ودخلت قوّات «كرير» مدينة «بروج». إستراح النصر في ٩، أمّا في ١٠ فقد التقى الزحف القادم من «المانش» الزحفَ الصاعد في المتوسّط. في قرية «سومبرنون» البورغنيونيّة، بالتقاء الفرقتين الفرنسيّتين: المصفّحة الثانية. وفرقة «فرنسا الحرّة» الأولى. هذا. وقد شهد اليوم ذاته استيلاءَ فيلق فرنسيّ على «ديجون». وفيلق أميركيّ على «لوكسمبورغ». كما شهد دخولَ فيلق أميركيّ آخر. لم تتصدَّ له أيّةُ مقاومة. إلى حصن «إيين-إيمايل» الذي نعى سقوطه جيوشَ «غاملان» في ١٠ أيّار ١٩٤٠ . وهبّت للاقاة المحرّرين في «بلجيكا». كما في «فرنسا». جموعٌ غفيرة استخفّها الفرحُ . حاملةً إلى الحلفاء أثمن ما وقعت عليه من الهدايا في أيّام الضيق تلك. من خمر ولفائف وبندوره (طماطم) وثمار.

وفي تمام الساعة ١٨.٥٥ من ١١ أيلول جرى حادث عظيم جلل: فقد اجتازت دوريّة تابعة لسريّة الاستكشاف الأميركيّة ٨٥ الحدودَ الألمانيّة بالقرب من قرية «ستولزنبورغ» اللوكسمبورجوازيّة . حيث يفصل بين البلدين جدولٌ صغير هو «الأور»؛ لم يكن الجسر قد أُصيب بأذى. فبادر الكشّافةُ الأميركيّون إلى عبوره. ولم يُطلِق عليهم الرصاصَ أحدٌ. فمضوا متوغّلين حتّى خطّ «سيغفريد».

هكذا اجتيحت «ألمانيا»! انتُهكت حرمتُها. وداست أرضَها أوّلُ السلاح السريّ الأخير ، وأمل «ألمانيا» الوحيد : إنّه صاروخ «ف ٢» .

دخل الكندیّون إلى «دیبب» في ٣ أیلول ١٩٤٤. وها هم ینتظمون في عرض عسكريّ یشهده الجنرال «كریرر».

جزمة معادية. ولمّا ينقضِ على ثغرة «سان–لو» ٤٧ يوماً، وعلى النزول في «نورماندیا» ٩٦ يوماً ! وإذا بالمجتاح الأوّل يَفِدُ من الغرب. خلافاً لما كان منتظَراً: فالروس لامسوا حدود «بروسيا» الشرقيّة خلال انتصاراتهم الصيفيّة الباهرة. إلاّ أنّهم لم يكونوا قد عبروها بعد في أيّ مكان.

بيد أنّ أزمة خطيرة قد برزت في وجه الجيش المظفّر: تأخّرت مصلحة التموين فلم تتمكّن من أن تجاري سرعة الزحف. فالبنزين، «دم الحرب الورديّ اللون»، يأتي في مقدّمة الضروريّات؛ وإنّ كلاًّ من جيوش «أيزنهاور» الأربعة يحرق منه، وقت احتدام العمليّات، ما يتراوح بين مليون وثلاثة ملايين ليتر يوميّاً. ولذا فقد عمدت مصلحة المحروقات إلى تمديد أنبوبها العائم في «المانش» بخطّ أنابيب أرضيّ؛ فشاهد سكّان الأرياف، في كثير من الذهول، الأخصّائيّين الأميركيّين يجمعون، بمعدّل ٢٠ إلى ٣٠ كلم في اليوم، قطعَ ثعبان من الفولاذ بسيط، أو مزدوج، أو مثلّث. لا تعوق انسيابَه عقبةٌ من الأرض أو من مجاري الماء. وممّا يؤسف له أنّ جماعةً من أبطال السوق السوداء الأنذال قد جازفوا بحياتهم لثقب الشريان الذي يتغذّى منه النصر، وأراقوا، طمعاً في اختلاس كميّات ضئيلة من البنزين، كميّات كبيرة من «دم الحرب الورديّ». وفي أيّة حال لم يكن عمل خطّ الأنابيب مرضياً: فمحطّات الضخّ قليلة، والخطّ يتطلّب نقلَ كميّات ضخمة معجزة كلّما استطال. ولذا فقد تقرّر أن تكون نهايته في «دوربان»، موقّتاً على الأقلّ.

لا شكّ في أنّ الخطّ الحديديّ يشكّل الأداة الستراتيجيّة الرئيسة بالنسبة للجيوش الكلاسيكيّة، بما فيها الجيش الألمانيّ؛ ولم يكن بوسع الجيش الأميركيّ نفسه أن يستغني عن خدماته؛ بيد أنّ ترميم الخطوط الحديديّة كان صعباً شاقّاً. وكان على الخطّ الحديديّ الأوّل، الخارج من «الكوتنتان»، أن يعتمد جذوعاً من الخطوط المنفردة، تمضي متعرّجة بين «بونتوبول» و«سان–هيلير–دي–هاركوي»، و«فوجير»، و«مايين»، و«المانس». ونظراً لانعدام الإشارات كان السير ينظَّم يدوياً: بواسطة الأعلام نهاراً، وبواسطة المصابيح ليلاً. هذا وقد أعيد فتح خطّ «فير–أرجنتان–درو» الكبير، عقبَ انتصار «فاليز»، ممّا سمح بدخول القطار الأوّل إلى «باريس–باتينيول» في ٣٠ آب. ولمّا يمضِ على تحرير العاصمة سوى أربعة أيّام. وما انتصف أيلول حتّى تمّ ترميم ٥،٤٠٠ كلم من الخطوط الحديديّة. فيما كان العمل جارياً في إعادة بناء ٤٠ جسراً؛ وإذا بالخطّ الحديديّ يبلغ «لياج» و«فردان» و«تول»، غير أنّ حركة القُطُر بقيت متقطّعة بطيئة.

أمّا على الطرقات المعبّدة، فقد نظّم الجنرال «روس» دائرة «الأوتوستراد الأحمر»، التي دُعيت هكذا بسبب الدائرة الحمراء التي تميّزها. فالطريق الصاعدة هي طريق «سان–لو–أرجنتان–درو–فرساي»، التي تتفرّع منها ذراعان، تمتدّ أولاهما باتّجاه «سواسون»، والأخرى باتّجاه «سومسو». أمّا الطريق الهابطة فتعود إلى «سان–لو» مارّة «بفونتينبلو» «فشارتر» «فالونسون». كانت العربات تسير عشرين ساعة في اليوم، بسرعة واحدة تبلغ ٢٥ ميلاً. وبين العربة والأخرى ٢٠ م فقط؛ وتضيء المصابيح مساءً كما لو أنّ الطيران لم يُخترع بعد، وتخترق «فرنسا» سلسلةٌ من الأنوار لا تنتهي، فتبلغ الحمولة المشحونة ١٢،٠٠٠ طنّ يومياً.

ولكنّ هذه الحركة لم تفِ بالغَرَض! فما كان يجب نقلُه من مستودعات «نورماندیا» إلى الجبهة المتحرّكة، فضلاً عن المؤن والذخائر، وبصرف النظر عمّا يتطلّبه تموين «باريس»، كان يتراوح بين ٢٠،٠٠٠ و ٢٥،٠٠٠ طنّ.

كان مفتاح الحلّ في مدينة «أنفير»: فلقد أخذ المرفأ سليماً تقريباً، وطاقته التفريغيّة تتراوح بين ٨٠،٠٠٠ و ١٠٠،٠٠٠ طنّ يومياً، والمسافات التي تفصله عن الجيوش الرئيسة ضئيلة. ولكنّ الجيش الألمانيّ الخامس عشر كان، لسوء الطالع، قد أوصد مصابّ «الإيسكو». قضت الستراتيجيّة المنطقيّة بإعادة فتحها قبل مباشرة سلسلة كبيرة جديدة من العمليّات. بيد أنّ «مونتغومري» عارض هذه الستراتيجيّة المنطقيّة بستراتيجيّة جريئة مقدام. كان في «أفريقيا» و«إيطاليا» و«نورماندیا» مخطّطاً مفرط الحذر. أمّا الآن فهو يعتبر أنّ عمود العدوّ الفقريّ كاد يتحطّم. وأنّ الوقت قد حان، على حدّ قوله، للإقدام على انتزاع السبل التي تمكّنه من متابعة الحرب. فهو يودّ، بعد أن يترك للكنديّين مهمّة تحرير سواحل بحر الشمال، أن يحتفظ بالجيش البريطانيّ الثاني التابع للجنرال «ديمبسي»، والجيش الأميركيّ الأوّل التابع للجنرال «هودجز»، مجموعَين في قبضة واحدة هي قبضته، على أن يقذف بهذه الكتلة المتراصّة مباشرة على «الرور» التي كانت تشكّل خزانة سلاح «الرايخ» الثالث الرئيسة، مع ما أحدثته فيها عمليّات القصف من دمار، ومع اللامركزيّة الصناعيّة التي حقّقها «شبير». ومتى تمّ احتلال «الرور»، سار الجيشان الحليفان باتّجاه «الألب». ثمّ باتّجاه «برلين». وربّما أمكن احتلال العاصمة الألمانيّة وإنهاء الحرب قبل عيد الميلاد.

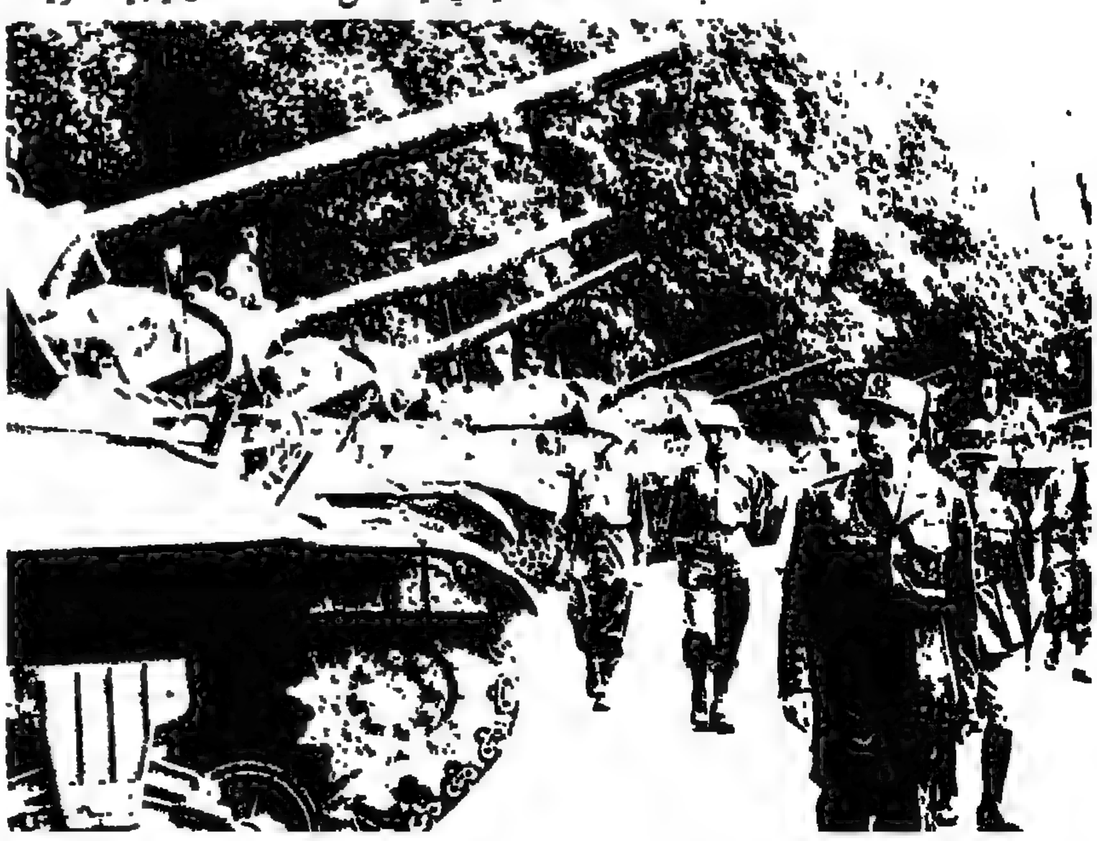

الجنرال «دو لاتر دو تاسينيي» يتفقّد قوّات الجيش الأوّل في «سومبرنون». وقد بدا وراءه الجنرال «مونسابير».

كانت هذه النظريّة تفرض على الجيش الأميركيّ الثالث أن يلزم موقف الدفاع . وهو قبضة قوّات الاجتياح اليسرى التي سبق لها أن كالت للعدوّ ضربة صاعقة بعد ثغرة «نورماندیا». وها انّ الخطّة تقضي عليها الآن بالتوقّف والدفاع . فيما تكيل القبضةُ اليسرى ضربتها بدورها .

ولكنّ الجيش الثالث هو «باتون» نفسه . وقد أعفي من نطاق الكتمان الذي كان قد ضُرب حول اسمه في مطلع الصيف ؛ وإنّ «أميركا» لترى فيه ذلك البطل الذي انتشل معركة «نورماندیا» من عثرتها . واحتلّ «فرنسا» عدْواً . وهو . إلى ذلك ، مغرم بالضجّة ، شغوف بالشهرة ؛ ولذا كان أفضل من زوّد بنشرات الأنباء مراسلي الحرب الذين كان لنفوذهم المفرط تأثيرٌ كبير على مقرّرات القيادة . والواقع أنّه كان يحسن استخدام مكتبه الصحافيّ ، فيحمل بواسطته شكاواه إلى رأي عامّ شديد التيقّظ والانفعال . ولقد قال للصحفيّين يوماً : «بوسع رجالي أن يأكلوا نجادهم . وحتى أحذيتهم . إلاّ أنّهم لا يستطيعون أن يبولوا البنزين الذي يحتاجون إليه لتحريك دبّاباتهم ! . . . » ولقد حمله زهوه المفرط بالجيش الثالث ، ونشوة الزحف ، وبغضُه الخاصّ «لمونتغومري» ، على أن يرى في خطّة هذا الأخير مناورةً تسعى لإلباس الانكليز بردة النصر التي انتزعها الأميركيّون . ولذا فقد حاربها علناً . وهو على يقين من أنّ التعبئة الأميركيّ يشمله بحصانة لا تمسّ .

أمّا الخطّة المناوئة لخطّة «الضربة المركّزة» التي وضعها «مونتغومري» فقوامها زحف تشنّه الجيوش الحليفة على الجبهة كلّها في آن معاً . صحيح أنّ الوسائل لم تكن كلّها متوافرة ، إلاّ أنّها كانت موجودة ؛ فهنالك ٣٠ فرقة ما تزال تنتظر في «الولايات المتّحدة» ، وإنّ لمن شأنها أن تزوّد قوّات الحملة بقوّة لا تُصَدّ ولا تقاوم . ولكن لم يكن بالإمكان أن تُزَجّ في «أوروبا» ، قبل فتح عدّة مرافىء وإعادة بناء جهاز النقل . وفيما كانت هذه القوّات تمثّل الانتصار الأكيد في ربيع ١٩٤٥ ، كان مشروع «مونتغومري» يشكّل فرصة النصر الأخيرة لعام ١٩٤٤ . وبات على «أيك» ، والحالة هذه ، أن يختار ويقرّر .

بيد أنّ قرارات «أيك» لم تكن جازمة حاسمة إلاّ نادراً ؛ زد على ذلك أنّه لم يكن على ما يرام من الصحّة . ففي ١٠ أيلول ، وهو في طريق العودة إلى مقرّ قيادته المزعج البعيد في «غرانفيل» ، هبطت طائرته هبوطاً اضطراريّاً فلكّ فيه ركبته . وفيما هو في هذه الحال ، وقد استلقى على مقعد الطائرة في مطار «بروكسيل» يتلوّى ألماً ، واجه حملة «مونتغومري» الحادّة . ولقد بلغ احتدام اللهجة في لحظة من اللحظات ، درجةً من الحدّة احمرّ لها وجه القائد الأعلى . فقاطعه قائلا : « على رسلك يا «مونتي» . ولا تخاطبني بهذه اللهجة . فأنا رئيسك ! » وتبادل الجنرالان عقب ذلك عبارات برز فيها ما بين مزاجيهما من تناقض . قال «أيزنهاور» : «الحروب تُكتسب بتأييد الرأي العامّ» . -- فأجاب «مونتغومري» : «كلاّ . بل إنّها تُكتسب بالانتصارات» .

وأخيراً تحاشى «أيزنهاور» عمليّةَ المفاضلة والاختيار ؛ فلم يوقف «باتون» الذي ورّط نفسه حول «ميتز» في عمليّات باهظة الكلفة ضئيلة الجدوى ؛ ولم يوقف «هودجز» الذي اصطدم بالجدار الغربيّ على أرض «شني إيفل» غير المؤاتية ؛ سلّم بأنّ الاندفاع نحو «الرور» يشكّل العمليّة الرئيسة الجوهريّة في حملة الخريف . إلاّ أنّ توزيع الوسائل لم يتّفق وصراحة هذا التأكيد . ولقد كتب إلى «مارشال» يقول : «في نيّتي أن أفتح

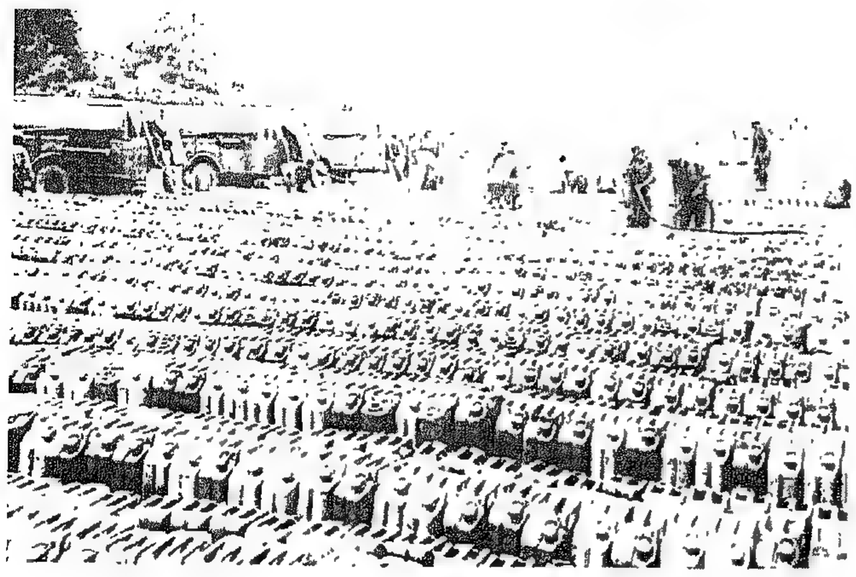

وعاء جديد لم تعرفه «أوروبا» من قبل : إنّه تنكة البترول .

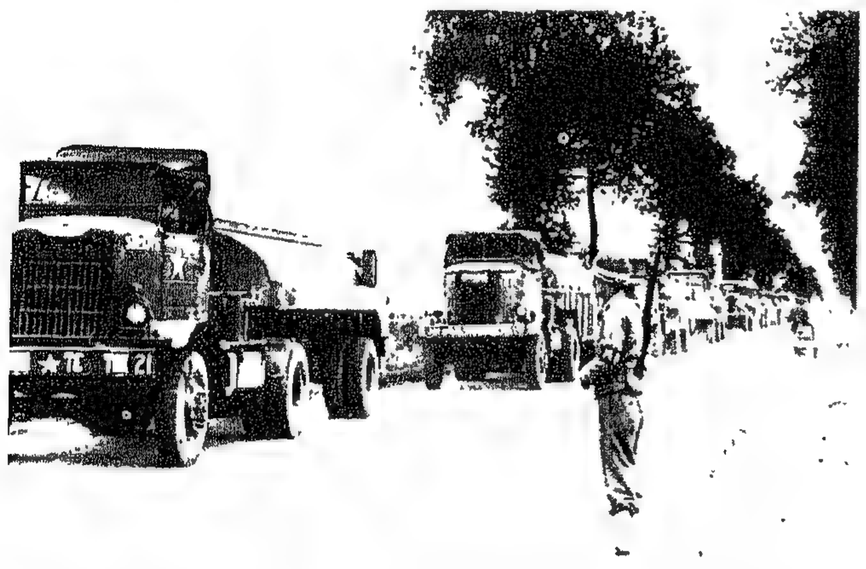

لا يقيّض للزحف الحليف أن يستمرّ إلاّ إذا دعّمه التموين الدقيق المنظّم .

آلاف أطنان الوقود تصل من «أميركا» فيُصار إلى تحويلها إلى قطاعات العمليّات .

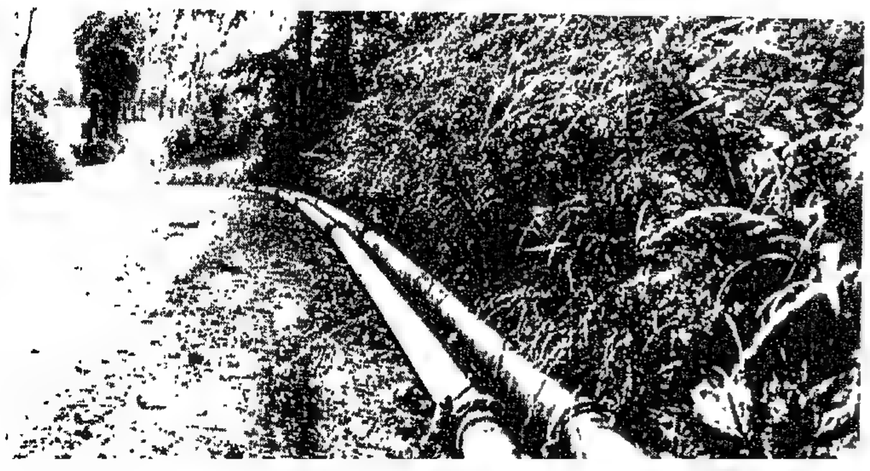

إمتدّت أنابيب النفط التي تزوّد الجيوش الحليفة بالوقود على مئات الكيلومترات .

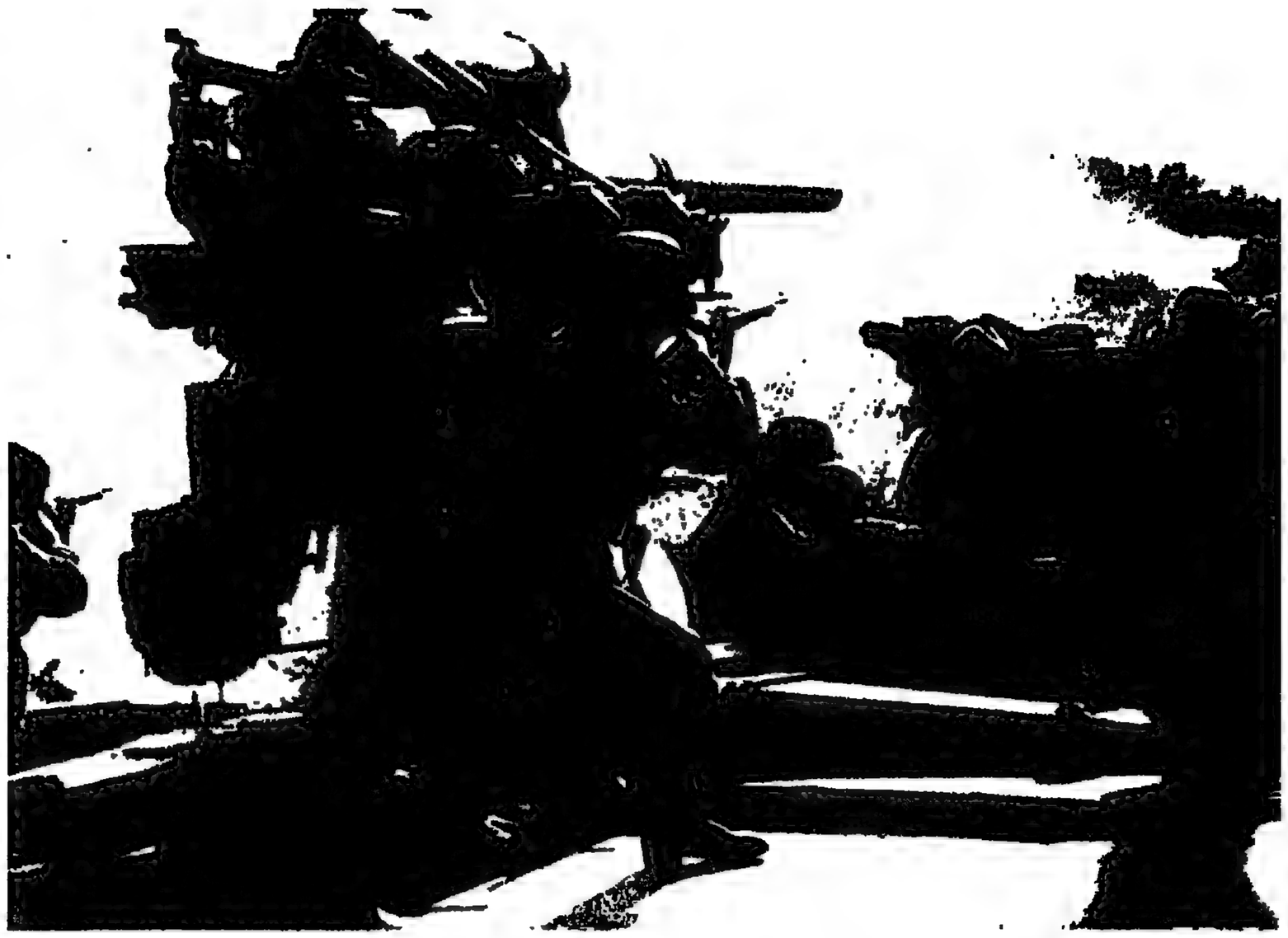

بطاريّة ألمانيّة تهاجمها الفرقة المصفّحة الثانية بقيادة «لوكلير» قرب «ألونسون». وهناك، إلى الشرق، استعاد الجيش الألمانيّ عند حدوده بعض توازنه، ومن ثمّ بعض قوّته.

«السار» و«الرور» في آن معاً. وأن أفرج عن «الهافر» و«أنفير» في الوقت عينه ...»

وفيما الحلفاء منصرفون إلى هذا الجدل عادت «ألمانيا» فتمالكت نفسها. كانت نشرة الأخبار الصادرة عن الأركان بتاريخ ٢ أيلول تصف وضع العدوّ هكذا: «لم يبقَ الجيش الألمانيّ قوّة متماسكة. بل غداعدداً من الشراذم المقاتلة الهاربة المضعضعة اليائسة التي لا سلاح لها ولا عتاد.» كانت هذه اللوحة في ذاك الحين صادقة كلّ الصدق؛ ولكنّ الأوضاع تبدّلت بعد أيّام.

إرتكب الحلفاء خطأً جديداً عمل على تصلّب «ألمانيا» والتفافها حول زعيمها. فقد تبنّى الانكليز والأميركيّون المجتمعون في «كيبيك» للمرّة الثانية، بين ١٣ و١٦ أيلول، المشروعَ المعروف باسم وزير الماليّة في حكومة «روزفلت»، «هنري مورجنتو جونيور»، والمتعلّق بمعاملة الشعب الألمانيّ بعد الاستسلام. وهو يقول بوجوب تدمير الصناعة الألمانيّة كلّها؛ بحيث لا يبقى من المصانع جميعها حجر فوق حجر، ويقضي بتحويل «ألمانيا» إلى بلد زراعيّ ذي طابع رعويّ»! وستكشف الأيّام أنّ واضع «مشروع مورجنتو» عميل شيوعيّ يدعى «ديكستر وايت»، ولسوف يُقدم على الانتحار بعد ذلك بسنوات في عشيّة اعتقاله. وسيتبيّن لنا أنّ الاحتجاجات التي أثارها هذا المشروع لا تُحصى، وأنّ «تشرتشل» و«إيدن» و«ستيمسون» و«كوردل هال» و«هوبكنز» و«ديغول» قد استنكروا خطّة تقضي بالموت على أحد شعوب «أوروبا» الرئيسة، وأنّ «روزفلت» لم يوافق عليها إلاّ موافقة مبدئيّة سرعان ما عاد عنها تحت تأثير مستشاريه. غير أنّ هذه الإيضاحات لن تجلو حقيقة الأمر إلاّ بعد أن يكون المدفع قد لاذ بالصمت. أمّا في خريف ١٩٤٤ فقد وفّر مشروع «مورجنتو» للألمان مبدأ يموتون من أجله والسلاح في أيديهم. وفي سبيل أن يعيد «هتلر» تشكيل جيوشه المدمّرة، أصدر أمراً يقضي بدعوة الألمان جميعهم إلى السلاح، من سنّ السادسة عشرة إلى سنّ الستّين، وابتدع لذلك فرقاً من طراز جديد هي «فرق رماة الشعب»، التي تسلّمت أسماء الفرق الكبيرة التي أُبيدت في «فرنسا» وشاراتها؛ ولكنّ تقليص الفوج إلى حدود كتيبتين، وضغط التشكيلات الأخرى جميعها، خفّضا عدد الرجال الأساسيّ إلى حدود ١٠،٠٠٠ رجل. أمّا العاملون فيها فجرحى خارجون من المستشفيات، ورجال تمّ إنقاذهم من سلاحَي البحريّة والطيران، ففيهم صفوف قديمة مسنّة، وفتيان لا يزالون في مطلع الشباب. لقد كانت هذه الفرق، بما هي عليه، تشكّل عدداً، ولسوف تبزّ بحسن بلائها في القتال فرق جدار الأطلسيّ المحشوّة بأجناد الشرق.

لم يكن العتاد وافراً فائضاً، ولكنّه كان متوافراً كافياً؛ فالحرب الجويّة التي دمّرت عدداً كبيراً من حواضر الفنّ وأحالتها هباءً، لم تكن بعد قد شرعت بالحدّ من طاقة الصناعة الألمانيّة؛ بل إنّ ما أنتجته هذه الصناعة من البنادق والأسلحة الأوتوماتيكيّة، والمدافع المضادّة للطائرات، فاق ما أنتجته في السنة المنصرمة. ولقد صنعت من الدبّابات العدد ذاته تقريباً، ومن الطائرات عدداً أكبر. وقد ضرب الإنتاج الجويّ الألمانيّ رقمه القياسيّ الشهريّ المطلق في نيسان ١٩٤٤، بإنتاج ٤،١٠٣ طائرات، وكذلك سجّلت السنة عينها رقماً قياسيّاً ببناء ٤٠،٩٥٣ طائرة.

ولقد كانت «ألمانيا» إذ ذاك تُعِدّ على صعيد الملاحة الجويّة ثورة المحرّك النفّاث. كان جهاز «مي–١٦٣» قد تجاوز سرعة ١،٠٠٠ كلم في الساعة، للمرّة الأولى في العالم، في ١٠ أيّار ١٩٤١. وغدا اثنان من الأجهزة صالحين للصناعة على نطاق واسع منتظم: جهاز «مي–٢٢٠» ذو المحرّكين النفّاثين، وجهاز «أرادو ٢٣٤». ولكنّ «هتلر» الهاوي أبى إلاّ أن يجعل من جهاز «مي–٢٢٠» الممتاز قاذفة قنابل، لا طائرة مطاردة؛

لقد شاء أن يبني أكثر القاذفات سرعةً، تلك التي أعلن أنّ بوسعها أن تحوّل إلى كارثة كلّ محاولة غزو يقوم بها «الانكلو–سكسون». وحاول قائدان كبيران من قوّاد الطيران الألمانيّ، هما الجنرال «غالاند» والمارشال «ميلخ»، أن يحولا دون ذلك، ولكن من غير جدوى.

طلب الجنرال «مودل» في الغرب أن يُعفَى من القيادة العليا ليتمكّن من الانصراف إلى مجموعة جيوشه. فاستجاب «هتلر» إلى رغبته ساحباً «رونـدشتاد» من التقاعد للمرّة الثانية. كان المارشال القديم – وقد بلغ من العمر سبعين سنة–قد أقسم أغلظ الأيمان أنّه لن يعود إلى تسلّم قيادة بعد. فإذا به ينكث بعهده في أوّل أيلول؛ فقد استدعاه «هتلر» إلى «رستنبورغ» حيث فتنه بسحره، وأعلن أنّه، من ناحيته، مفتون «برونـدشتاد». وقال «لجودل»: «إنّه مدهش عظيم. ولو كان أفتى ممّا هو عليه بعشر سنوات لأسنَدْتُ إليه قيادة الجيوش الألمانيّة العليا. أعرف جيّداً أنّه لا يدين بالقوميّة الاشتراكيّة، وأنّه لا يحبّني. بيد أنّ التاريخ سيعترف منصفاً بأنّي لم أتقيّد قط إلاّ بصالح الخدمة...» ووجد «رونـدشتاد» من ناحيته عذراً لنفسه إذ قال: «لا يستطيع أكبر الجنود الألمان سنّاً أن يلزم بيته عندما يخوض حومة الوغى هذا العدد الضخم من الجنود الفتيان...»

كان على رئاسة هيئة أركان الغرب ضابطان، أحدهما هو «شبايدل». وقد أُوقف مؤخّراً لاشتراكه بمؤامرة ٢٠ تموز؛ والآخر هو «بلومنتريت». وقد فقد ما كان له من حظوة. أمّا ساعد «رونـدشتاد» الأيمن الجديد فسيكون «سيغفريد فيستفال» مساعد «رومل» و«كيسلرنغ» سابقاً. وسيسجّل عقب استدعائه إلى «رستنبورغ» هو الآخر أنّه لم تكن «لهتلر» أيّة فكرة عن خطورة الوضع في الغرب. فهو يرى في ضياع «فرنسا» نتيجة لتضافر بعض الظروف والأخطاء والخيانات، ويرى في التوغّل الانكليزيّ الأميركيّ حتّى حدود «ألمانيا» «سناناً مصفّحاً» بسيطاً يأخذ على نفسه عهداً بتحطيمه. وإنّ إعادة تنظيم الجيوش الألمانيّة في الغرب لرهن التنفيذ؛ فالمجموعة «ب»، التي بقيت تحت إمرة المارشال «مودل»، تضمّ الجيش الخامس عشر البالغ التقلّص، الذي يسدّ منافذ «الإيسكو»، وجيش المظليّين الأوّل. وهو تشكيلة حديثة تمتدّ منطقتها من «نيميغ» إلى «مايستريخت»، وأخيراً الجيش السابع الناهض من الموت والذي يحدّه في الجنوب خطّ يمتدّ من «كوبلانس» إلى «لوكسمبورغ». وإلى جنوبيّ هذا الخطّ تبدأ المجموعة «ج» بقيادة الكولونيل–جنرال «بلاسكوفيتز»، وهي تشمل الجيش الأوّل الذي تمتدّ جبهته الهزيلة حتّى «نانسي»، والجيش التاسع عشر الذي يحاول التوقّف والصمود أمام «بيزانسون» بعدما أفلت من مصيدة «ليون». أمّا جيش الدبّابات الخامس الذي سبق أن سُحب من الجبهة، فكان عليه فيما بعد أن يدعم هذا الجهاز. بلغ مجموع القوّات ٤٨ فرقة من جنود المشاة و١٤ فرقة مصفّحة، يضاف إليها ٤ ألوية مصفّحة – إلاّ أنّ ١٨ وحدة فحسب من تلك الوحدات الكبيرة الـ ٦٦ يُشهد لها بمقدرة قتاليّة كاملة؛ وكثيرة هي الوحدات التي لم يبقَ منها غير مقرّها العامّ.

ونشط العمل وراء الجبهة لإعادة تجهيز خطّ «سيغفريد» بما أمكن من السبل، بعدما أُفرغ من أسلحته وجُرّد من دروعه وألغامه لتقوية جدار الأطلسيّ. وكان هذا الترميم يقتضي عدّة أسابيع من العمل.

ولكن، هل يوفّر لهم الحلفاء تلك الأسابيع؟ ففي مقاطعة «فرانش–كونتيه» أخذت القوّات الفرنسيّة–الأميركيّة تدنو من «الفوج»؛ وفي «اللورين» خشي «باتون» المندفع المقدام أن يُسند إليه «دور الدفاع الكئيب»، فمضى زاحفاً على «ميتز» على أمل أن ينقضّ على «السار» قبل أن يتّسع الوقت «لمونتغومري» بالتحرّك نحو «الرور». هذا وقد أشرف الفيلقان الأميركيّان ٥ و٧ على التحصينات الدفاعيّة الألمانيّة. وفيما بلغت أزمة النقل ذروة اشتدادها، كانت الجيوش الأميركيّة تهاجم كلّها في آن معاً، في جبهة يزيد اتّساعها على ٣٠٠ كلم. ولا يخفى ما في ذلك من توزّع الجهود. وما لبثت الوقائع أن أتت تدينُ هذا الخطأ؛ فقد توقّف «باتش» و«دي لاتر» بسبب تعذّر تموينهما؛ وعلق «باتون» في الوحل اللوريني. أمّا على الحدود اللوكسمبورجوازيّة فعبرت الفرقة الأميركيّة المصفّحة ٥ نهر «السور»، مخترقة خطّ «سيغفريد»، متقدّمة بسرعة جنوبيّ «إيفل»؛ بيد أنّ الأمداد لم تتبع، فما كان من «رونـدشتاد» إلاّ أن تصرّف تصرّف قائد كتيبة، فشنّ هجوماً معاكساً بما جمعه شخصيّاً من عناصر متباينة، فقرّرت القيادة الأميركيّة العودة إلى ما وراء «السور». وفي نقطة أبعد إلى الشمال حاول الفيلق السابع، التابع للجنرال «لوتون كولنز»، أن يقتحم «إكس–لا–شابيل» مارّاً بتخوم غابة «هارتجن»، فاستولى على عدّة دساكر ألمانيّة، منها مدينة «مونشاو» الرومنطيقيّة الصغيرة التي سلمت بفعل أعجوبة؛ إلاّ أنّ هجمات معاكسة حالت دون تقدّمه، فاستحال القتال حربَ خنادق.

الألمان ينسحبون من «فرنسا» وهم ينشدون.

دبّابة ألمانيّة تربض وسط الحقول النورمانديّة متربّصة بالعدوّ الدوائر.

«هتلر» يقلّد «مودل» صليب الحرب بعدما تمكّن من جمع شتات القوّات الألمانيّة عند حدود «الرايخ».

هذا وقد جرت في «هولندا» محاولة أكثر جرأة وأبعد طموحاً: ألا وهي اقتحام نهري شماليّ غربيّ «أوروبا» الكبيرين، وهما «الموز» و«الرين». أُنشىء في «انكلترا»، وبإمرة الجنرال الأميركيّ «لويس هـ. بريرتن»، الجيشُ الحليف الأوّل المنقول جوّاً، وهو أوّل جيش منقول عرفه العالم. كان باهظ الثمن سريع العطب، ولذا اعتُبر بمثابة جيش احتياطيّ بالغ السرعة، وكأنّه الخيّالة المجنّحة المهيّأة للمعارك الحاسمة والجهود الأخيرة. فتقرّر إلقاؤه على «آيندهوفن» و«نيميغ» و«آرنهيم» بغيةَ الاستيلاء على معابر «الموز» و«الرين» السفلى، تحاشياً لخطّ «سيغفريد»!

أخطأت الفكرة لأنّها لم تأت في الوقت المناسب؛ فالجيوش الحليفة متباعدة منهوكة، وأزمة النقل في أوج احتدامها، والستراتيجيّة متردّدة مشتّتة، وكتلة المناورة البريّة اللازمة لاستغلال النزول الجويّ لا وجود لها... بيد أن «مونتغومري» يأمل في أن يحمل نجاحُ العمليّة المنقولة جوّاً (وقد دُعيت اصطلاحاً: «ماركت غاردن») «أيزنهاور» على إهمال نظريّة الزحف بشكل مروحة، واعتناق نظريّة «الضربة المركّزة» بشكل لا يدع مجالاً للغموض واللبس. ولقد أشارت خطّته إلى ذلك بصراحة إذ قالت: «هدفنا الحقيقيّ هو «الرور». تلك كانت آخر ورقة لإنهاء الحرب عام ١٩٤٤.

كان يوم ١٧ أيلول أحداً رائعاً من أواخر آحاد الخريف. وإذا بالأسطول الجويّ يبرز بُعَيد الظهر في شمس ساطعة مجيدة، قادماً من «انكلترا» بطريقين متلاقيين. كان قائد الجيش الألمانيّ المهاجَم، جيش المظلّيين الأوّل، هو الجنرال «شتودنت» عينه، الذي كان، لأربعة أعوام خلت، قد قذف بنفسه على «هولندا» هذه بالذات على رأس فرقة هزيلة من المظليّين. فإذا به الآن، في مقرّ قيادته في «فوغت»، بالقرب من «بوا-لي-دوك»، يقف صامتاً وقد استبدّ به الإعجاب والحسد أكثر ممّا استبدّ به الخوف. فهناك سُحب من المطاردات تواكب ١٠٠٦٨ طائرة محشوّة بالمظليّين. و٤٧٨ جهازاً تقطر عدداً مماثلاً من الطائرات الشراعيّة. أمّا المطاردة الألمانيّة فمعدومة؛ وأمّا المدفعيّة المضادّة للطائرات ففي غاية الضعف بعدما سحقها سحقاً قصفٌ سابق هائل. أمّا الخسائر — وهي ١٨ طائرة شراعيّة و٣٥ طائرة — فأقلّ كثيراً ممّا كان مرتقَباً. وتكاد تعود خصوصاً لحوادث الاصطدام. أتت التقارير الأولى بالكثير من التفاؤل والحماسة: فالعدوّ يبدو وقد أُخذ على حين غرّة، والنجاح يبدو كاملاً.

كان في نيّة «مونتغومري» أن يبسط ما دعاه «بالسجّاده» فوق خطوط المياه الخمسة التالية: قناة «فلهلمين»، و«زويد فيليمس-فارت»، و«الموز»، و«الفال»، و«الرين»، التي تعترض تقدّم الحلفاء من الشرق إلى الغرب. وكان محور العمليّة طريق «آيندهوفن-آرنهيم»؛ فاندفعت فرقة الحرس المصفّحة مستبقةً مجموعة الفيلق البريطانيّ ٣٠، بغية الاتّصال بمشاة الجوّ. ودعم الثغرة العميقة التي فتحوها في خطوط الأعداء. وتقضي مرحلة ثالثة بتمديد رأس جسر «آرنهيم» حتى يبلغ «الزويدرزي»، فيتمّ بذلك تطويق القوّات الألمانيّة المرابطة في «هولندا» الغربيّة وإنشاء قاعدة انطلاق للزحف على «الرور». كان من البديهيّ ألاّ تصطدم هذه الخطّة الجريئة بمعارضة «باتون» وحده، وهو لا يُطيق أن يُسنَد إلى انكليزيّ دورٌ أوّل ما، بل كذلك بمعارضة «برادلي» وقد مال كلّ الميل إلى نائبه المتمرّد الذي سعى إلى إبعاده في أوائل معركة «نورماندیا». وقال بلهجة عسكريّة لا تخلو من الجمال: «عندما أخذت علماً بالمشروع، فوجئت كما لو كنت قد رأيت «مونيي» المتقشّف يدخل عليّ سكران ثملاً!...»

أسهم بالعمليّة ثلاث فرق محمولة جوّاً، تساندها عند الحاجة فرقة رابعة تُركت في «انكلترا». أمّا ميدان القتال فمنطقة خضراء عامرة بالمدن والقرى بقيت سليمة وادعة حتى السنة السادسة من الحرب. كان الهولنديّون خارج بيوتهم ينعمون بيوم الأحد الجميل، بالرغم من وجودهم على مقربة من الجبهة. فإذا بهم يرون آلاف المظلاّت تنفتح، فانفجرت صدورهم مسرّة وحميّة أمام مشهد التحرير يهبط عليهم من السماء! وروى ضابط أميركيّ ما يلي: «كان الاستقبال مهيباً، وكان الهواء يرتجّ حقداً على الألمان...». وصلت الفرقة ١٠١ المنقولة جوّاً، والتي يقودها «ماكسويل تيلر»، إلى الأرض في شماليّ «آيندهوفن» دونما خسارة تقريباً. فانتزعت المدينة في صبيحة يوم ١٨، وما أرخى الليل سدوله حتى التقتها فرقة الحرس. إلاّ أنّ جسر «الزون»، الواقع على قناة «فلهلمين»، كان قد نُسف مع الأسف، واستغرق ترميمه ١٢ ساعة.

أُسندت إلى الفرقة ٨٢ المنقولة جوّاً مهمّةٌ تفوق تلك تعقيداً وصعوبة؛ إذ كان عليها أن تستولي على جسرين كبيرين جدّاً على «الموز» و«الفال» فضلاً عن أربعة جسور ثانويّة على القناة الواصلة بين النهرين. ثمّ كان عليها أن تستولي على مدينة «نيميغ» الهامّة، وأن تحتمي من ناحية الشرق

متطوّعون ألمان استجابوا لنداء الواجب إزاء الخطر المحدق بوطنهم.

مدرّب ألمانيّ يزوّد المتطوّعين بالتعليمات. إنّهم خليط من شيوخ، وفتيان، ومساجين قدامى.

باحتلال جبل «عروسبيك» المكسوّ بالأحراج والذي يشكّل امتداده صلب الأراضي الألمانيّة غابةَ «رايخفالد». هبط من السماء ٢٧٧. ٧ رجلاً لرفقة قائد الفرقة «جيمس غافان». وقائد الفيلق الجنرال الانكليزيّ «براونينغ». فأتى الهبوط رائعاً. وكانت الخسائر أتفه من التي مُنيت بها الفرقة ١٠١ وإذا التقرير نموذج من الإنجاز الظافر: «هبوط كاد لا يصادف مقاومة.» إنتزع فوج المظليّين المشاة ٥٠٤ جسر «غراف» على «الموز» بقناطره السبع وطوله البالغ ٦٠٠ م. في مدى ثلاث ساعات. وسقطت كذلك جسور القناة. وجرى احتلال تلّة «عروسبيك» التي تنتصب كالطود فوق السهل الهولنديّ ويبلغ ارتفاعها ٨٠ م. من غير قتال. وأثبتت التحريّات التي أجريت داخل «الرايخ فالد» أنّ «الدبّابات الألف» التي زعموا أنّها هناك كانت من نسج الخيال. أمّا فرصة الاستيلاء على جسر «الفال» المنيع بلا كفاح فقد فاتت. لم يكن يحرسه غيرُ ١٦ رجلاً من الأنصار. إلاّ أنّ سريّتَي المظليّين المكلّفتين بانتزاعه قد تاهتا في «نيميغ». فتمكّن الجنرال «بيريخ». قائد الفيلق الثاني للدبّابات. من إرسال حامية أشدّ بأساً

شكّل وجود فيلق الدبّابات الثاني بين «نيميغ» و«آرنهيم» مفاجأة مزعجة. ولم تتمكّن أجهزة الاستعلامات الحليفة القديرة من اكتشافه. إنّه لتقصير غريب! ولسوف يزعم بعضهم أنّ العميل الهولنديّ ذا الوجهين «ليندمانز». الملقّب «بكينغ كونغ». قد سلّم الألمان الخطّة. ممّا حمل «روندشتاد» في آخر لحظة على دفع فرقتَي «بيريخ» إلى المنطقة المقصودة. بيد أنّ الوثائق الألمانيّة. والتحقيق الهولنديّ الذي أُجري بعد الحرب. لاتثبت هذه الرواية.

إضطربت أحوال الجوّ يوم ١٩. فحالت دون عمليّات هبوط جديدة. ولكنّ الهجمات الألمانيّة المعاكسة التي انطلقت من «الرايخ فالد» أوقفت على «الغروسبيك»؛ وما أزف المساء حتى التقت فرقةُ الحرس الفرقةَ ٨٢ المنقولة جوّاً في «نيميغ»؛ قطع ثلثا الطريق المؤدّية إلى «آرنهيم»، إلاّ أنّ جسر «الفال». وقد قام على حراسته ٥٠٠ رجل من رجال الصاعقة، قطع عليهم الطريق. ولقد صُدّت كلّ المحاولات المبذولة لمداهمته من ناحية «الهانر بارك» الممتدّة بينه وبين «نيميغ».

أُعدّت العدّة لشنّ هجوم جديد في ٢٠. فزحفت الدبّابات البريطانيّة في «الهانر بارك». فيما عبر المظليّون الأميركيّون نهر «الفال» لمداهمة الحامية في ظهرها. فما كان من الكتيبة الثالثة. التابعة للفوج ٥٠٤. والخاضعة لإمرة الليوتنان–كولونيل «يوليان أ. كوك». إلاّ أن رمت بنفسها في تيّار يسير بسرعة ١٥ كلم في الساعة. على متن ٢٦ زورقاً مصنوعاً من الكتّان وألواح الخشب المعاكس التي كان الانكليز قد أتوا بها. وانطلقت من الضفّة المقابلة طلقات نار حامية. لم يتمّ الرحلة غير ١٣ زورقاً ما لبثت أن قفلت راجعة لتعود بجماعات جديدة. كان اندفاع الحلفاء عارماً. فأُبيد رجال الصاعقة عن بكرة أبيهم. أمّا الجسر فلم يُنسف. ولقد زعمت الرواية الهولنديّة (التي يعبّر عنها نصبٌ تذكاريّ رُفع على الجسر) أنّ الفتى المقاوم «يان فان هوف»، الذي قُتل في الغد على دبّابة انكليزيّة. قد نزع أسلاك التفجير في الجسر تحت وابل من الرصاص. واستناداً إلى التاريخ الأميركيّ الرسميّ لا يفسّر هذه المأثرة «غير تقرير غامض غير مقنع». يقول إنّ المارشال «مودل» كان قد حظّر نسف جسر «نيميغ» نظراً لخطورته. فكان الواجب يقضي بالدفاع عنه لا بتدميره.

تمّ الاستيلاء على معبر «الفال». وبقي أن يتمّ الاتّصال بالفرقة البريطانيّة الأولى المنقولة جوّاً، التي كانت تناضل في «آرنهيم» منذ ثلاثة أيّام. كان هبوطها إلى الأرض قد بلغ درجة من الكمال لم تبلغها الفرقتان الأميركيّتان. إذ لم تفقد طائرة من طائراتها الـ ٣٣٥ ولا طائرة شراعيّة من طائراتها الـ ٣١٩. كان عليها أن تستولي على الجسرين المتقاربين اللذين

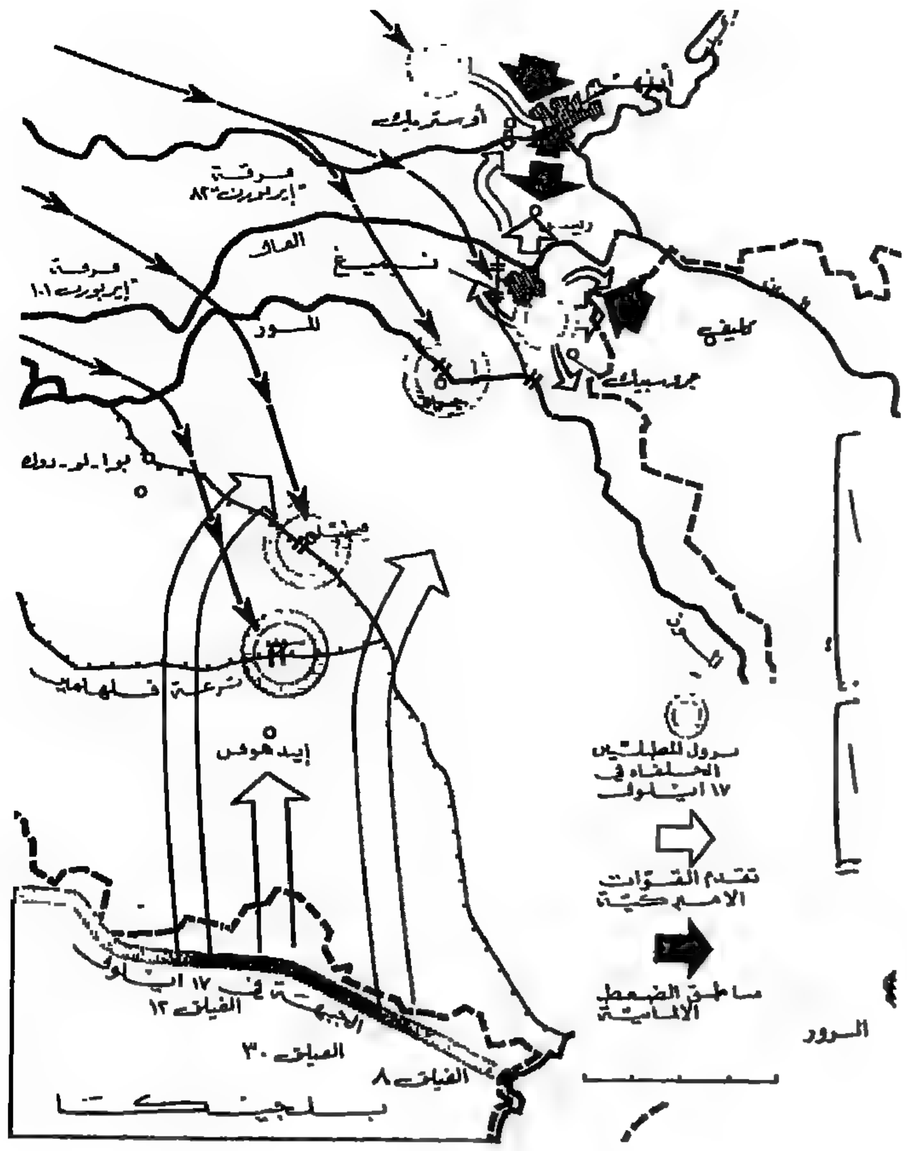

معركة «آرنهيم».

يعبران «الرين الأدنى» في «آرنهيم» عينها. وقد جُعل أحدهما للقطر الحديديّة والآخر للعربات. ولكنّ تقديراً مبالغاً فيه لقوّة المدفعيّة المضادّة للطائرات حمل مع الأسف على جعل مناطق الهبوط بعيدةً عن المدينة. وهكذا كان على «الشياطين الحمر». التابعين للفرقة البريطانيّة الأولى المنقولة. أن يقطعوا مسافة ١٠ كلم تقريباً قبل أن يبلغوا ميدان القتال.

عقب الهبوطَ الرائعَ تجمّعٌ بطيء جدّاً. وتقيّداً بخطّة دقيقة للغاية غاب عن خاطر المظليّين الانكليز أنّ التهوّر هو أفضل أساليب الحذر في عمليّة ثوريّة. ثمّ إنّ المدنيّين لم يسهّلوا الأمور: فلقد خرجوا من المنازل جماعات جماعات عصفت بها نشوة من الغبطة، فراحت تلوّح بأعلام مثلّثة الألوان. أو تحمل شرائط برتقاليّة اللون. وتشدّ بالجنود الانكليز إلى البيوت كيما يُصيبوا شيئاً من الشاي. وهكذا مشى «الشياطين الحمر» إلى القتال في مهرجان. ولم يتّجه نحو الأهداف المقرّرة غير لواء واحد: أمّا الثاني فقد انتشر رجاله انتشار دفاع حول منطقة الهبوط. وإذ أُوقفت كتيبتان عند تخوم «أوستربيك» آلت مهمّة الفرقة بكاملها إلى كتيبة واحدة سارت بإمرة الليوتنان–كولونيل «ك. د. فروست».

وما لبث الجسرُ الحديديّ أن نُسف أمام سيّارة «فروست». ولكنّ الكتيبة تابعت سيرها عبر شوارع «آرنهيم» الضيّقة. فوصلت في الساعة ٢٠.٣٠ إلى مدخل الجسر المعبّد الكبير. فما كان من الجنود القدماء الـ٢٥ الذين أُقيموا على حراسته إلاّ أن لاذوا بالفرار. وبدلاً من أن يعمد «فروست» في الحال إلى احتلال طرفَي الجسر. تهيّب الموقف وأرسل دوريّة تستطلع حقيقة الأمر؛ وإذ تعرّضت هذه لنيران المدفعيّة المضادّة للطائرات قرّر التريّث حتى الفجر على الضفّة اليمنى. وستشير التقارير الألمانيّة جميعها إلى أنّ الانكليز أفسدوا الفرصة التي سنحت لهم ببطء تحرّكاتهم. والواقع أنّهم. على ما يمتازون به من تصلّب وعناد وبطولة واستبسال في الدفاع. يفتقرون إلى تلك الشرارة التي ينطلق منها النجاح الهجومي.

هبط الليل فتحصّن «فروست» في بيوت «نوميغزفيغ» الأولى. بالرغم

إقتضت معركة «آرنهيم» أعداداً ضخمة من المظليّين، ممّا استدعى توزيع عمليّات النزول الجوّي على ثلاثة أيّام نظراً لقلّة عدد الطائرات المطلوبة.

من احتجاجات السكّان. وأعمال العنف التي لجأت إليها عجوز هولنديّة انهالت بشوبك الحلوى ضرباً على محرّري بلادها ومجتاحي منزلها! وبادر الألمان إلى التحصّن في بيوت الضفّة اليسرى. واستسلم الجميع لسبات عميق يهيمن عليه صمت روحانيّ. وما بزغت الشمس حتى نشب القتال عنيفاً ضارياً. عبثاً حاولت كتيبة «فروست»، برجالها الذين يكادون لا يبلغون الـ ٥٠٠، أن تعبر الجسر الذي كان حرّاً مساءَ اليوم السابق. كما باءت بالإخفاق كلّ المحاولات التي بُذلت لدعمها. فلقد أُخفق الانكليز مرّة بعد مرّة، واختفى قائدهم الميجر ـ جنرال «أوكارت» ولم يعد إلى الظهور إلاّ بعد ٣٦ ساعة كان قد احتُجز خلالها في عليّة بيت قد غصّ بالألمان. هذا وقد حال الضباب الأسود الكثيف الذي انعقدت سحبه فوق «انكلترا» دون إرسال النسق الثاني من الفرقة. وأخذ الخناق المضروب حول الفرقة، بالقرب من «أوستربيك»، يشتدّ ويضيق حول الفندق الذي فرّ منه مسرعاً لدى الهبوط القائدُ الأعلى لمجموعة الجيوش الألمانيّة، المارشال «مودل». وكان بوسع الانكليز أن يقبضوا عليه لو توافر لهم شيء من السرعة والحدس.

ومهما يكن من أمر، فلقد بذل الألمان جهوداً جبّارة. يقيناً منهم بأنّ مصير اجتياح الوطن يتقرّر في موقعة تدور رحاها على بعد كيلومترات من الجبهة. وتتالت أوامر «هتلر» اللاهثة توجّه من «رستنبورغ» إلى «آرنهيم» كلّ من استطاع أن يحمل سلاحاً. وهكذا برزت إلى الميدان كتيبة رجالها كلّهم من المشوّهين يقودها ضابط قد بُترت إحدى ساقيه اقتحم النار متوكّئاً على عكّازتين.

لم يبقَ أمام الفرقة البريطانيّة الأولى المنقولة جوّاً غير فرصة واحدة للخلاص. تقوم على وصول قوّات بريّة تؤمّن النجدة على وجه السرعة. لاتتجاوز المسافة الفاصلة بين «آرنهيم» و«نيميغ» ١٧ كلم. ولكنّ الطريق تخترق مروجاً قد غصّت بالمياه. فبات زجّ أيّ جهاز مصفّح فيها أمراً مستحيلاً. في «ريسن» صدّت كتيبة من رجال الصاعقة، تساندها بطّاريّتان من عيار ٨٨، فرقةَ الحرس. فشقّت فرقة أخرى، تابعة للفيلق ٣٠، هي الفرقة ٤٣، طريقاً لنفسها إلى يسار الأولى. ولكنّ تقدّمها على بعض الطرقات الثانويّة كان بطيئاً صعباً. فعمدت القيادة إلى إلقاء ورقتها الأخيرة، بإنزال لواء المظليّين البولونيّين، التابع للجنرال «سوزابوفسكي»، جنوبيّ «أوستربيك». تمكّن العشرات فحسب من اجتياز «الرين» للقاء جنود «أوركوارت». وقد أخذ الحصار يشدّ عليهم الخناق. إذ ذاك استسلم «فروست» الجريح برفقة ٢٠٠ مقاتل بقوا له. أخفقت عمليّة «آرنهيم». وأنقذت البقيّة الباقية. وعاد إلى عبور النهر الكبير، خلال ليلتين ممطرتين، ٢٠٣٩٨ رجلاً من أصل ١٠٠٠٩٥ رجلاً من الذين أُنزلوا شماليّ «الرين». بعدما كانوا قد عبروه بسرعة، فآخرهم الفرقة ٤٣؛ أمّا الباقون فقد أُسروا أو قُتلوا.

مظلّيون ألمان أُسروا في جبهة «هولندا».

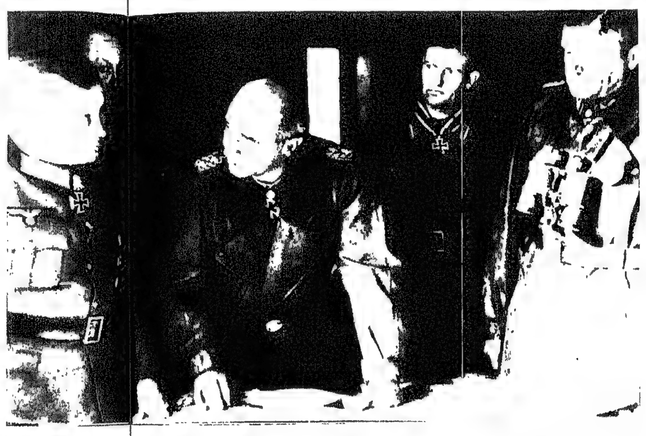

مؤتمر الأركان العامّة في «آرنهيم». ويبدو المارشال «مودل» إلى اليسار، والجنرال «شتودنت» في الوسط منحنياً فوق الخارطة.

خريفٌ مشؤوم

كان إخفاق «آرنهيم» فاتحة خريف قاتم؛ فقد ساءت أحوال الطقس بشكل قاتم عُرف له مثيل، فأغرقت الأمطار الغزيرة «أوروبا» الغربيّة. وسمّعت مجاري الأنهار، وأحالت ميادين القتال بخاراً من الوحل. وظهرت الثلوج منذ مطلع تشرين الثاني. فإذا المعنويّات على صورة الأحوال الجويّة: خمد لهيب تلك الهمّة الكبيرة الفرحة التي شهدها الصيف الظافر. وأفلتت الغلبة من أيدي الحلفاء. فيما أخذت «ألمانيا» تستعيد أنفاسها وتجدّد قواها. وفيما راحت الحرب تنذر بالطول والبقاء. كان الحلفاء قد تبيّنوا مخرج النفق. فإذا بالليل يكتنفهم من جديد.

سقط الصاروخان الأوّلان من طراز «ف٢» على المنطقة اللندنيّة في ٨ أيلول. الأوّل في «شيزويك» داخل حلقة من حلقات «التاميز». وسقط الثاني في غادة «إيبنغ». وفي الأيّام التالية أُحصي من هذه القنابل ٢٥. ثمّ توقّف إطلاقها بتاريخ ١٧. يوم بُوشر تنفيذ عمليّة «آرنهيم». ثمّ استؤنف بكثافة متزايدة ابتداء من ٢٥. كانت هذه الأجهزة تُطلَق من جزيرة «فالشيرين» ومن ضواحي مدينة «لاهاي»، الأمر الذي يشكّل مع إقفال «الإيسكو»، السبب الألمانيّ الثاني القاضي بالتشبّث «بهولندا». كانت سرعة صاروخ «ف٢» تفوق سرعة الصوت، ولذا لم يكن هنالك ما ينبيء بقدومه. وكانت دائرة الموت والخراب التي يحدثها تفوق كثيراً دائرة «ف١». وراحت الإذاعة الألمانيّة، التي كانت تُسمع بحريّة في «انكلترا» ترفع المعنويّات، واعدة الألمان بظهور أسلحة أفتك من هذه كثيراً. وما كانت «انكلترا» الجريح المنهوكة تتبيّن نهايةً لمحنة أنجزت عامها الخامس.

وما زال الوضع في «فرنسا» مقلقاً للغاية؛ فالحاجة إلى الغذاء والوقود واللباس أشدّ منها في أيّة فترة من فترات الاحتلال الألمانيّ. وبالرغم ممّا كان الجنرال «ديغول» يتمتّع به من سلطة واسعة، كانت سلطة الدولة تجد صعوبة كبيرة في بسط هيبتها على بلاد عاث فيها الدمار والتصدّع فساداً. وفي ٢٨ تشرين الأوّل تخطّى «ديغول» الاستنكار الصاخب الذي أعرب عنه «المجلس الوطنيّ للثورة». فحلّ «المنظّمات العسكريّة الوطنيّة» مجرّداً بذلك الشيوعيّين من جيش الحرب المدنيّة التابع لهم. وبات الناس يترقّبون حركة عصيان سافرة ضدّ هذا التدبير. ولكنّ شيئاً لم يحدث. أمّا «موريس توريز»، زعيم الحزب الشيوعيّ، الذي عاد إلى «فرنسا» بعدما صدر العفو عنه لفراره عام ١٩٣٩، فقد أصدر أمره بوجوب الطاعة والأمتثال.

كان تحرير «فرنسا» يعني نهاية الحرب بالنسبة لأكثريّة الفرنسيّين. حاول «ديلاتر» أن يصهر الثوّار في جيشه الأوّل، وحاول «كونيغ» و«لارمينا» أن يشكّلا من «قوّات المقاومة الفرنسيّة» فيلقاً يقتصيان به على جيوب الأطلسيّ. أسفرت المحاولات عن نتائج حسنة عندما جرى تنظيم الثوّار على أسس عسكريّة، كما حدث في «الألب» حيث بُعث بعض الكتائب وأنصاف الألوية من القنّاصة، ثمّ فرقة المشاة الألبيّة ٢٧. أمّا مع الثوّار ذوي الجوهر الرومنطيقيّ الثوريّ فقد كانت نسبة الإخفاق عالية. وهكذا ما انفكّ الجيش الفرنسيّ، الذي يخوض غمار الحرب ضدّ «ألمانيا»، مؤلّفاً بغالبيّته الساحقة من فرنسيّي ومسلمي «أفريقيا الشماليّة». وهذا ما حدا «ديلاتر» في ١٦ كانون الأوّل إلى أن يوجّه إلى «ديغول» رسالة قلقة يقول فيها: «شعور ضبّاط الجيش من أعلى رتبهم إلى أدناها أنّ الأمّة تتجاهلنا وتتخلّى عنّا. ويذهب البعض إلى الاعتقاد بأنّ الجيش النظاميّ القادم من وراء البحر مقضيّ عليه بالفناء عمداً... وسبب هذه النكبة البعيدُ عدمُ إسهام الأمّة بمجهود الحرب.» وختم «ديلاتر» رسالته مطالباً بأن «يتلقّى الجيش الأوّل، بأقرب وقت، الشبّان الفرنسيّين الـ ٨٠٠٠٠ أو الـ ١٠٠٠٠٠ الذين يفتقر إليهم، لاستعادة توازنه المعنويّ وقدرته على القتال.» فوعد بهم «ديغول»، إلاّ أنّه واجه مصاعب كثيرة في توفيرهم.

أمّا في «إيطاليا» فكان الوضع أفجع كثيراً: فحالة البؤس لا توصف، والانحلال الأخلاقيّ لا حدّ له. ولقد علّقت صحيفة «ساتردي إيفننغ بوست» على ذلك قائلة: «في ما عدا البابا، الكلّ يُباع ممّن يدفع الثمن الأعلى». وأشار «بياترو نيّي» إلى أنّ «نسيج المجتمع آخذ في الفساد والانحلال. «فلا البغاء، ولا السوق السوداء، ولا أشكال السرقة كلّها، أفلحت

إستعادت القوّات الألمانيّة صولتها في الجبهة الهولنديّة.

في تهدئة الحوع الإيطاليّ. فهناك ٣٦٠.٠٠٠ رومانيّ ينتمي الكثيرون منهم إلى الطبقة البورجوازيّة. يأكلون في المطاعم الشعبيّة. هذا والحرب ماضية في عنفها. ما انفكّت تكدّس الخرائب فوق الأطلال. وبعد انسحاب رجال الحملة الفرنسيّة. والفيلق السادس الأميركيّ. تلقّت جيوش المارشال «اليكسندر» قوّات استبدال. بينها فيلق برازيليّ. وما لبثت أن عادت إلى تسلّم زمام المبادرة. وما سقطت «فلورنسا» حتّى انقضّ الجيش الأميركيّ الخامس في «الأبنين الأوسط» على الموقع المحصّن الذي دعاه الألمان «خط غروني» والحلفاء «الخطّ القوطيّ». بيد أنّ الشتاء ما عتّم أن غمر الجبال بالثلوج فجمّد العمليّات على أبواب مدينة «بولونيا» وعرف الـ ١٥ مليوناً من الإيطاليّين، الذين ما زالوا يعيشون تحت سلطة «موسوليني» الاسميّة، أهوال القصف والذعر النازيّ. أمّا في ما تبقّى من البلاد فلم ترتسم بعدُ معالمُ المؤسّسات التي كان عليها أن تحلّ محلّ الفاشيّة. فأفاد الشيوعيّون من هذا الفراغ لوضع يدهم على البلاد.

كانت «اليونان» في خضمّ مأساة مريعة. فما جلا الألمان عن «أثينا» في ١٢ تشرين الأوّل حتّى احتلّها الفيلق البريطانيّ التابع للجنرال سير «رونالد سكوبي». ولكنّ المنظّمة المتفرّعة عن الحزب الشيوعيّ، وساعدها العسكريّ، لم يكونا على علم باتّفاق «ستالين—تشرتشل» الذي وضع «اليونان» في المنطقة البريطانيّة، مقابل «رومانيا» و«بلغاريا» اللتين تُركتا «للاتّحاد السوفياتيّ». وفي ٣ كانون الأوّل اندلعت الثورة الشيوعيّة في قلب «أثينا». وراء درع من النساء والأطفال، فأبرق «تشرتشل» إلى «سكوبي» يأمره بالصمود «من غير إراقة الدم إذا أمكن. وبإراقة الدم إذا اقتضى الأمر ذلك.» فما كان من «أميركا» إلاّ أن احتجّت. فاتحة بذلك البابَ لمناقشات حادّة مريرة بين حليفَي الأطلسيّ. وصمد «تشرتشل» صموداً لا تلين له قناة، إلاّ أنّه كان على الجنود البريطانيّين، وعلى اليونانيّين النظاميّين، أن يبذلوا جهوداً قاتلة، طوال أربعين يوماً، لإكراه الشيوعيين على الجلاء عن العاصمة. ولكنّهم عادوا فجمعوا شملهم في الجبال متابعين كفاحاً يُعتبر، بحقّ، فاتحة لنزاع عالميّ جديد تتداخل حوادثه بالنزاع المحرق القائم يومذاك.

في «ألمانيا» كانت معركة «آرنهيم» بمثابة منشّط قوميّ. فما مضى عليها ثلاثة أسابيع حتّى توغّلت جبهة «روسيا البيضاء» الثالثة في «بروسيا الشرقيّة» فبلغت «غومبينن» و«غولداب». ولكنّ الجيش الرابع ما لبث أن مزّقها شرّ ممزّق؛ فعادت إلى ما وراء الحدود مخلّفة في الساح ١٠.٠٠٠ دبّابة. لم يكن ذلك غير نجاح دفاعيّ محليّ. بيد أنّه أنسى الجلاء عن «البلقان». وخسارة «بلغراد». والتوغّل السوفياتيّ داخل «المجر». ومهما يكن من أمر، فإنّ التدفّق الروسيّ الأوّل على الأرض الألمانيّة وسم بطابع العنف، ممّا وفّر للألمان حافزاً جديداً يدفعهم إلى مواصلة القتال حتّى الموت.

في ٢ نُفّذ حكم الإعدام الذي كانت محكمة الشعب قد أصدرته على «فيتزليبن». فعُلّق من زلعومه بكلاّبة جزّار! وفي ١٤ تشرين الأوّل دخل على «رومل»، الذي كان يقضي فترة النقاهة في بيته، الجنرالان «بورغدورف» و«ميزل» فخيّراه بين محكمة الشعب والانتحار. فاختار أن ينتحر. وابتلع السمّ الذي حمله إليه رسولا «هتلر». ووُري الثرى بمأتم قوميّ. تخلّلته برقيّة ملتاعة من الفوهرر! وقد أبّنه المارشال «روندشتاد» المخدوع او المشترك في التمثيليّة! وامتدّت حركة القمع الرهيبة المنكّرة التي انقضّت على رؤوس متآمري ٢٠ تموز حتّى شملت أسماءهم؛ فإذ وشت «بغوردلر» خادمةٌ في نزل صغير، طمعاً في الحصول على مكافأة تبلغ مليون مارك. ألقي القبض عليه وعُذّب ثمّ أُعدم. ولم يكتفِ «هتلر» بذلك، بل أمر بأن يزول اسم «غوردلر» من سجلاّت

الفوس الألمانيّة!

ولم تسلم «أميركا» نفسها من سأم خريف ١٩٤٤ ذاك. ففي «كندا» أثار امتداد حركة التجنيد بعض الاضطرابات في مقاطعة «كيبك» التي عارضت منذ البدء إسهام «الكومنولث» في الحرب. وفي «الولايات المتّحدة». حيث كانت تُنتظر عودةُ «الفتيان قُبيل الميلاد». ولّد إرجاء العودة الظافرة خيبة أمل انعكست آثارها في انخفاض مستوى الإنتاج الحربيّ. وإذا انتخاب «روزفلت» الرابع عمليّة شاقّة عسيرة. فعمدت بطانة «البيت الأبيض» إلى المساحيق تطليه بها ليظهر أمام الناس. وأتلفت الصور التي تُظهر وجهه موسوماً بطابع الموت. أمّا طبيبُه الخاصّ «ماك انتاير». الذي رُقّي إلى رتبة أميرال، فقد جعل وقت عمل الرئيس أربع ساعات في اليوم، وأصدر نشرة صحيّة تثبت أنّ وضع الرئيس الصحيّ لم يكن في وقت مضى، أفضل ممّا هو عليه الآن. ولكنّ البلاد لم تُؤخذ تماماً بهذه الخدعة. فأعادت انتخاب «روزفلت» مقدّمة إيّاه على «توم ديوي» الذي طهّر «نيويورك» من عصابات المجرمين واللصوص، ولكنْ بنصف الأغلبيّة السابقة، قانعة أكثر منها مقتنعة. ومهما يكن من أمر فلقد أكره «روزفلت» على الرضوخ للموجة المحافظة التي اجتاحت «أميركا». فتخلّى عن نائب الرئيس «هنري والاس» المتّهم بموالاة الشيوعيّين، واستبدل به شيخاً مغموراً من شيوخ «الميسوري» يدعى «هاري ترومان».

رفع الحصار عن "أنفير" إنقاذ "ستراسبورغ"...

على الرغم من إخفاق «آرنهيم»، استمرّ «مونتغومري» في بذل ثباته الشهير للإبقاء على المجهود المركّز باتّجاه «الرور». وهو لن يرضخ إلاّ في ١٦ تشرين الأوّل. ولكن بلباقة ومن غير تقيّد ذهنيّ، أمام إرادة «أيزنهاور». قال: «لقد أعربت لك عن وجهة نظري، وأبلغتني جوابك. لن تعود هذه القضيّة إلى نطاق البحث بعد اليوم. وسأجهد في تنفيذ قرارك مثة بالمئة. ولقد خصّصت «أنفير» بالأفضليّة المطلقة في عمليّات مجموعة الجيوش ٢١...»

كان الجيش الألمانيّ ١٥ يسيطر على منافذ «الإيسكو». وعلى رأسه «فون زانغن» الذي حلّ محلّ «فون سالموث» أحد مشبوهي ٢٠ تموز. وبعدما حوصر جزء من الجيش، عدده ٨٠.٠٠٠ رجل، في المنفذ الجنوبيّ. وهو ممرّ «أنفير» المائيّ الرئيس عاد فجلا بطرق مرتجلة إلى جزيرة «فالشيرين» وشبه جزيرة «بيفيرلاند». وقد تركت فرقة المشاة ٦٤ في مكانها لحماية رأس الجسر حول مرفإ «بريسكنز» الصغير، وبقيت فرقة أخرى ممسكة بخواشي «أنفير»، وانبسطت فرقتان أخريان في جبهة رقيقة فوق الترعة من «أنفير» إلى «تورنوت».

إبتدأ الهجوم في ٦ تشرين الأوّل بصولة الفيلق الكنديّ الثاني ضدّ جيب «بريسكنز». إنّها معركة الأراضي المنخفضة، تحت مستوى سطح البحر، في غمرة الماء والوحل، «وهي مهمّة قذرة باهظة الثمن»، على حدّ قول المؤرّخ الكنديّ. وقد استغرق إخضاع الجيب ١٥ يوماً من القتال، ولكنّه خلّف في أيدي الكنديّين ١٢.٧٠٧ أسرى. وإذ كان الألمان في غضون ذلك قد تخلّوا عن ترعة «تورنوت»، تكون «بلجيكا»، في تلك المرحلة، هي البلد الوحيد في «أوروبا الغربيّة» الذي حُرّر برمّته.

بعد بلوغ «الموز» انعطف المجهود نحو الشرق. وقد احتلّت «زويد بيفلاند» في ٣١ تشرين الأوّل بفضل ازدواجيّة بين انقضاض على البرزخ وعمليّة برمائيّة. وفي سبيل إخلاء «الإيسكو» كان ينبغي انتزاع جزيرة

«فالشيرين»، التي لقبّها «هتلر» بالقلعة، والتي أمر بالدفاع عنها بضراوة.

كلّ شيء غريب هناك. فالجزيرة بكاملها قائمة تحت مستوى سطح البحر، باستثناء ناتئة من التلال الرمليّة، وزنّار سدودها الهائل. وأمّا الحامية فهي فرقة المشاة ٧٠ عينها، فرقة أمراض المعدة! وطرأت للجنرال «سيموندز»، الذي حلّ موقّتاً محلّ الجنرال «كريرر»، فكرة نسف السدود بواسطة الطيران الجوّي الملكيّ، فتدفّقت مياه البحر وغطّت داخل الجزيرة، مرغمة المدنيّين الهولنديّين والجنود الألمان على الفرار إلى السدود في خليط فوضويّ. وشُنّ الهجوم في أوّل تشرين الثاني، فاستسلم الجنرال «داسير» في ٦. فكانت حصيلة الحلفاء ٤١،٠٠٠ أسير، فيما فقدوا ١٢،١٧٠ قتيلاً أو جريحاً أو مفقوداً. بذلك فُتح باب «الإيسكو».

في ٢٨ تشرين الثاني خاضت أوّل قافلة النهر. ولكنّ تجربة هائلة قد بدأت بالنسبة «لأنفير». فقد أمر «هتلر» بسحقها بالصواريخ «ف»؛ وقد كُرّس لهذه المهمّة ٣،٧٠٠ «ف ١» و«ف ٢»، أكثر من ضعفي ما سيتساقط على «انكلترا». وقد أصابت ١،٢٥٠ منها منطقة السكن، قاتلة أو جارحة ١٠،٠٠٠ من الناس، منهم ٨٥٨ في سينما «ركس» يوم ١٦ كانون الأوّل. فوابل الموت هذا، الذي زاد في فداحته إضرابُ عمّال الأرصفة، قد خفض نتاج المرفإ اليوميّ إلى نحو من عشرة آلاف طنّ، وأحبط حسابات الحلفاء في ميدان تموين الجنود.

من الجهة الحليفة، تقرّر القيام بمجهود حاسم لمحاولة إنهاء الحرب في ١٩٤٤. وفي ١٨ تشرين الأوّل، في «بروكسيل»، قرّر القادة الكبار شنّ هجوم عامّ تشترك فيه مجموعات الجيوش عامّة. ولسوف تنجز المجموعة ٢١ تحرير «هولندا». وأمّا المجموعة ١٢ (التي دُعمّت بجيش جديد هو الجيش الأميركيّ التاسع بقيادة الجنرال «وليم هـ. سيمبسون») فلسوف تهاجم من كلتا ناحيتي «الأردين». وأمّا المجموعة ٦، بقيادة الجنرال «ل. ديفرز»، والتي تضمّ الجيش الأميركيّ ٧ والجيش الفرنسيّ الأوّل، فلسوف تبلغ «الرين» وتجتازه حول «ستراسبورغ». وكان يُرجّى أن تنهار المقاومة الألمانيّة تحت عبء هذه الضربات الكثيرة التي تنصبّ عليها في آن معاً.

وعادت نيران معركة «إيكس–لا–شابيل» إلى التأجّج بعدما توقّفت مدّة من الزمن، فأصبحت المدينة أطلالاً. كانت قيمتها الستراتيجيّة منعدمة. ولكنّ قيمتها الرمزيّة كانت ضخمة. فإذا استولى الحلفاء على أولى مدنهم الألمانيّة الكبيرة، سوف يفصمون السحر الذي ذاد حتى تلك الحقبة عن حدود «الرايخ». وأمّا «هتلر» فقد التمس في المدينة روحاً جرمانيّة متقدة كان يحتّم الإبقاء عليها مهما بلغ الثمن.

وراح المنفّذان «هودجز» و«سيمبسون» يعملان بعزم دائب. وقد تقدّم الكلاّبتين اللتين راحتا تُطبقان على «إيكس» قصفٌ بالمدفعيّة والطيران. وفي ١٦ تشرين الأوّل، في الساعة ١٦،٣٥، اتّصلتا، فطوّقتا المدينة في حوضها الصغير الذي يتعذّر الدفاع عنه. وأطلق «هتلر» نداءه المعتاد: الموت تحت الأنقاض على الاستسلام. فما كان من الكولونيل «فيلك» إلاّ أن قام بما كان يقوم به قادة الأماكن المحاصَرة أكثر فأكثر، فردّ على الفوهرر بتصريح مفحم، وفي ٢١ تشرين الأوّل رفع الراية البيضاء مختاراً الحياة.

وفي ١٦ تشرين الثاني، شنّ الجيشان التاسع والأوّل هجوماً عامّاً، وهدفهما بلوغ «الرين».

كان على جيش «سيمبسون» الذي يهاجم في ثغرة من خطّ «سيغفريد» أن يستولي على الدساكر العديدة المنتثرة فوق سهل «ايشفايلر» واحدة واحدة. وكان جيش «هودجز» يقاتل على سفوح «الإيفل» الوعرة المجرّحة التي كستها الثلوج، فكانت الخسائر والآلام ثخينة. وبلغت المعارك درجة حادّة من الضراوة؛ فقرية «هورتغن» في الغابة التي تحمل الاسم نفسه، قد انتقلت من يد إلى يد ١٤ مرّة، وانتقلت قرية «فوسناخ» في غابة «مونشاو»، من يد إلى أخرى ٢٨ مرّة. وفي أواسط كانون الأوّل بلغ الجيشان الأميركيّان حدود «الروير»، ولكن لم يتمّ لهما أخذ «جوليخ» ولا «دورين»، فبقي «الرين» بعيداً.

قطع «جورج باتون» على نفسه عهداً ببلوغ «الرين» قبل الجميع، من خلال «اللورين» و«البالاتينا». وكانت أمطار الخريف العرمة، وأزمة النقل، قد شلّت جيشه الثالث طوال شهر تشرين الأوّل؛ فانطلق في ٨ تشرين الثاني تمشّياً مع قرارات «بروكسيل»، ولكن من غير أن يبلغ «برادلي» ولا «أيزنهاور»، لشدّة ما كان يخاف من أن يُطلب إليه انتظار «هودجز» و«سيمبسون». كانت الأحوال الجوّية مقبولة في اليوم الأوّل، ولكنّها أصبحت سيّئة فيما بعد. ولم يكن من شأن الترف الأميركيّ — كان كلّ رجل في السرايا يتسلّم يومياً زوج جوارب مع المؤونة — أن يحول دون تكبيد الفرق ٣،٠٠٠ حادثة من حوادث تجلّد الأرجل. وطلب «باتون» إلى كاهنه المنذهل إقامة صلاة تطلب بلهجة آمرة إلى الله العلي القدير أن يوقف الأمطار! فكانت النتيجة ممتازة، ولكنّ هذه الفكرة لم تطرأ للجنرال إلاّ قُبيل الميلاد، أي بعد فوات الأوان.

كانت «ميتز» هي الهدف الأوّل للجيش الثالث. وكما كانت الحال بالنسبة «لإيكس–لا–شابيل» طُوّقت المدينة أوّلاً. وقامت فرقة المشاة ٩٠ — التي أصبحت إحدى أفضل فرق الجيش الأميركيّ — تساندها الفرقة المصفّحة ١٠، باقتحام ممرّ «الموزيل» حول «تيونفيل»، ثمّ انعطفت في الاتّجاه الجنوبيّ الشرقيّ. واجتازت «الساي» فرقة أخرى من الفيلق هي الفرقة الخامسة، ثمّ تقدّمت صُعُداً نحو الشمال الشرقيّ. وتمّ الاتّصال في ١٩ تشرين الثاني، على طريق «بولي». كانت الفيضانات وحالة الأرض، والرؤية السيّئة، والبرد القارس، قد أثقلت سير الهجوم، ولكنّ الألمان، الذين كانوا سيّئي الكسوة والتموين، ذاقوا الأمرّين؛ فتفكّك الجناح الأيمن في جيشهم الأوّل، فما كان من الفرقة المصفّحة العاشرة إلاّ أن يمّمت شطر «السار» من غير أن تنتظر سقوط «ميتز».

وبالطبع نصّ «هتلر» على أن يُدافَع عن «ميتز» حتى الموت! وبعدما اتُّهم الجنرال «لوبي» بالميوعة، استُبدل به الجنرال «كيتيل» الذي جعله الفوهرر يؤدّي قسماً خاصّاً بطولياً. إلاّ أنّ أركان الجيش الأوّل العامّة قد أخذت على عاتقها سحب أفضل القوّات من المصيدة، فيما هرب بمحض إرادته فوجٌ صاعق وكلّ ما آل اليه «كيتيل» هو أنّه أُصيب بجرح مميت في ساحة القتال. وقد حُرّرت «ميتز» في ٢٠ تشرين الثاني من غير أن تتكبّد أضراراً بالغة.

إجتاز الفيلق الأميركيّ ١٢، الذي كان يهاجم إلى جناح الجيش الثالث الأيمن، خطّ «ماجينو» قرب «سان–أفولد». وقد تمّ بلوغ الحدود في ٢٩ تشرين الثاني، وفي ٢ كانون الأوّل تمّ اجتياز «السار» قرب «سارلوي». وكان «باتون» المتفائل قد باشر مسبّقاً إعداد عبور «الرين» بين «وورمز» و«سبير»، ولكن على غرار ما حصل في «إيكس–لا–شابيل»، كانت المقاومة تستعيد قواها على الأرض الوطنيّة. وقد توجّب انتزاع بعض الشوارع في «سارلوي» منزلاً منزلاً، وفي منتصف كانون الأوّل أوقف الجيش الثالث من الوجهة العمليّة، فإذا «بياتون» المندفع ما يزال بعيداً عن «الرين» بُعد «هودجز» المنظّم عنه.

كان تشرين الأوّل شهر خيبة بالنسبة للمجموعة ٦ وللمجموعتين الأخريين على السواء. فقد عادت مواصلاته مع «مرسيليا» ولكن بجهد، وكان من شأن نقص الوقود والقذائف أن يخفّف من وطأة القتال. وكانت المجموعة مشدودة إلى اتّجاهين متباينين؛ كان الفرنسيّون يرغبون في دخول

لم يبقَ من «سان فيت» في «بلجيكا» إلاّ أنقاض تكفّنها الثلوج.

في معسكر «سينزيغ» في «ألمانيا» تكدّس ١١٦ ألف أسير . وقد فُرض على الكثيرين منهم أن يقوم بأعمال التعمير في «فرنسا» .

في مكان ما من «بلجيكا» رقد هذا الجنديّ الأميركيّ رقاده الأخير عند أقدام دبّابة .

على دروب "أوروبّا" المجرَّرة

رافقت الحملة الثانية في «فرنسا» و «بلجيكا» و«هولندا» اعتباراتٌ سياسيّة معقّدة . ذلك أنّ عهد المعاهدات كان على الأبواب ، وكانت مغانم النّصر العائدة إلى المحاربين رهناً بما يحتلّونه من رقع الأرض . وهكذا رأينا «فرنسا» تستعيد المكانة التي كانت لها سنة ١٩٤٠ بفضل «الوكلير» و «دي‌لاتر» ؛ ورأينا «انكلترا» تسارع إلى مرافىء بحر الشمال بغية الحؤول دون سقوطها في أيدي الروس ؛ ورأينا الروس ينطلقون كالسهام صوب «برلين» . أمّا الأميركيّون، وهم الذين كانوا أقلّ من هؤلاء وأولئك تورّطاً في السياسات المحليّة الأوروبيّة ، فقد وقفوا من الحرب موقف الفنيّين والمموّلين والمزوّدين .

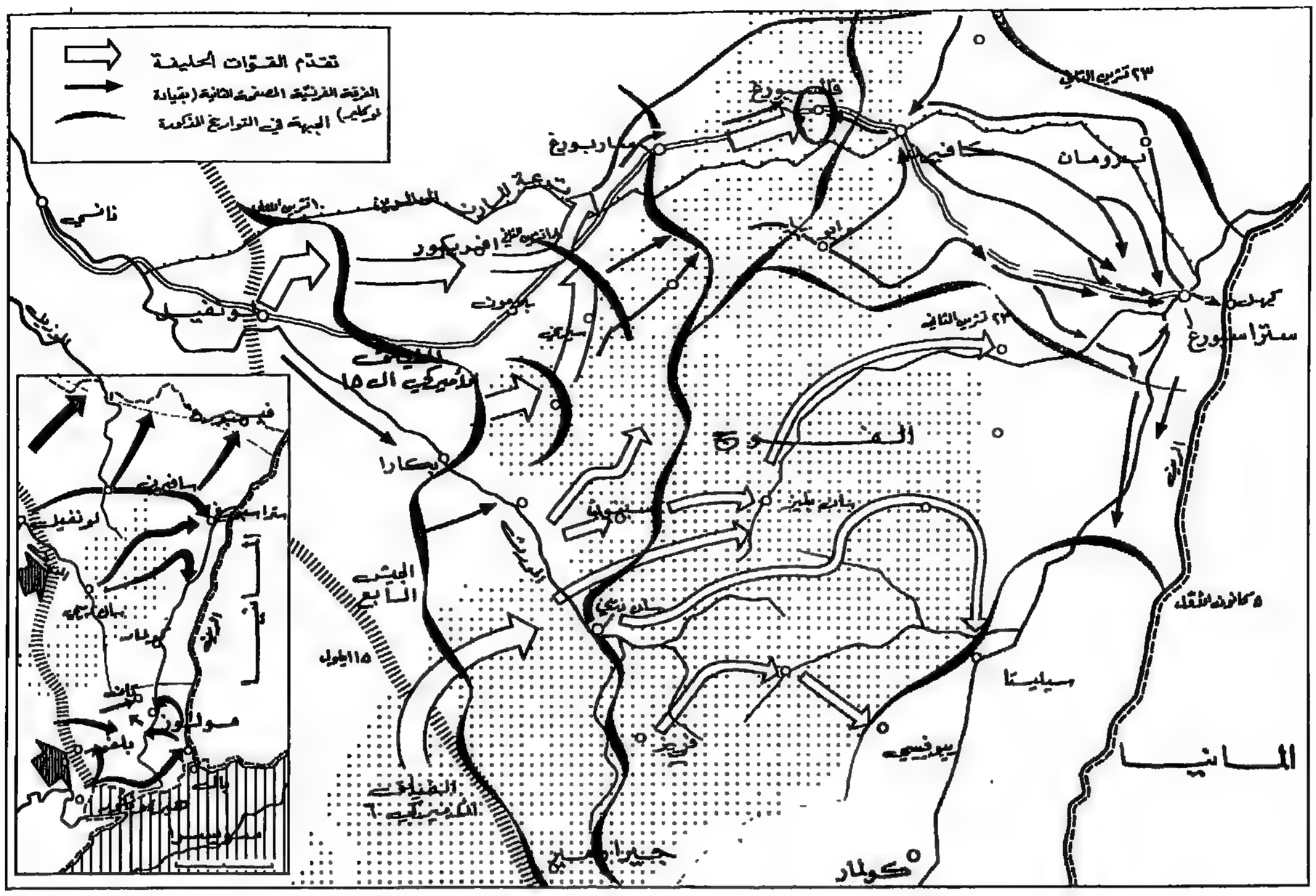

الفرقة الفرنسيّة المصفّحة الثانية في انطلاقها إلى «سافيرن» و«ستراسبورغ».

«الألزاس» من فجوة «بلفور». فيما كانت الأركان العامّة الحليفة تجتذب مجموعة «ديفيرز» في أتّجاه الشمال لضمّها إلى جيوشها الأخرى.

في أوائل كانون الأوّل كانت مجموعة الجيوش منبسطة في «لونيفيل» إلى جوار «مونبيليار». بصرف النظر عن فرقة مشاة فرنسيّة وعن مجموعة انكليزيّة أميركيّة كانت تحرس الفجاج الألبيّة. وكان مخطّط «بروكسيل» قد أوكل إليها مهمّة اقتحام فرجة «سافيرن»، والاستيلاء على «ستراسبورغ»، وإقامة رأس جسر على ضفّة «الرين» اليمنى. وقد آلت المهمّة الرئيسة إلى الجيش الأميركيّ السابع. وأمّا الجيش الفرنسيّ الأوّل، الذي كان مهدّداً بالبتر أو بالانحلال في عمليّة إخضاع جيوب الأطلسيّ، فقد اقتصر دوره على متابعة عمليّاته وحماية جانبه الأيمن.

راح «دي لاتر» يقاوم. فقد وضع مخطّطاً لإخضاع «بلفور»، وأعرب عن استعداده للدخول إلى «الألزاس» من الجنوب. وبعد ما ألحّ في الطلب منح حرّيّة في التصرّف مطلقة. ولسوف تجري عمليّتان مختلفتان في آن معاً إلى شماليّ «الفوج» العليا وجنوبيّها. الواحدة عبر ثغرة «سافيرن». والثانية من خلال ثغرة «بلفور».

اليوم ١٤ تشرين الثاني. كان الثلج قد تساقط عاصفاً في الليلة السابقة. وفي الصباح كان القشاع طفيف. وكانت فرقة رماة الشعب الألمان ٣٣٨. التي تسيطر على ٣٠ كلم من الجبهة بين «سويسرا» وطريق «بلفور ـ بيزانسون»، ناعمة البال، لا تتوقّع البتّة أن تُهاجَم. وكان رئيسها، الجنرال «أوشمان»، يتفقّد مخافره الأماميّة، ففاجأه في إحدى الغابات انقضاض المناوشين المغاربة من فرقة مشاة المستعمرات ٩، فقُتل برصاصهم. وكانت فرقته مؤلّفة من عناصر متفرّقة، منها كتيبة تضمّ صمّاً فحسب! فدافعت عن نفسها دفاعاً مشرّفاً، ولكن يائساً. وإلى الجهة اليمنى سار عنصر من فرقة مشاة المستعمرات ٩ بمحاذاة الحدود السويسريّة، وفي الساعة ١٨،٣٠ من يوم ١٩ بلغ «الرين» في «روزونو»، بالقرب من «بال». وإلى اليسار امتدّ القتال على مجمل جبهة الفيلق الأوّل، فتمّ الاستيلاء على «هيريمونكور»، و«مونبيليار»، و«سوشو»، و«هيريكور». وأمر «هتلر» بأن يُدافَع عن «باب بورغونيا»، إلاّ أنّ الأمداد وصلت متأخّرة، فلم يمكن إنقاذ «بلفور»؛ فسقطت المدينة في ٢٠ في يد فرقة المشاة الآليّة الثانية.

إلى شمال «الفوج» هاجمت فرقة المشاة الأميركيّة ٤٤ ثغرة «سافيرن» التي كانت منفرجة وكأنّها فوق صهوة جواد على طريق «ستراسبورغ» الكبيرة، عبر «أفريكور»، و«ساربور»، و«فالسبور». وشنّت فرقة المشاة الأميركيّة ٧٩ هجومها من طريق «دابو» الثانويّة، وفجّ «فولفبرغ»؛ وراحت الفرقة المصفّحة ٢ تدعم هذين المجهودين، وهي مجزّأة إلى مجموعات تكتيكيّة أربع.

في ١٩ تشرين الثاني حدثت الثغرة. وصمدت «فالسبور» بعد دفاع قويّ، إلاّ أنّ الأميركيّين كانوا قد استولوا على «بلامون» و«سيري»، فاتحين الطريق أمام الدبّابات الفرنسيّة. ودخلت هذه الدبّابات غابة «فانجنبور»، واجتازت فجّ «فولفسبرغ»، ثمّ زحفت إلى «سافيرن» والتفّت حول «فالسبور». وسارت مجموعات «لوكلير» التكتيكيّة الأربع في اتّجاه واحد نحو «ستراسبورغ» تحت وابل من المطر. وأحبطت مساعي ثلاث منها بسبب حصون الغرب، «بيتان» و«كليبر» و«جوفر»؛ وأمّا الرابعة، التي استدارت من خلال «برومات»، فقد دخلت المدينة في الساعة ١٤،٣٠ من ٢٣ تشرين الثاني وهرعت إلى جسر «كيل»، وهي على أهبة الاستعداد لمتابعة تقدّمها على ضفّة «الرين» اليمنى، ولكنّ الجسر تفجّر أمامها.

وهكذا، وبفضل أحداث غير مرتقبة، كانت أبهر الانتصارات في

حملة الخريف من حظّ جيوش الجناح الأيمن. جيوش «باتون» و«باتش» و«ديلاتر». ولكنّها لم تنفذ لسوء الحظّ إلى أيّة وجهة ستراتيجيّة. وهي. فضلاً عن ذلك. قد رفعت تفاؤل الأركان العامّة إلى درجة المبالغة. وبعد الاستيلاء على «بلفور» و«مولوز» و«ستراسبورغ»، استنتج الجنرال «ريفرز» أنّ «الجيش الألمانيّ ١٩ قد زال كقوّة تكتيكيّة. «وقدّر. على هذا الأساس. أنّ الجيش الفرنسيّ الأوّل كان كافياً لإنجاز تطهير «الألزاس» العليا. وأنّ بإمكانه أن ينقل جيشه الأميركيّ السابع إلى يمين «باتون» للإسهام في غزو «البالاتينا». ولسوف يشهد شهر كانون الأوّل الفيلقين الأميركيّين ١٥ و١٦ مشتبكين في معارك قاتمة من كلتا ناحيتي «الفوج» السفلى في اتّجاه «سارغومين» و«بيتش» و«فيسمبور».

تولّد هجوم "الأردين"

إلاّ أنّ «هتلر» لم يرضَ أبداً بفقدان معركة الغرب. ومنذ شهر أيلول أكبّ على تحضير هجوم معاكس يستهدف تكبيد الحلفاء ثمناً باهظاً مقابل انتصاراتهم في «نورماندیا» و«بروفانسا».

في ٩ تشرين الأوّل استحضر «هتلر» المعطيات المختلفة التي طلب من القيادة الحربيّة العليا أن تدرسها. وقد كانت خمساً: «هولندا»، منطقة «إيكس-لياج». «لوكسمبورغ». «الورين». «الألزاس». وكانت كلّها عمليّات هجوميّة معاكسة ذات أهداف محدودة. وإليك هذين المثالين: كان الهجوم المعاكس «لوكسمبورغ» يستهدف استرجاع مناجم الحديد في «لونغوي». أمّا الهجوم المعاكس «الألزاس» فقد كان يرمي إلى استرجاع «فيزول»، إلخ ...

ولم يدلِ «هتلر» برأيه للحال. إلاّ أنّه طلب إحضار ملفّات الجيشين الرابع والثانيّ عشر لحملة ١٩٤٠. فهذان الجيشان هما اللذان اجتازا «الأردين» واخترقا الجبهة إلى «الموز»؛ ولكن تبيّن أنّ الوثائق التي طالب بها الفوهرر قد فُقدت: فقد حوّل القصف محاضر النصر هذه إلى رماد!

خلال تشرين الأوّل تدعّمت الجيوش الألمانيّة وتجمّعت. ولسوف تصبح موزّعة على الشاكلة التالية: ١) من البحر الشماليّ إلى محاذاة «دوسيلدورف». مجموعة الجيوش «ه». بقيادة الكولونيل-جنرال «شتودنت»؛ ٢) حتى «الموزيل» مجموعة الجيوش «ب». بقيادة الفيلدمارشال «مودل»؛ ٣) حتى «كارلسرو» مجموعة الجيوش «ج». بقيادة الكولونيل-جنرال «بالك». الذي حلّ محلّ «بلاسكوفيتز»؛ ٤) حتى الحدود السويسريّة مجموعة الجيوش «أوبرهاين» التي استدعى «هتلر» لقيادتها رايخ فوهرر الصاعقة «هاينريخ همار». ولم يكن واحد من هؤلاء القادة الكبار واقفاً على نيّات الفوهرر. وأمّا الهجوم الذي كان يخطّطه فلسوف يحمل في التاريخ اسم «هجوم فون روندشتاد». ولكنّ. في الواقع، لن يكون «لروندشتاد» في خلقه وفي تحضيره وفي تنفيذه غير دور تافه. كان «هتلر» يعمل منفرداً، في ريبة شرسة من جنوده أنفسهم.

أمّا الأمر الذي كان مستحيلاً إخفاؤه عن قادة الجيوش أو عن المكاتب الثانية الحليفة: فهو أنّ قوّات من النخبة قد سُحبت من خطّ النار أو أُعيدت من الجبهة الشرقيّة. فالجيش المصفّح الخامس، الذي كان يقوده جنرال شاب يبلغ الرابعة والأربعين من عمره هو «هاسّو فون مانتوفيل»؛ تلاشى في معركة «اللورين». وهنالك فيلقان مصفّحان صاعقان اقتُطعا من الشرق، وشكّلا، تحت ستار الكتمان، جيشاً مصفّحاً سادساً أسند «هتلر» قيادته إلى سائق سيّارته السابق وحارسه الخاصّ، «سيب ديتّرتش». هذا وقد كان الجنرالات الألمان والأركان العامّة الحليفة على السواء في طور الافتراضات والنظريّات. فراحوا يفكّرون في إنشاء كتلة هجوم معاكس تقاتل للوصول إلى ضواحي «الرور» إذا ما تداعت جبهة «الروير».

في ٢٤ تشرين الأوّل بدأ الغشاء ينقشع من عن ذرى الجيش الألمانيّ العالية. فقد استُدعي إلى «بروسيا الشرقيّة» رؤساء أركان «مودل» و«روندشتاد» العامّون. والجنرالان «كريبس» و«فيستفال». فأصغوا إلى عرض لفكرة الفوهرر. إعترف «هتلر» بأنّ تقويم الوضع على حدود «ألمانيا». بعد هزائم الصيف الكبرى. لم يكن غير أعجوبة ليس إلاّ. ولكنّ العجائب لا تتكرّر. فمتابعة المعركة الدفاعيّة لا يعني إلاّ تأخير غزو «الرايخ». وعندما يتمّ للأميركيّين فتح مرفإ «أنفير» من جديد، سوف تتدفّق القوّة التي ستتوغّل في هذه الجادّة البحريّة لتضرب الجبهة الألمانيّة بصورة لا تُقاوم. لقد كان بالتالي ضرورياً حيوياً، أن تُستعاد «أنفير»!

وبعدما عرّف «هتلر» بالغاية، بيّن أنّ الوسائل لبلوغها متوافرة. لقد كان العدوّ تعباً، وكانت فرقه السبعون غير كافية للسيطرة بقوّة على جبهة تبلغ ٧٠٠ كلم. وعلى الجبهة الروسيّة كان القتال مستقرّاً. ممّا مكّن من إجراء سحب قوّات هامّة. ولسوف يغدو بإمكان مجموعة الجيوش «ب» تسلّم مدد قوامه ٢٠ فرقة للمشاة، و١٠ فرق مصفّحة، و١٠ فيالق مدفعيّة. ومن ناحية الحماية الجويّة، وعد «غورنغ» بتسليم ٣٠،٠٠٠ مقاتلة. حقّاً انّ «غورنغ» لن يتبدّل، ولربّما ستكون مقاتلاته الـ ٣٠،٠٠٠ ألفين فحسب، ولكنّها سوف تضمّ أوّل مئة طائرة نفّاثة «دوسنياغر»، وهي تفوق أقوى طائرة يمتلكها الأميركيّون والانكليز. وفضلاً عن ذلك، فإنّ رداءة الطقس المرتقبة في ذلك الفصل، ستخفّف من شأن الطيران.

بقي تطبيق الهجوم. وباح «هتلر» لرئيس الأركان العامّة بأنّه قد اختار أن يشنّ هجوماً في «الأردين»؛ واعترف بأنّ الجليد والثلج سيجعلان عبورها أكثر صعوبة ممّا كان عليه في أيّار ١٩٤٠، إلاّ أنّ العدوّ كان ضعيفاً في تلك المنطقة، وكان بالإمكان مفاجأته شريطة أن يبقى السرّ طيّ الكتمان.

وحمل «فيستفال» و«كريبس» هذا المخطّط الجريء إلى روسائهما. فإذا بهما إزاء رجال شديدي الريبة. كان «روندشتاد» و«مودل» من محبّذي الهجوم، ولكنّهما اعتبرا أنّ فكرة السير إلى «أنفير» خياليّة، وأنّهما يرتجيان هدفاً أكثر واقعيّة. وتضرّع «فيستفال» إلى «روندشتاد» أن يحمل اعتراضه بنفسه إلى «هتلر»، ولكنّ العجوز كاد يجنّ لمجرّد التفكير بذلك: كان يعلم أن الطاغية سوف يقطع عليه كلامه من بدايته، وأنّه سوف يضطرّ إلى سماع خطبة خياليّة لن يفقه لها معنى.

في ٣ تشرين الثاني وصل «جودل» إلى مقرّ قيادة الغرب حيث كان قادة الجيش بانتظاره. وقبل أن يتفوّه بكلمة عن غرضه صرّح بأنّه ينبغي على السادة المارشالات والجنرالات أن يقوموا بإجراء: فبأمر الفوهرر كان عليهم أن يوقّعوا عهداً بألاّ يفضوا بأيّ شيء ممّا سيسمعونه لتوّهم. وأنّهم يعترفون بتعرّضهم للعقوبة القصوى إذا هم نكثوا هذا العهد. فنظر بعضهم إلى البعض الآخر مذلولين، ثمّ طأطأوا رؤوسهم ووقّعوا. إنّ عنفوان القيادة الألمانيّة العليا قد أُصيب في الصميم.

لقد غدا «جودل» عجوزاً. وبصوت متردّد عرض ما كان «هتلر» يتوقّعه من جنوده في الغرب: أن يغيّروا مجرى الحرب ويحرزوا النصر «لألمانيا»، في الوقت الذي راح فيه أعداؤها يعلنون عن هزيمتها!

ولسوف تقوم بشنّ هجوم «الأردين» مجموعة «مودل». كان على جيش ميمنتها الـ ١٥، بقيادة الجنرال «غوستاف فون زانغن»، أن ينفّذ هجوم تثبيت في اتّجاه «مايستريخت»؛ وكان على جيش ميسرتها السابع، بقيادة الجنرال «إريك براندنبرجر»، أن يهاجم في اتّجاه الجنوب، وأن يستقرّ على «السوموا»، حامياً العمليّة من ردّة فعل مرتقبة صادرة عن «باتون». وقد وقع مجهود الصدع ومناورة الاستغلال على عاتق الجيشين

المصفّحين ٥ و ٦. كان دورهما متفاوتاً؛ فعلى جيش «مانتوفيل»، الذي يضمّ ٤ فرق دبّابات و٣ فرق مشاة، أن يجتاز «الموز» بين «فومي» و«نامور»، وأن يستدير حول «بروكسيل» من الجنوب، وأن يسير إلى مصبّ «الإيسكو» محطّماً كلّ مناورة عدوّة معاكسة. وأمّا الجيش المصفّح السادس، التابع «لسيب ديرّتش»، فقد كان يضمّ ٤ فرق دبّابات صاعقة و٥ فرق مشاة، وكان مكلّفاً بالقيام بالمهمّة الرئيسة، ألا وهي خرق «الموز» من كلتا ناحيتي «لياج»، وعبور قناة «ألبير»، والاستيلاء على «أنفير».

وحسب «جودل»، وهو الناطق بلسان «هتلر»، كانت النتائج التي يُتوقّع جنيها من الهجوم هائلة لا تُحصى. فبعد الفصل بين الجيش الإنكليزيّ والجيش الأميركيّ لن يبقى لهما خلاص إلاّ في عمليّة ترحيل معجلة. ولسوف يعقب ثغرةَ «الأردين» الثانية «دانكرك» ثانية. إلاّ أنّ الفوهرر كان يُصرّ على أهميّة السرعة الحيويّة، ويحتّم أن يتمّ بلوغ «الموز» منذ اليوم الثاني.

وتكلّم «مودل» يستقصي الموضوع، فقدّم اقتراحاً حاذقاً مغرياً. كانت الجبهة ترسم ناتئة حول «إيكس–لا–شابيل»؛ فبدلاً من المغامرة فيما وراء «الموز»، والقيام بمسيرة ٢٠٠ كلم والجوانب ممطّطة، كان على الهجوم أن يتّجه نحو الشمال، وأن يؤازره اندفاع الجيش الـ ١٥ المنطلق من «لمبورغ»، فيغدو بالإمكان تطويق القوّات الأميركيّة العاملة في تلك الناتئة، وتدميرها، وهي تبلغ نحواً من عشرين فرقة. ولسوف يغدو ممكناً بعدئذ استعادة «أنفير» من عدوّ مستضعف منهزم، وفي ظروف أكثر ملاءمة. ورفض «جودل» المناقشة، واكتفى بالقول إنّه سوف ينقل إلى الفوهرر وجهات نظر الفيلد مارشال!

كان الاتّفاق قد تمّ على أن يجري الهجوم في ٢٧ تشرين الثاني. إلاّ أنّ أزمة النقل قد أرغمت على تأجيله إلى ١٦ كانون الأوّل. وفي تلك الأثناء استمرّ النقاش بشأن المخطّط. وبعد ما غادر «هتلر» مقرّه الذي أحدق به الخطر الروسيّ، جرت في المستشاريّة الجديدة، في ٢ كانون الأوّل، مناقشة استغرقت ٧ ساعات. ولقد كان عرض «مودل» قويّاً لدرجة أنّ «هتلر» لم يقاطعه ولو مرّة واحدة. إلاّ أنّه بقي ثابتاً لا يتزعزع. قال إنّ مخطّط «مودل»، وهو حلّ ضعيف، لم يكن غير حلّ نصفيّ. ولسوف يُنفّذ مخطّطه هو، «هتلر»، بحذافيره. ولكي يضع حدّاً للجدال دسّ في يد «روندشتاد» مذكّرة خطيّة يوضح فيها أنّ عقاب الموت سيلحق بالرؤساء الذين سيتخلّفون عن تنفيذ الأوامر التي يتسلّمونها!

لم يبقَ سوى إثارة ثقة المنفّذين. وخلال يومي ١١ و١٢ كانون الأوّل جمع «هتلر»، في دفعتين، قادة الفيالق والفرقيّين الذين كانوا سيشتركون في الهجوم. فاقتادهم رجال الصاعقة إلى نقطة تجمّع، ففتّشوا، وجرّدوا من أسلحتهم، ثمّ كُدّسوا في سيّارات نقل كبيرة خُيّل إليهم أنّها كانت تدور في الليل على غير هدى. لم يكن أحد منهم يعرف المكان الذي أُمروا بالتوجّه إليه؛ إنّه قصر «ريغنبرغ» الذي جُهّز منذ عام ١٩٤٠ ليكون مركز قيادة الفوهرر السرّيّ. وأمّا الحصن الذي أُنزلوا فيه فقد كان صغيراً. وطُلب من جنرالات الصاعقة أن يبقوا واقفين، ومن جنرالات الجيش أن يجلسوا– ولكنّ هذا لم يكن من بوادر التكريم، بل حيطة لا أكثر! وخلف كلّ كرسيّ وقف أحد الحرّاس ويده على قبضة مسدّسه. ولسوف يقول «بايرلين»: «لم يكن أحدنا يتجرّأ على مدّ يده لتناول منديله من جيبه...»

ولاح «هتلر»، فكانت الصدمة مريعة: فالرجل حطام متداعٍ. تقدّم وهو يجرّ ساقه جرّاً، وكان يسند ذراعه اليسرى بيده اليمنى ليسيطر على الرعشة التي اعترتها. وكان الصوت نفسه مخنوقاً، وكأنّه يتعالى وسط ضباب الكوابيس المخيف. ومع ذلك بقي يتكلّم خلال ساعتين، مستعيداً بين الفينة والأخرى تلك الشعلة القاتمة التي جعلت منه طاغية «ألمانيا» وبليّة العالم. وراح يخوض ميدان الاعتبارات التاريخيّة الشاسعة، معيداً إلى الأذهان معارك «فريدريك الثاني» وصلابته وانتصاره، مبرهناً أنّ التكاتف الحليف كان على وشك الانحلال، وأنّ نجاح هجوم «الأردين» سوف يعجّله. كان الجنرالات مفعمين أسئلة واعتراضات؛ فقد كانوا يرغبون في الحصول على بعض الإيضاحات بشأن الوسائل التي كانت ما تزال في طور الوعود مع أنّ اليوم المحدّد للهجوم كان على قاب قوسين. وقد كانوا كلّهم يحبّذون «الحلّ الضعيف»، الذي دافع عنه «مودل». ولكنْ لم يكن بالإمكان الرجوع إلى النقاش. فالجنرالات المرؤوسون لم يُساقوا إلى الفوهرر لإبداء رأي أو لتقديم شكاية، بل استُدعوا لتلقّف كلامه المقدّس. ولكنّ التأثير كان مفقوداً تماماً. فبالنسبة لرجال الحرب هؤلاء، المجرّبين، التعبين، المتيقّظين، كان وقع الهذر السياسيّ والدعوات إلى العصبيّة وقع نداء اليأس. فانصرفوا وقد اسودّت الدنيا في عيونهم.

كانت القوّات المحتشدة للهجوم مؤلّفة من ٣٠ فرقة، قوامها ٢٥٠،٠٠٠ مقاتل، و١،٩٠٠ مدفع، و٩٧٠ دبّابة. وأمّا المطاردات الـ ٣،٠٠٠ التي وعد بها «غورنغ» فقد تدنّت إلى ١،٥٠٠، وأمّا «الدوسنياغر» فلم تكن جاهزة بعد. وقد سبّب فقر الوقود إعطاء الدبّابات نصف ما تحتاج إليه لـ ٥٠٠ كلم من العمل الذاتيّ، وهي المسافة الدنيا المقدّرة اللازمة لبلوغ «أنفير». وكانت فرق المشاة مقتصرة على فرق رماة الشعب، وهي وحدات كبيرة مرتجلة محشوّة بالفتيان، أو بالشيوخ. وبغضّ النظر عن هذا الواقع، كان على الوحدات هذه أن تُحدث الثغر التي ستنطلق منها الدبّابات. ولم يكن هنالك ضابط أركان عامّة واحد يؤمن بإمكانيّة بلوغ «الموز» في اليوم الثاني، أو حتى في اليوم الرابع؛ ولكنّ الحكمة كانت تقضي بأن يتصرّف الجميع وكأنّ لهم بذلك الأمر اعتقاداً راسخاً. كانت معنويّات الجند جيّدة؛ فقد قيل لأولئك الجنود الذين حملوا السلاح لتوّهم أنّ ١٩٤٠ قد تكرّرت، وأنّهم سوف يعيدون احتلال «فرنسا». وأمّا هم فقد كانوا يرتجون أن يكون الطقس أقلّ برودة!

كان ليل ١٥–١٦ كانون الأوّل جليديّاً. وقد بلغت كثافة الثلج قدر قدمين في الغابة الأردينيّة. وابتداء من مدينة «مونشاو» الألمانيّة الصغيرة حتى مدينة «إشرناخ» اللوكسمبورجوازيّة الصغيرة، كانت تسيطر على الـ ١٣٠ كلم، التي سوف يقع عليها الهجوم الألمانيّ، الفرقُ الأميركيّة ٢ و ٩٩ و١٠٦ و٢٨، و٤، التابعة للفيلق الخامس بقيادة «ليونار جيروي»، ولفيلق «تروي ميدلتون» الثامن، اللذين أُعيدا إلى ذلك القطاع الهادىء بعد ما ذاقا على «الروير» الأمرّين. وكان قسم من الفرقة المصفّحة ٩ قد انطلق إلى خطّ النار وبقي قسم منها قيد الاحتياط. ولم يكن هنالك مجال لإقامة جبهة بالمعنى الحقيقيّ. كان الجنود الأميركيّون يحتلّون سلسلة من المراكز الصغيرة، وكانوا يخيّمون في دساكر «شونبرغ» و«سان–فيت» و«هوفاليز» و«باستون» و«كليرفو»، وغيرها. وكان الكثيرون منهم يعودون في المساء لينعموا بدفء الأسرّة. أمّا النشاط العسكريّ فقد بات بالغ الضعف، فلا تُسمع طلقات المدفع إلاّ نادراً. وكان بعض القرويّين، وحتى بعض المأذونين الألمان، يتنقّلون في المنطقة المحايدة. وكانت إحدى الفرق الأميركيّة، وهي الفرقة ١٠٦ بقيادة الميجر–جنرال «جونز»، منعزلة تماماً أو تكاد، في منطقة «شي إيفل» الصغيرة القاسية، ولكنّها كانت تنعم بملذّات الألعاب الرياضيّة الشتويّة. وقد كتب الجنديّ الشابّ «شاشتمان» إلى أمّه يقول: «نحن هنا في مأمن وكأنّنا في «إنكلترا». وأمّا الأمر الوحيد الذي أثار التعجّب خلال الليالي الأخيرة، فهو كون طائرات ألمانيّة عديدة قد حلّقت في السماء من غير مبرّر ظاهر. ولم ينتبه أحد إلى أنّها كانت تحرق وقودها

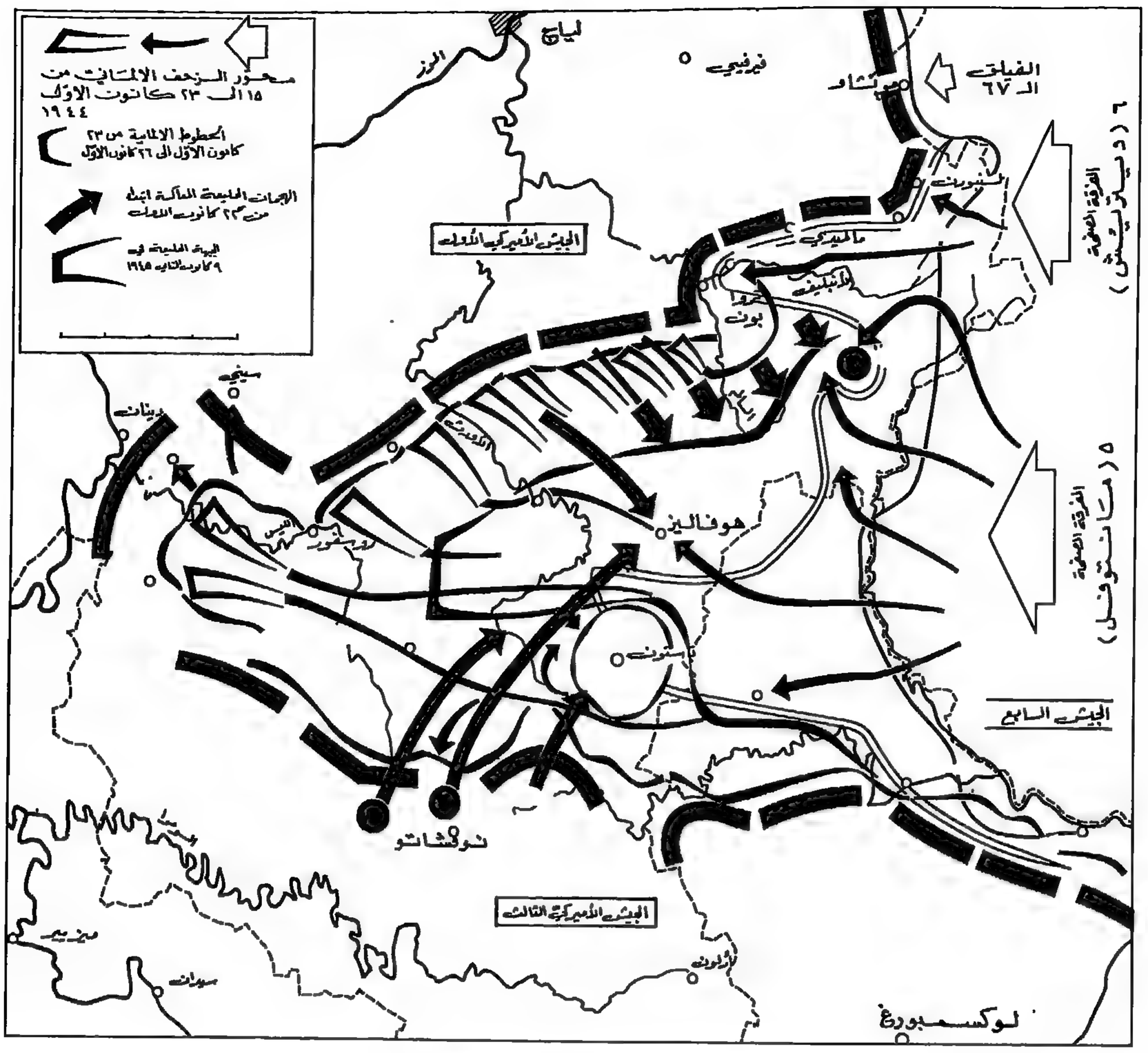

آخر هجوم شنّه الجيش الألمانيّ في «الأردين» .

الثمين لتغطّي ضجيج الدبّابات وجرّارات المدفعيّة التي كانت تنطلق إلى خطّ النار.

وفي الأركان العامّة كانت دواعي الاعتقاد بتجمّع للقوّات الأميركيّة متوافرة. وعلى الرغم من رداءة الطقس ومن قصر الأيّام، اكتشفت الاستكشافات الجويّة تحرّكات نشيطة فوق الطرقات والخطوط الحديديّة. وقد عُثِر على فرق شهيرة. وقد عادت إلى الحياة في جوار الجبهة. وأمّا انتعاش المعنويّات لدى الأسرى الألمان فقد أدهش ضبّاط الاستعلامات. ومع ذلك، وعلى الرغم من سابقة ١٩٤٠، لم يكن من شأن «الأردين» أن تستلفت الأنظار. وقد ورد في تقرير يوم ١٥ مايلي: «لا جديد في هذا القطاع ...»

في الساعة ٥،٣٠ هزّ السبات الأميركيّ قصف مدفعيّة عنيف. وسلّطت المدفعيّة الألمانيّة المضادّة للطائرات أضواءها الكاشفة على الغيوم، خالقة أشعّة قمريّة اصطناعيّة لموازرة منفذ المشاة. ولقد كان وقع المفاجأة عنيفاً لدرجة أنّ أيّة معلومات عن الهجوم الجديد لم تكن قد بلغت مجموعةَ الجيوش ١٢ بعد شنّه بأربع ساعات. وقد ذكر تقرير الساعة ٩،١٥ أنّه لم يطرأ أيّ تغيير على جبهة الفيلقين ٨ و٥. وكان «برادلي» في «فرساي» في «تريبانون بالاس» حيث أقام «أيزنهاور» مقرّ القيادة الحليفة الجديد. وكان الجنرالان يتناقشان في مشكلة الاستبدال في جهاز المشاة مع رئيس الأركان العامّة «بيديل سميث». فدخل كولونيل يعلن أنّ الألمان قد شنّوا هجوماً في «الأردين»، وأنّهم قد أحرزوا بعض التقدّم. وفي مستهلّ فترة ما بعد الظهر التقطت فرقة المشاة ٩٩ معلومات تفيد أنّ العدوّ كان يبذل مجهوداً عنيفاً حاسماً. ووضع «بيديل سميث» يده على كتف قائد مجموعة الجيوش ١٢ وقال: «إليك ما شئت يا «براد»! لقد كنت ترغب في هجوم معاكس، والفرصة الآن سانحة». وأجاب «برادلي»: «أجل ولكنّني لم أكن أريده بهذه الأهميّة!»

راحت الصفوف تنتظم. ووُجّهت القوّات المصفّحة المتأهّبة بكاملها نحو القطاعات المهاجَمة. ولم يبقَ من احتياط لدى مقرّ القيادة العليا غير الفرقتين ٨٢ و١٠١ المنقولتين جوّاً، المقيمتين في منطقة «رامس». وبعد تردّد وجيز عمد «أيزنهاور» إلى تحريكهما، فوجّه الفرقة ٨٢ نحو «هوفاليز»، والفرقة ١٠١ نحو «باستون» في قلب الدغل الأرديني.

خلّف النبأ القائل إنّ الألمان قد هاجموا بقوّة في «الأردين» المشؤومة بوادر ذعر في «أوروبا» التي حُرِّرت منذ زمان وجيز. وأمّا قول «هتلر»: «سوف تكون «فرنسا» للأميركيّين مصيدة فئران واسعة»، فقد طار عبر الأثير. وأخذ بعض الذين التحقوا بالمقاومة متأخّرين يمهّدون للردّة. وفي «بلجيكا»، وفي شمال «فرنسا»، بدأ السكّان يجهّزون رزمهم الهزيلة استعداداً للفرار. وفي «سغمارنغن»، راح المهاجرون الفرنسيّون ذوو الميول الألمانيّة يؤكّدون أنّهم سيكونون في «باريس» يوم رأس السنة، وراحوا

كذلك يقيمون خططاً لأعمال انتقاميّة شنيعة .

إلاّ أنّ ١٩٤٤ لم تكن لتشبه ١٩٤٠. فقد اصطدم الهجوم بصعوبات فائقة: كان تزويده بالأمداد اللازمة عبر طرقات ضيّقة ومنحرفة، مثلجة ومجلّدة. عمليّة جهنميّة؛ وكان العتاد على آخر رمق ؛ وكان مشاة كثيرون يرتدون الأسمال . فخروج «ألمانيا» المحاصَرة النهائيّ إلى «الأردين» العليا شبيه بصفحة من صفحات التراجع في «روسيا» أكثر منه بالوثبة الربيعيّة التي قامت بها جيوش «روندشتاد» الأولى.

لم يتسلّم «ديترتش» غير قطاع من ٢٥ كلم في سبيل تحقيق الدور الحاسم الذي أسندته إليه ثقة الفوهرر. وقام فيلقه الأيمن ٢٧ بالهجوم وهو ينحاز نحو الشمال بغية إقامة جانب دفاعيّ على خطّ «مونشاو–أوبين –لياج». وقد تعاقب فيلقاه المصفّحان الواحد تلو الآخر. فزحفت الفرقة المصفّحة الصاعقة الأولى في الرأس، والفرقة المصفّحة الصاعقة ٢ في أعقابها، لكي يتسلّما على «الموز» بدّل السباق نحو «أنفير». وقد قامت ثلاث فرق من رماة الشعب بقتال المشاة، فاتحة الطريق أمام الدبّابات.

في ١٦ و١٧ كانون الأوّل كان تقدّم الفيلق الألمانيّ ٦٧ ضعيفاً، فلم يتمكّن من الاستيلاء على «مونشاو» ولا من إسقاط منطقة «إلسنبورن» الجبليّة الصغيرة التي كانت فرقة المشاة الأميركيّة ٧٨ تقوم بالدفاع عنها. وإلى يساره قامت فرق رماة الشعب، التابعة لفيلق الصاعقة المصفّح الأوّل، بدفع فرقة المشاة الأميركيّة ٩٩، وتمكّنت من أن تفتح أمام مصفّحاتها ممرّات «فارش» و«أمبليف» المتعرّجة. كان النهران الصغيران يلتقيان في «ستافلو»، ومن ثمّ ينضمّان إلى «الأورت» الذي يصبّ في «الموز» في «لياج».

إلاّ أنّ الأيّام التالية كانت قاسية. فأوقف «هودجز» هجومه على «الروير»، واستخدم القوّات الجاهزة للسيطرة بقوّة على جانب الناتئة الذي شقّه التقدّم الألمانيّ. ولم يتمكّن الفيلق الألمانيّ ٦٧ البتّة من توسيع آفاق الهجوم بتقويم وضعه نحو الشمال. وكنتيجة لتعاقب فيلقين مصفّحين فوق الطرقات المحفّرة، حصل تعرقل في السير جعل تدخّل فيلق الصاعقة المصفّح ٢ أمراً صعباً للغاية. ودفع «ديترتش» والجنرالات النازيّون ثمن انعدام خبرة أركانهم العامّة، وثمن دوافعهم الشخصيّة العنيفة التي حدتهم إلى رفض مساعدة المحترفين: وقد بلغ سوء الطالع أوجه عندما أخفقت عمليّة مظليّة يقودها الكولونيل «فون ديرهيدت» إخفاقاً كاملاً. وقد أخفقت عمليّة «سكورزيني» القاضية بتخريب مؤخّرات العدوّ بواسطة جنود ألمان يرتدون البزّات الأميركيّة .

في ١٩ كانون الأوّل استولى فيلق الصاعقة المصفّح الأوّل على «تروا–بون». عند ملتقى نهرَي «الأمبليف» و«الفارش»، وبلغ قرية «لاغليز». ولكنّه لم يتقدّم إلى أبعد من ذلك. ففرقة الصاعقة المصفّحة الأولى قد دُمّرت بكاملها أو كادت بعدما عزلها الطيران؛ وقد أرغمت فرقة الصاعقة المصفّحة التاسعة على عبور «الأمبليف» ثانية بعد ما شنّت عليها فرقة «إيربورن» ٨٢ هجوماً معاكساً؛ وقد جرت محاولة لنقل مجهود الجيش نحو الجنوب. فكان من شأنها أن زادت في تفكّكه؛ ويوم عيد الميلاد اتّخذ جيش الصاعقة المصفّح ٦ موقف الدفاع بعدما أدركه الوهن .

وإلى يساره شنّ الجيش المصفّح ٥ هجوماً على جبهة يربو عرضها على الضعفين؛ وبقوّات أقلّ عدداً. واصطدم فيلقه الأيمن، وهو الفيلق ٦٦. بالفرقة المصفّحة الأميركيّة ٧ التي بقيت تنازعه السيطرة على مفترق طرق «سان فيت». وأمّا فيلقا ميسرته، وهما الفيلق المصفّح ٥٨ والفيلق المصفّح ٤٧. فقد اجتازا «الأور» وطوّقا فرقة المشاة الأميركيّة ١٠٦ في «شني إيفل». وأرغما الفرقة ٢٨ على الفرار. ثمّ جاوزا دوقيّة «لوكسمبورغ» الكبرى. وفي الفيلق٥٨ استولت الفرقة المصفّحة ١١٦ على «هوفاليز» على طريق «أرلون–لياج». وقد بُعثت من رمادها النورمانديّ. وفي الفيلق ٤٧ تقدّمت فرقتان منبعثتان أخريان. هما الفرقة المصفّحة ٢ و«البنزرليهر». تعوق سيرَهما الخرائبُ، نحو الغابات الكثيفة المنبسطة حول «سانت هوبير»؛ فوصلت فرقة «بنزرليهر» بإمرة «بايرلين» أمام «باستون» في مطلع ليل ١٩. وكانت فرقة «إيربورن»١٠١ الأميركيّة، التي قدمت مهرولة من «رامس»، قد احتلّت تلك المدينة الصغيرة لساعات خلت. في «باستون» تمرّ طريق «لوكسمبورغ–بروكسيل» عبر «نامور». وكانت طرق أربع ثانويّة تتشعّب نحو «نوفشاتو» و«لاروش» و«تروا فييرج» و«إيتابروك». وفي ١٩٤٠ كانت مجموعة جيوش «روندشتاد» قد تمكّنت من احتلال «باستون» منذ صبيحة ١٠ أيّار، مستولية من غير قتال على عقدة المواصلات الأردينيّة. وأمّا الاستيلاء عليها في ظروف الشتاء القاسية فقد كان اليوم ضرورياً أكثر فأكثر. ولكنّ الحيرة أخذت «مانتوفيل»؛ فباستطاعته إمّا أن يلقي بكامل فيلقه المصفّح ٤٧ على «باستون»، أو أن يستدير حول المدينة فيحاصرها. فبالحلّ الأوّل كان له حظّ في إزالة عقبة رئيسة بشكل سريع. ولكنْ كان هنالك أيضاً مجازفة بكسر نمط الهجوم. وبالحلّ الثاني كان بميسوره أن يستمرّ بلا انقطاع في سباقه إلى «الموز». ولكنّه إذ ذاك يحتفظ في جهازه الشريانيّ الضعيف بجلطة خطيرة.

وتبنّى «مانتوفيل» حلاً وسطاً؛ فترك أمام «باستون» فوجاً من «البنزرليهر» لكي يؤازر فرقة رماة الشعب ٢٦ في الاستيلاء على المدينة، ثمّ دعّم المحاصرين بلواء «فوهرر بغليت»، وهو الاحتياط المصفّح لدى الفيلق ٤٧، وبواسطة عناصر من الفرقة المصفّحة الآليّة ١٥. وكانت الحامية تضمّ، فضلاً عن فرقة «إيربورن» ١٠١، عناصرَ من الفرقتين المصفّحتين ٩ و١٠، اللتين قُطع عليهما الانكفاء، وبعض تشكيلات المؤخّرات التي كانت مؤلّفة كلّها من الجنود الملوّنين. وكان القائد هو البريغادير–جنرال «ماك أوليف»، الذي حلّ مؤقّتاً محلّ «ماكسويل تيلر».

وقبل أن يباشر الجنرال «هايتز كوكوت»، قائد المحاصِرين، الهجومَ، رأى أنّه من الأصوب أن يوجّه إنذاراً أخيراً؛ وقد قال «مانتوفيل»: إنّه فعل ذلك من غير اذن منه. وعاد إليه مفاوضه بجواب «ماك أوليف» الخطّي، ألا هو كلمة واحدة تحمل سخرية وسباباً ! وعلى هذا الأساس بدأ الحصار.

في تلك الأثناء تابعت الدبّابات الألمانيّة سيرها نحو «الموز». كانت تلك مسيرة جاهدة، توخّرها مقاومة العدوّ الباسلة، وتعرقلها مشقّات الطريق، ويشوبها ضعف التزويد بالوقود. وفي الشمال استولت الفرقة المصفّحة ١١٦ على «روش–أن–أردين»، فعبرت «الأورت» في «هوتون»، ولكنّها، إذ أضاعت ٤٨ ساعة على أثر خطإ في القيادة، اصطدمت بفرقة أميركيّة طازجة، وهي الفرقة ٨٤، اعترضت طريقها. وإلى الجنوب استولت فرقة «بنزرليهر» على «سانت–هوبير» و«روشفور»، ودفعت بعناصرها المتقدّمة حتّى «سيرنيون»، على مسافة ٢٠ كلم من «دينان»: وبين الاثنتين وقفت الفرقة المصفّحة ٢ مجمّدة مدّة ٣٦ ساعة بسبب فقدان الوقود؛ وعادت إلى الانطلاق في ٢٢، فحطّمت حصناً دفاعياً بين «مارش–أن–فامين» و«روشفور»؛ وفي ٢٤ بلغت مجموعتها الاستطلاعيّة «فوا–نوتر–دام» على أولى ذرى «الموز». وكان النهر ينساب تحت أعينها وهو لا يكاد يبعد ٦ كلم. وكان جنود «رومل» قد أبصروه من الموضع نفسه لثلاثة وخمسين شهراً خلت!

ولكنّ الأمر يتعلّق، في هذه المرّة، بناتئة ضعيفة. فقد راحت قوّات ساحقة تتضافر في وجه الفرقة المصفّحة الألمانيّة الثانية التي تورّطت بشكل خطير. كانت السماء قد انقشعت، وعاد الطيران إلى انجاز عمله الرهيب، وانهال على الطرقات كافّة بساط من القنابل؛ وتعرّضت المؤخّرات القريبة منها والنائية لغارات متكرّرة حطّمت مواصلات مجموعة الجيوش برمّتها. وأمّا الفرقة المصفّحة الألمانيّة الثانية، التي سحقتها المدفعيّة، وأرهقتها

أسراب المطاردات—القاذفات كالذباب. فقد اعتُبرت فانية حكماً. وما كان من «بايرلين». الذي طار لنجدتها بسالة. إلاّ أن التقط بعض الناجين. فعاد بهم نحو «روشفور» مع فرقته «بنزرليهر» التي عرفت هي الأخرى مذاقاً مرّاً.

لقد أخفق الهجوم الألمانيّ. وانطلق الردّ الحليف. ليس بالمستطاع أن نصف بتقة. في خضمّ الشهادات المتناقضة. ما كان موقف «أيزنهاور» تحت وطأة المطرقة في «الأردين». فقد ذكرت المراجع الانكليزيّة أنّه فقَد يومذاك صوابه. قال «مونتغومري»: «لقد كان مهتاجاً حين اتّصل بي هاتفياً. فكان يتكلّم بسرعة فائقة وهو يزأر. ولم أكن أتوصّل إلى فهم ما يقوله. ولحسن الحظّ انقطعت المكالمة قبل أن يفرغ من كلامه...» ولم يكن معاونو القائد الأعلى الأميركيّون من جهتهم بأكثر رضى. فقد كتب ضابط أركان عامّة إنكليزيّ إلى «بروك» يقول: «لقد دخلت إلى المقرّ العامّ لقيادة «هودجز». كالمسيح وهو داخل إلى المعبد يطهّره... ولم يرَ أحد «برادلي» قطّ منذ بداية المعركة...» أمّا المراجع الأميركيّة فقد ذكرت أن «أيك» ومعاونيه قد ظلّوا ثابتين كالصخرة. وهم يقوّمون الوضع بثبات جنان وبرودة أعصاب.

في ١٩ كانون الأوّل انعقد مؤتمر حربيّ خطير في إحدى ثُكنات «فردان» ضمّ «أيزنهاور»، و«تيدر»، و«برادلي»، و«ديفيرز»، و«باتون» وغيرهم. وقد أدلى هذا الأخير بالتعليق التالي: «يجب أن يُترك هؤلاء الخنازير حتّى يصلوا إلى «باريس» فيجري عندئذ الانقضاض عليهم من خلف وسحقهم سحقاً!». وأجاب «أيك» بأنّه لا يعقل أن يُترك الألمان يجتازون «الموز». وقال إنّه يفكّر بأن يكبحهم على وجه النائئة الشماليّ. وبأن يشنّ عليهم هجوماً معاكساً على الوجه الجنوبيّ. وسأل «باتون» متى يكون باستطاعته أن يُطلق عمليّة تقوم بها ستّ فرق باتّجاه «باستون» و«هوفاليز»؟ فأجاب «باتون» بأنّه سوف يكون قادراً على التحرّك منذ الـ ٢٢. ولكنّ شرط أن يسير بثلاث فرق فحسب. وقد أوضح أنّ السرعة في الانجاز هي أفضل من العدد. إذ يجب تسديد الضربة فيما يكون العدوّ في حالة توازن غير مستقرّ. وقد رضي «أيك» بذلك.

وفي اليوم التالي. ٢٠ كانون الأوّل. طرأ حدثٌ جديد. فإذ اعتبر «أيزنهاور» أنّ الثغرة الألمانيّة قد قطعت الاتّصالات، قرّر أن يسلّم «مونتغومري» القوى الحليفة التي كانت في شمال النائئة، وهذا ينقل بالتالي إلى إمرته الجيشين الأميركيّين التاسع والأوّل. وبعدما حمل «مونتغومري» هذا العبء على كاهله. لم يتوانَ عن ذكر الفوضى وحتّى الذعر اللذين كانا يسيطران في القطاعات الأميركيّة. وبدلاً من أن يلقي في المعمعة فيلقه البريطانيّ ٣٠ الذي كان بكامله بمتناول يده. أمره بأن يحافظ على ممرّات «الموز» وقد قال فيما بعد: «عندئذ شعرت بالطمأنينة». ولم يخُض القتال في ٢٤ شماليّ «دينان» إلاّ لواء مصفّح واحد من الحرس. فأسهم في دحر الفرقة المصفّحة الألمانيّة الثانية.

وبرّ «باتون» بوعده. فبدأ هجومه في الساعة الرابعة من صباح ٢٢ كانون الأوّل. بفرقه المصفّحة ٢٦. و٨٠. و٤٠ فاصطدم بالجيش الألمانيّ السابع الذي كان يضمّ ٣ فرق من فرق رماة الشعب. وفرقة من المظليّين. والذي كان يحمي الجانب الألمانيّ الأيسر. كان التقدّم الأميركي شديد البطء في البدء. وسط الثلوج الكثّة وعلى الطرق الفاسدة. ولكن يبدو أنّ الصلاة التي حرّرها كاهن «باتون» قد استجيبت. فأشرقت شمس ٢٣ مزهوّة فوق البساط الشتويّ. وأغدق الطيران عطاءه. وازدادت سرعة التقدّم. فكان «باتون» جذلاً. قال: «إنّه لطقس رائع لقتل الألمان!..»

وأمّا «باستون»، التي جرى تموينها بطريق الجوّ بعد تحسّن الطقس. فقد صمدت بقوّة. وراح المحرّرون يقتربون. وفي صبيحة ٢٦ جاوزت الفرقة المصفّحة ٤ «فو—لي—روريير» على طريق «نوفشاتو». وفي الساعة ١٤ اتّصل رئيسها الجنرال «غافي» هاتفياً «بباتون» مباشرة. قال: «أتسمح بأن أقوم بمخاطرة كبرى؟» فأجاب «باتون»: «أجل. بالطبع. ولكن ما الخبر؟» فاقترح «غافي» أن يرسل على «باستون» فرقته المصفّحة «ر» بإمرة الكولونيل «وندل بلانشار»: فالأرض التي علاها جليد كثيف كانت ملائمة للدبّابات. ولم تكن الفرقة إلاّ على بُعد ٦ أميال من المحاصَرين.

وهكذا كان انقضاض الفرقة المصفّحة. فأعرضت عن «سيري» وعن طريق «نوفشاتو». وسلكت طريقاً ريفياً. فسحقت دسكرة «أسّونوا». وراحت تتقدّم وسط حشود من الألمان أعيتهم الحيلة. وفي الساعة ١٦،٥٠ أبصر رتل صغير من ثلاث دبّابات «شيرمان» وبعض الشاحنات: بقيادة الملازم الأوّل «بوغيس». خلل الدخان. جمعاً من الجنود في بزّات «كاكي» يهاجمون حصناً: فإذا هم من نقّابي كتيبة الهندسة ٣٢٦. وهكذا رُفع الحصار عن «باستون».

لم تكن تلك نهاية معركة «الأردين». لم تتخلّ القوّات الألمانيّة إلاّ عن النواتئ التي استحال الدفاع عنها. فيما بقيت متشبّثة بخطّ دفاعيّ يشمل نصف الأراضي التي أعيد احتلالها منذ ١٦ كانون الأوّل. وحول «باستون» استمرّ القتال عاصفاً. وقد امتصّ في هذا القطاع وحده فيالق ألمانيّة ثلاثة. وقد تساءل المقاتلون لماذا ينبغي التعلّق بنتف الغابات تلك بهذا القدر من الضراوة؟ كان «روندشتاد» قد طالب منذ ٢٢ كانون الأوّل بالانكفاء إلى ما وراء خطّ «سيغفريد». فعاضد «مودل» و«غوديريان» اقتراحه: ولكنّ «هتلر» لم يرضَ به.

وأمّا سرّه الجديد فقد كان التالي: سوف تُستأنف معركة «الأردين»! لقد ضُحّي بأكثر من ١٠٠.٠٠٠ رجل. وفُقد من العتاد ما لا يمكن تعويضه. وكان الجنرالات الألمان جميعاً يعلمون أن الجيش الألمانيّ قد قُضي عليه، وكان معظمهم يعتقدون بوجوب التخلّي عن القتال في الغرب وبذل أيّ ثمن للحؤول دون قيام الروس بغزو «ألمانيا». ولكنّ «هتلر» كان يصرّ على أنّ انتصاراً في الغرب ضروريّ ومعقول. وكان المطلوب أوّلاً هو استنفاد احتياطات العدوّ في القطاعات الثانويّة. واختار الفوهرر «الألزاس»؛ ولسوف يتمّ الانطلاق من ثمّ لغزو «ألفير» من المواقع التي احتُفظ بها في «الأردين».

لم يبقَ من عمر سنة ١٩٤٤ غيرُ ساعة واحدة. كان الجيش الأميركيّ ٧ قائماً بشكل زاوية من «سارلوي» حتّى جنوبيّ «ستراسبورغ». ومن ناحيتي «الفوج» كلتيهما، بين «سارغومين» و«هاغونو»، أنزل الفيلق السادس فرقه الثلاث إلى خطّ النار. وقد وقعت عليه أولى هجمات «هتلر» التمويهيّة في قلب ليلة رأس السنة.

الدبّابات الأميركيّة تعمل في «الأردين» فوق الثلوج.

صوَر من معرَكة "هولندا"

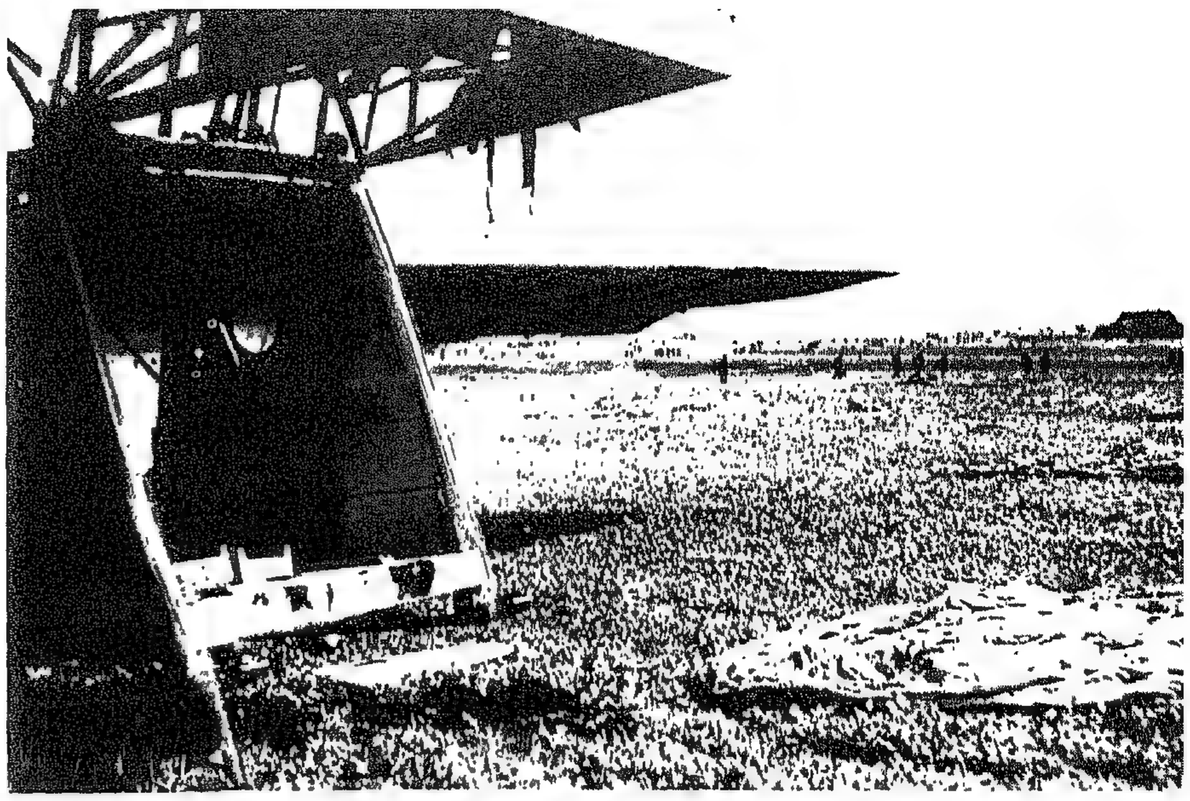

طائرة شراعيّة بريطانيّة تحطّ في «هولندا» وسط المظلاّت والمظليّين . وكان الهدف من هذه العمليّات احتلال جسور «آرنهيم» على «الرين» لتحطيم المقاومة الألمانيّة . فكان على المظليّين أن يقيموا رأس جسر ويتشبّثوا به ريثما يتمّ للفرقة الأميركيّة الـ ٨٢ الاستيلاء على جسور ««نيميغ» و«غراف» . أمّا صاحب الخطّة فهو «مونتغومري» .

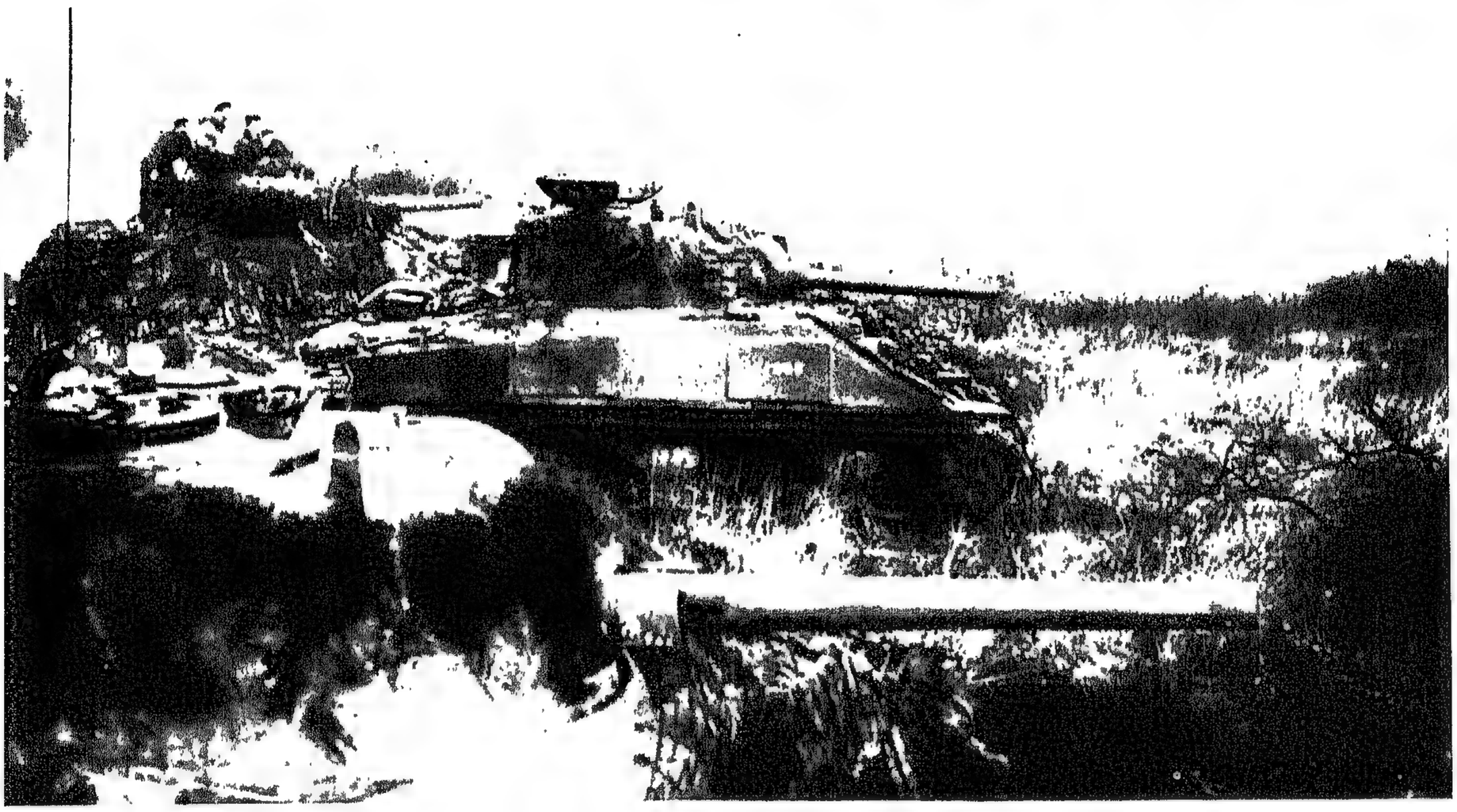

القوّات البريطانيّة المصفّحة تتّجه نحو «نيميغ»؛ وقد وصلت إلى ضواحيها مساء ١٩ أيلول وفي ٢٠ أيلول نشبت معركة رهيبة .

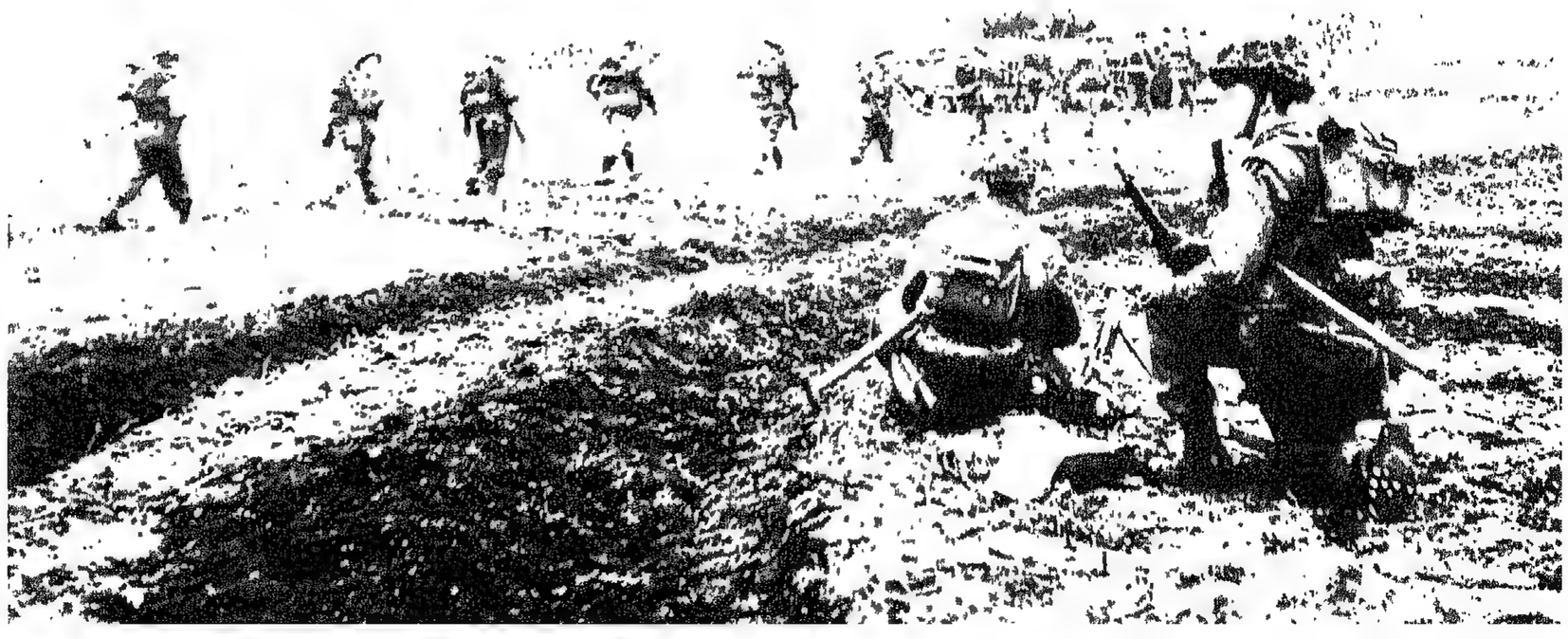

من مراحل الحرب في «هولندا» : الأميركيّون يلتقون المصفّحات البريطانيّة ثمّ يتجهّون معاً صوب «نيميغ» .

نشبت في «آرنهيم» معركة ضارية استمرّت أربعة أيّام؛ فكان على الفرقة الأولى المنقولة جوّاً أن تقاتل وسط الحدائق المخرّبة والبيوت المهدّمة .

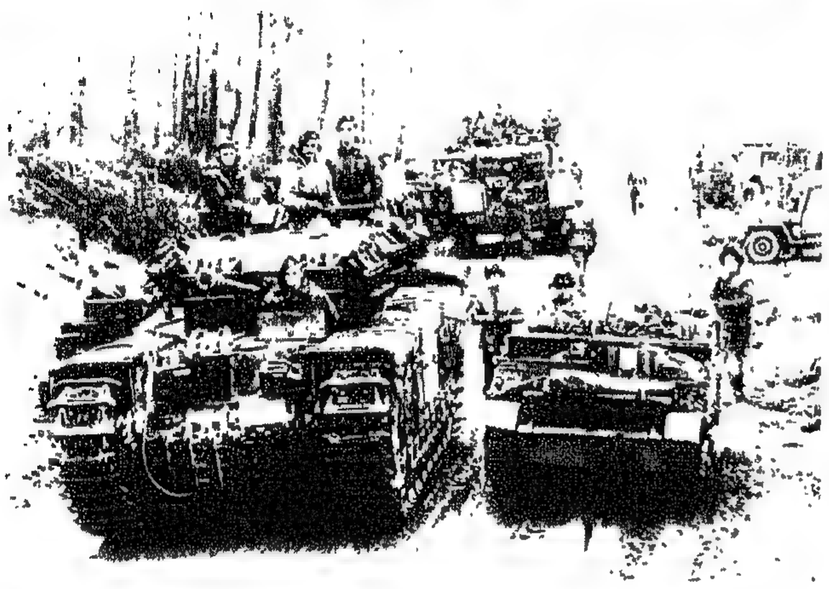

القوّات البريطانيّة المصفّحة تتأهّب لاقتحام خطّ «سيغفريد» .

قام هؤلاء الكنديّون شأن بني جنسهم إخوانهم في السلاح بمهمّات صعبة خطرة . وتبدو في الصورة إحدى دوريّاتهم في «نيميغ» .

صَاروخ «ف ٢»: الورقة الأخيرة

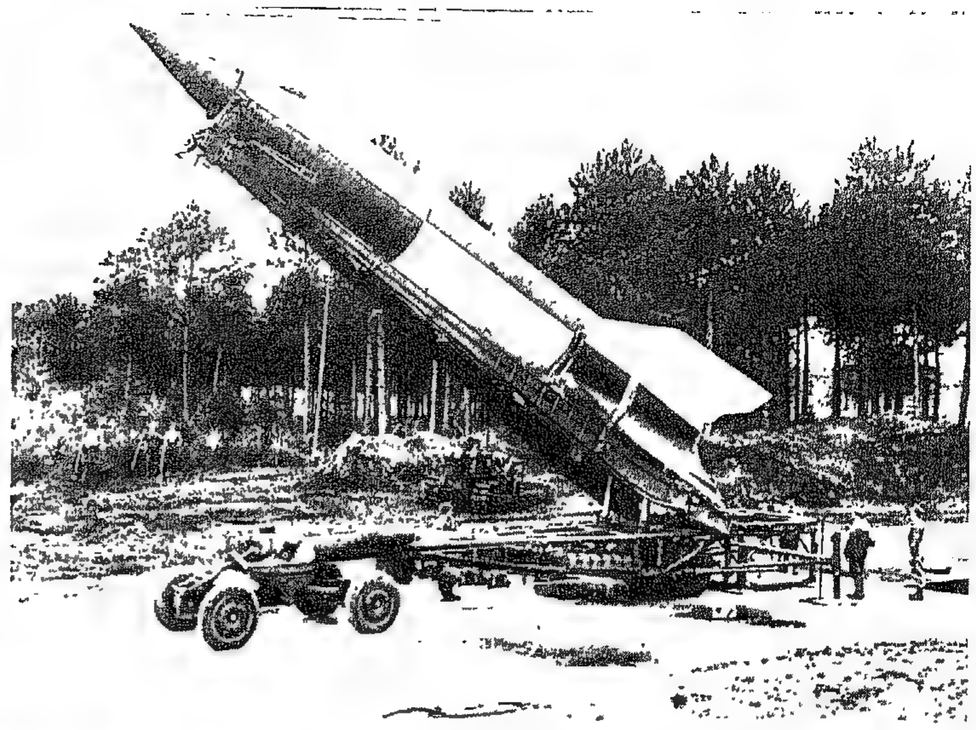

في أيلول ١٩٤٤ أضيف إلى «ف١» سلاح فتّاك انتقاميّ جديد هو «ف٢» السريع القويّ . ويبدو في الصورة أحد هذه الصواريخ على عربته .

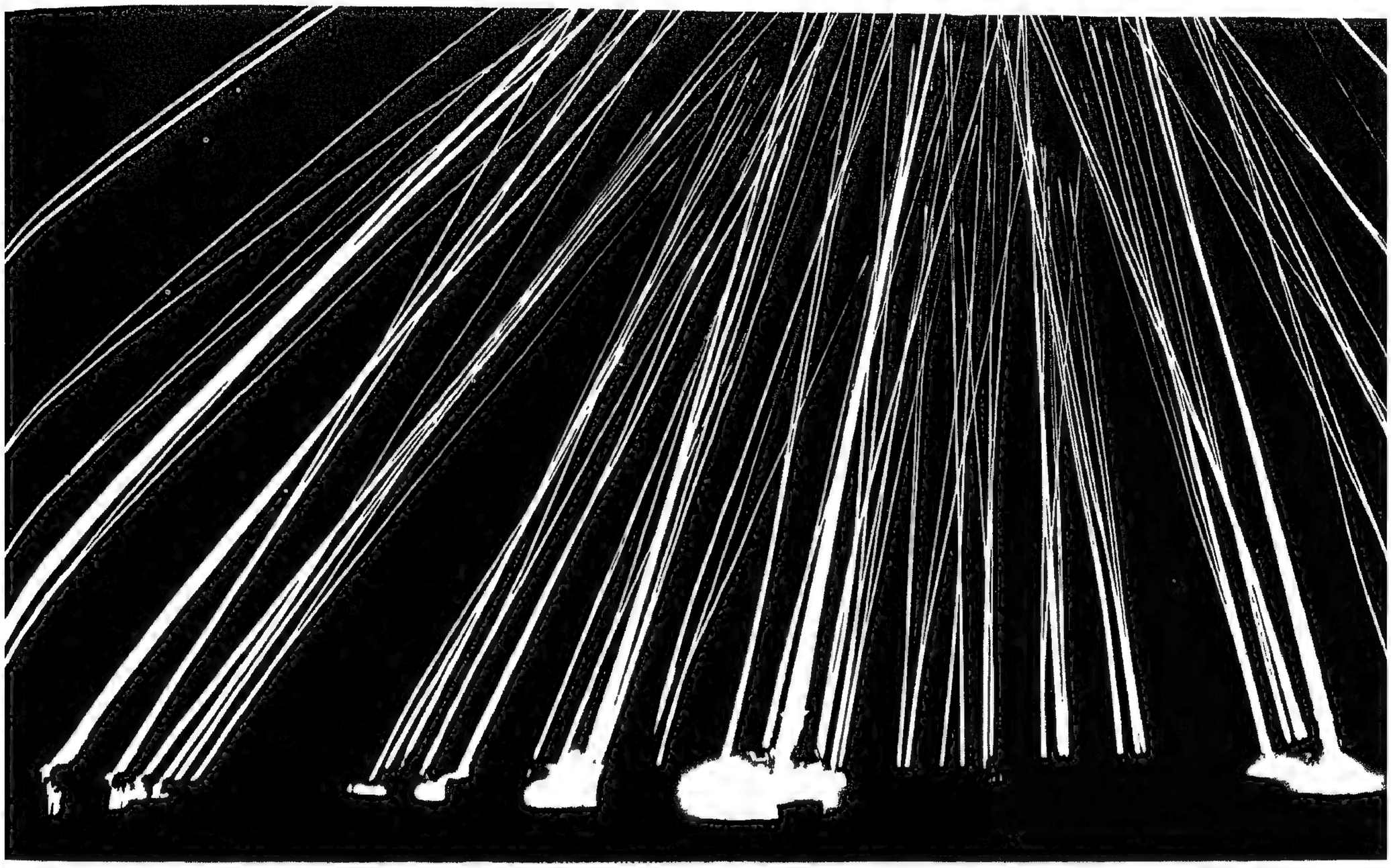

الأنوار الكشّافة تتحرّى سماء «لندن» ، ترى ، أعودُ إلى أيّام ١٩٤٠ القاتمة ؟

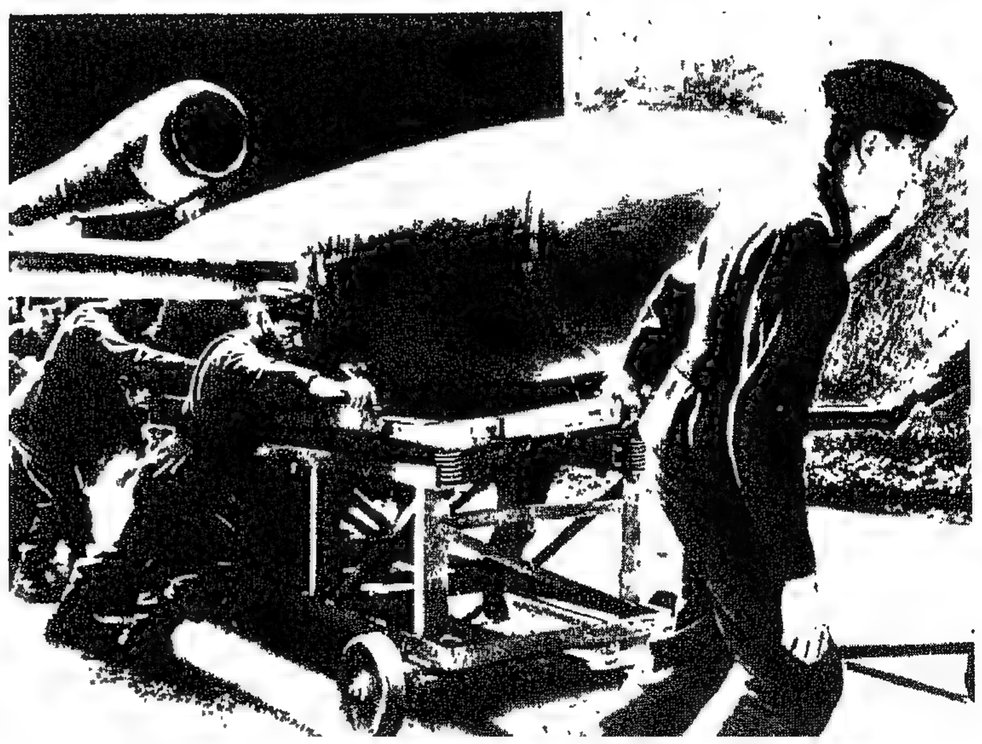

في الصورة العليا : «ف ١» ينقضّ على «لندن» . أمّا الصورة السفلى فتمثّل انفجاره .

صاروخ «ف١» محمولاً على عربته إلى مزلاقه ليُصار إلى إطلاقه .

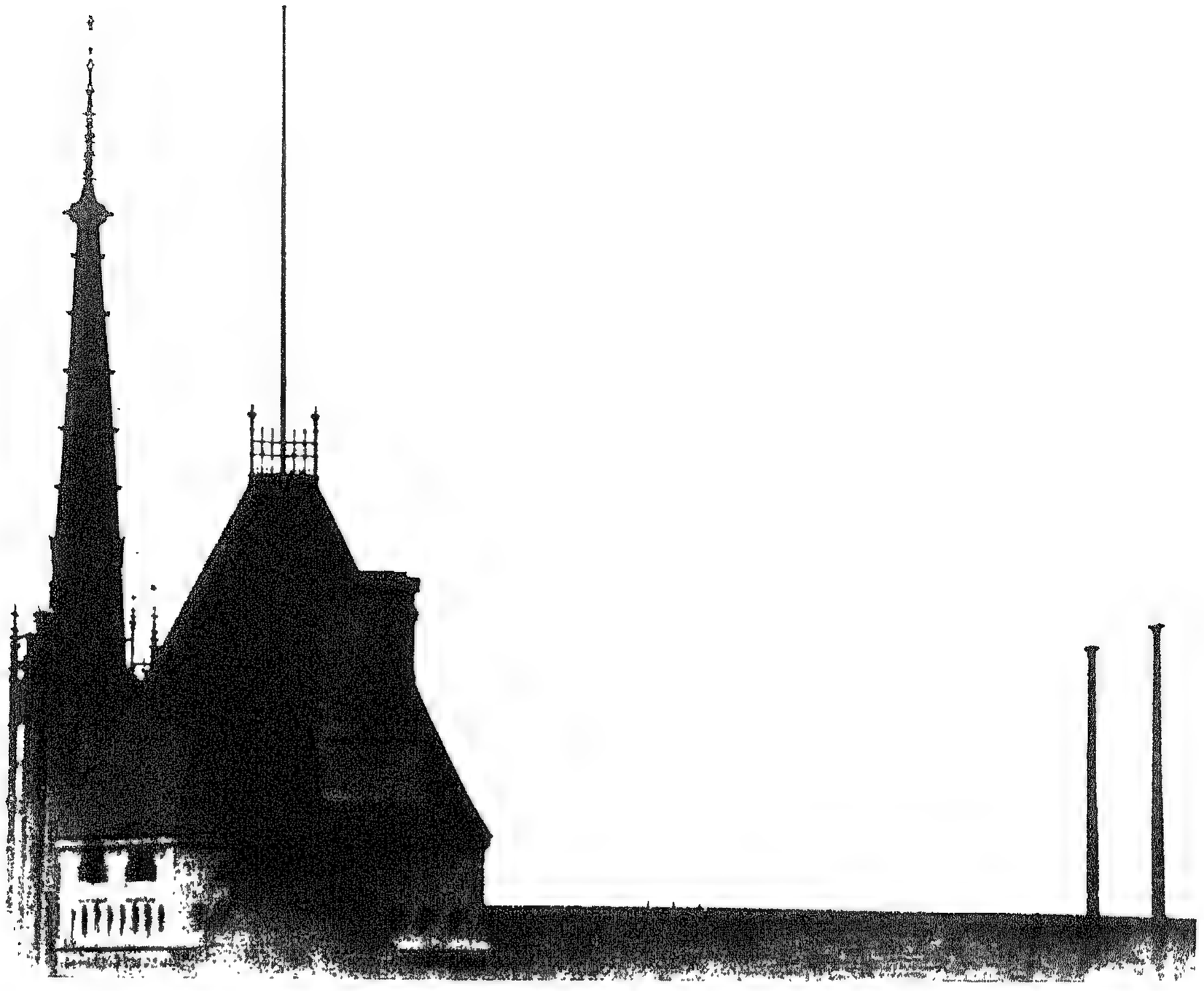

قمة

«ليتكي» «ستراسبورغ» «فرصوفيا» «يالطا»

اعتُبر ضياع «سايبان» وهزيمة بحر «الفيليبين» بالنسبة «لليابان» بمثابة نذير الشؤم والويل : ولكنّ شيئاً من ذلك لم يكن ليُعدّل مصير أمّة زجّت بنفسها في مغامرة حرب حديثة شاملة .

في ١٨ تموز ١٩٤٤ استقال الجنرال «توبو» وأعضاء حكومته معتذرين بانتضاع عمّا سيّبوه لجلالة الامبراطور من اضطراب وقلق . وما تسلّم رئيس الوزارة الجديد، الجنرال «كونياكا كويزو». حاكم «كوريا» العامّ سابقاً، مهامّ منصبه. حتى تبنّى شعارات سلفه عينها: قتال حتى النهاية لا تلين له قناة ما لم ينكّس اعداؤه رؤوسهم أمام مناعة «اليابان» التي لا تُقهر !

يا لها من كلمات طنّانة جوفاء! ذاك أنّ ثلاثاً من سنوات الحرب قد فتّت في عضد «اليابان» وأتلفت قواها. كان المسؤولون اليابانيّون قد توهّموا أنّ الاستيلاء على جنوب شرقيّ «آسيا». وعلى مواردها التي لا يحصيها عدّ. يُمكّن بلادهم من حمل وزر النزاع مهما طال أجله . فإذا خطأهم فادح فاضح ! وإذا هم مضطرّون إلى حماية الامبراطوريّة التي اقتطعوها من عدوّ يستطيع . متى شاء. أن ينتقي الموضع الذي يرميه بتفوّقه الماديّ الضخم الهائل. ومن أين «لليابان» أن تكون منيعة الجانب في كلّ مكان. والأراضي التي تخفق عليها رايتها لا تزال تمتدّ. بالرغم ممّا تخلّت عنه. من «الفيليبين». إلى «برمانيا». إلى «الكوريل». إلى «منشوريا»؟

شدّ ما تميل الناس والأمم المهدّدة إلى الأخذ بسحر الألفاظ ! ولذا فقد أُطلق على خطط الدفاع التي وضعتها هيئة الأركان الامبراطوريّة العليا اسمُ اصطلاحيّ طنّان، ألا وهو «شو» («النصر»). وبالغاً ما بلغ هذا المبدأ من الحماقة، فإنّه كان يوفّر لوضع مستحيل المحاولة الوحيدة لإيجاد حلّ معقول. أمّا الخطة فتقوم على تشكيل قوّة احتياطيّة متحرّكة خاصّة بكلّ منطقة معرّضة للتهديد. قد يُفلح المهاجم في مداهمة مفاجئة أولى. ولكنّه سيرى في الحال قوّات مهيبة ضخمة تسير إليه جميعها فتحاول سحقه . وهكذا بلغت مخطّطات «شو» أربع خطط : «شو١» يتعلّق «بالفيليبين» ؛ و«شو٢» «بفورموزا» وبجنوبيّ «الصين» ؛ ويختصّ «شو٣» بكبريات جزر الوطن الأمّ الثلاث : «هونشو» و«سيكوكو» و«كيوشو» ؛ أمّا خطة «شو ٤» فتتعلّق بالجزيرة الكبيرة الرابعة · «هوكايدو».

كانت خطة «شو١» أقرب الاحتمالات وقوعاً في نظر اليابانيّين. فلو قُيّض للأميركيّين أن يحلّوا في «الفيليبين» لغدت جزر الوطن الأمّ على متناول قاذفات قنابلهم. ولتمكّنوا من تلقّف المواد السّراتيجيّة كالنفط والمطّاط والقصدير وغيرها المتدفّقة على «اليابان» من جزر «السوند» و«ماليزيا». ولذا فقد قرّ رأيُ العسكريّين والصناعيّين على اعتبار المحافظة على «الفيليبين» قضيّة حياة أو موت. و«الفيليبين» مجموعة من ٧٠٠٠ جزيرة بين كبيرة وصغيرة، تقع تحت رحمة خصم تمّت له سيادة البحر من أيّة جهة أتاها !

جُمّعت مجموعة جيوش المارشال — كونت «هيسايشي تيروشي» مسؤولة عن قطاع جنوب شرقيّ «آسيا». فجعل مقرّه العامّ في «مانيلا». وأُسند أمر الدفاع عن «الفيليبين» في هذا الإطار إلى القطاع الرابع عشر الذي كُلّف بقيادته قاهر «سنغافورة» القويّ الشكيمة «تومويهي ياماشيتا».

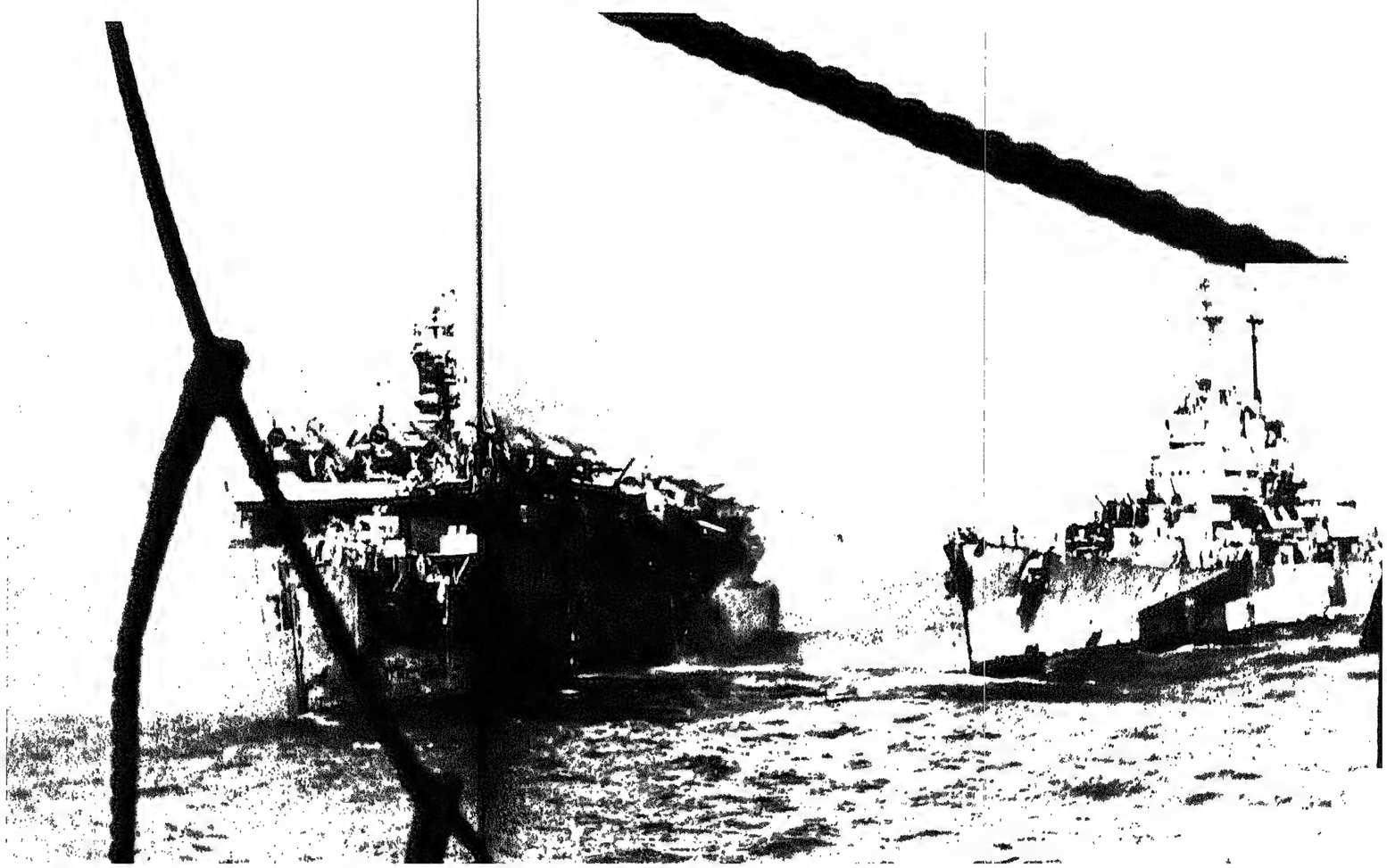

حاملة الطائرات «برنستون» وقد أصابتها الطائرات اليابانيّة إصابات خطرة.

جنديّ أميركيّ يظلّل بيده وجه زميل له جريح حاجباً عن عينيه أشعّة الشمس.

نزل مشاة البحريّة الأميركيّة على أحد شواطىء «ليتي» تحت وابل من نيران الأسلحة الآليّة وطلقات رماة النخبة.

ففضلاً عن الحاميات المرابطة في الجزر الرئيسة ـ قسم ما يقارب الـ ١٥٠،٠٠٠ رجل كتلتين. فجعلت إحداهما في الشمال في جزيرة «لوسون». والأخرى في الجنوب في جزيرة «منداناو». كانت إمكانيّة حشدهم بسرعة في أيّة منطقة تتعرّض للهجوم أمراً لا بدّ من تأمينه. وكان ذلك يحتّم حريّة النقل البحريّ. وهكذا عادت نظريّة الدفاع عن «الفيليبين». كما عادت خطط «شو» كلّها بشكل عامّ. إلى الفكرة الّتي طالما تغنّى بها البحّارة اليابانيّون. ألاوهي تهيئة أسباب معركة بحريّة ضخمة تعيد زعامة البحر إلى «اليابان» ولو موقّتاً.

ولكنّ وضع البحريّة الامبراطوريّة لم يكن مرضياً. فاصطدمت الجهود الّتي بذلتها في سبيل استعادة توازنها بعقبات كأداء. عزمت على استبدال حاملات الطائرات المدمّرة. فعمدت إلى تحوير البارجتين القديمتين «إيزي» و«هيوغا». وإلى استخدام هيكل «الأماغي». شقيقة «الياماتو» العظيمة. ضمّت هذه القلاع إلى «الزويكاكو» بطلة «بيرل هاربور». وإلى حاملات الطائرات الخفيفة «شيودا» و«شيتوزي» و«جونيو» و«ريوجو». فأعيد بها تشكيل قاعدة جديدة لسلاح الطيران البحريّ دعيت الأسطول الثالث. أو فيلق الميدان. واحتفظ بقيادتها الأميرال «توكيزابورو أوزاوا». محارب بحر «الفيليبين» العنيد العاثر الحظّ.

أعيد إرساء القاعدة. ولكنّها ظلّت تفتقر إلى القمّة. فالمجزرة المستمرّة منذ موقعة بحر «المرجان» أبادت في الواقع طيّاري النخبة الذين أبلوا أحسن بلاء في «بيرل هاربور». كان تدريب الملاّحين الجدد يسيراً نسبياً في البحريّة الأميركيّة. عسيراً غاية العسر بالنسبة للعنصر البشريّ الياباني. ولقد ذهب بعض المتعصّبين من الضبّاط الفتيان إلى أنّ الطيّار لا يحتاج لكلّ ذاك التدريب من أجل أن يتحطّم بطائرته على سفينة معادية فيجرّها إلى حتفها. إلاّ أنّ هذه العقيدة. الّتي سيدين بها رجال «الكاميكازي» العنيدون، لم تكن قد حظيت بعدُ بموافقة السلطات البحريّة. كان على أسطول «أوزاوا»، والحالة هذه، أن ينتظر في بحر «اليابان» الداخليّ ريثما يتمّ تدريب طيّاريه البطيء.

بدا الوضع أفضل حالاً بالنسبة للسفن الكلاسيكيّة. «فالياماتو» و«الموزاشي» (٦٥،٠٠٠ طنّ، ومدافع من عيار ٤٦٠ مم) ما زالا أقوى سفن القتال في العالم. وعدد البوارج القديمة والطرّادات الثقيلة ما فتىء ضخماً. ولكنّ الوضع كان يشكو نقصاً في المدمّرات والسفن المساعدة. وخاصّة في ناقلات النفط. ففيما اتّصف اليابانيّون بالضعف في سائر قطاعات حرب الغوّاصات الهجوميّة والدفاعيّة على السواء. لم ينازع الأميركيّين منازعٌ في هذا المضمار. فتمكّنوا من إنزال أفدح الخسائر بسفن النقل. جاعلين من السفن الصهاريج أهدافهم المفضّلة. ولسوف تضع السلطات البحريّة اليابانيّة الّتي تمّ استجوابها بعد الحرب عمل الغوّاصات الأميركيّة في طليعة العوامل الّتي أدّت إلى الهزيمة.

قضت صعوبات التموين بتقريب كتلة القوّات البحريّة اليابانيّة من مصافي «بورنيو» و«سومطرا». فلم يبقَ في «كوري» و«سازيبو». فضلاً عن حاملات طائرات «أوزاوا» الخالية من الطائرات. غير أسطول الفيس ـ أميرال «شيما»، المؤلّف من ٣ طرّادات و٤ مدمّرات. أمّا ما تبقّى فقد انتقل. بقيادة الأميرال «تاكيو كوريتا». إلى مرفإ «لينغا» القريب من «سنغافورة»: إنّها لقوّة بحريّة رائعة: ٧ بوارج. ١١ طرّاداً ثقيلاً. وطرّادان خفيفان. و ١٩ مدمّرة لا غير.

تلك كانت العدّة الّتي اعتمد عليها القسم البحريّ من خطّة «شو ١»: وإنّها لتحمل سمة اليأس الذي دُفعت إليه «اليابان». ولكنّها لم تعترف به. بناءً على ذلك. سيقوم أسطول «أوزاوا». نظراً لعجز حاملات طائراته. مقام الطُعم. فيجتذب إليه عَمداً سفنَ الأميرال «هالسي»

المشاة والمصفّحات تتقدّم عبر المواقع التي كان اليابانيّون يحتلّونها . ولكنّ مصير « ليتي » سيتقرّر في البحر لا على اليابسة .

الضخمة . موفّراً «لكوريتا» فرصةً تدمير القوّات البحريّة والبريّة التي ستحاول بها «أميركا» غزو «الفيليبين» ! وإنّ موعد هذا الغزو ليدنو بشكل ملحوظ : ففي أيلول حمل «ماك أرثر» على جزيرة «موروتاي» الواقعة بين «غينيا الجديدة» و«مندناو» . فاحتلّها . وحمل «نيميتز» في الشهر عينه على أرخبيل «بالاو» الصغير الواقع على مسافة ٥٠٠ ميل بحريّ إلى الشرق من «مندناو» . فاستولى عليه . بدت جزر «الفيليبين» وكأنّها في الهدف التالي ؛ وبالنظر إلى توقيت التحرّكات الأميركيّة المعتاد اعتبر تشرين الثاني موعداً للزحف عليها . بيد أن اليابانيّين جهلوا ما إذا كان العدوّ سيوجّه ضربته إلى الشمال أم إلى الجنوب . أم إلى الوسط . على « لوسون » . أم «مندناو» . أم على إحدى الجزر المجتمعة في بحر « فيزايا » وهي : « باناي » و«نيغروس » و«سيبو» و« سامار » و « ليتي » ...

استمرّ تقدّم المشاة في ٢٤ تشرين الأوّل ، فيما كانت تُحاك خيوط أكبر معركة بحريّة عرفتهـــا الأزمنة الحديثة .

معارك "ليتي" الثلاث

عند الأميركيّين استمرّ الجدال الستراتيجيّ بخشونة.

فالبحّارة الأميركيّون، وهم المتصرون في «الماريان»، راحوا يؤكّدون بعزم أنّهم قادرون على تصويب ضرباتهم إلى قلب «اليابان» مباشرة. وقد بقي «ماك أرثر» على رأيه القائل أنّ طريق «طوكيو» إنّما تمرّ «بالفيليبين» دون سواها.

في تمّوز دعا «جورج مارشال» الجنرال «ماك أرثر» إلى «هونولولو»؛ ففوجيء «ماك أرثر» بوجود الرئيس «روزفلت» هناك، وقد كان راغباً في تكوين فكرة شخصيّة عن نزاع الهادىء الستراتيجيّ. كان الأميرال «كينغ» قد استُبقي في «واشنطن»، إلاّ أنّ الأميرال «نيميتز» قد دافع عن نظريّة البحريّة، ألا وهي تركيز القوّات كافّة تحت قيادتها والنزول في «فورموزا». فالجزيرة الأصدقاء «ينزفون في أماكنهم» بانتظار استسلام «اليابان» الذي كان مايزال بعيداً، من غير أن تثير بذلك خيبةً وطنيّة تنعكس أصداؤها على قضايا الهادىء خلال سنين طويلة. فـ «ماك أرثر»، وهو سيّد «موروتاي»، كان متأهّباً أن يقفز إلى «مندناناو»، ومن «مندناناو» إلى «ليتي»، ومن «ليتي» إلى «لوسون». ولتسهيل هذه العودة المظفّرة، كان على البحريّة أن تضع نفسها في تصرّف «منطقة الهادىء الجنوبيّة الغربيّة».

ولم تسفر مقابلة «هونولولو» عن نتيجة حاسمة. واستمرّت المناقشة في لجنة رؤساء الأركان العامّة. وراح الجدال يتّجه نحو حلّ وسط، فعُقد الأمل على أن يستولي «نيميتز» على قاعدة «ياب»، فيما يستولي «ماك أرثر» على «مندناناو» و«ليتي». وبعد احتلال هذه الأخيرة سوف يُقرّر، حسب الظروف، إمّا إنجاز تحرير «الفيليبين» باحتلال «لوسون»، وإمّا الانقضاض مباشرة على «فورموزا» في آذار ١٩٤٥.

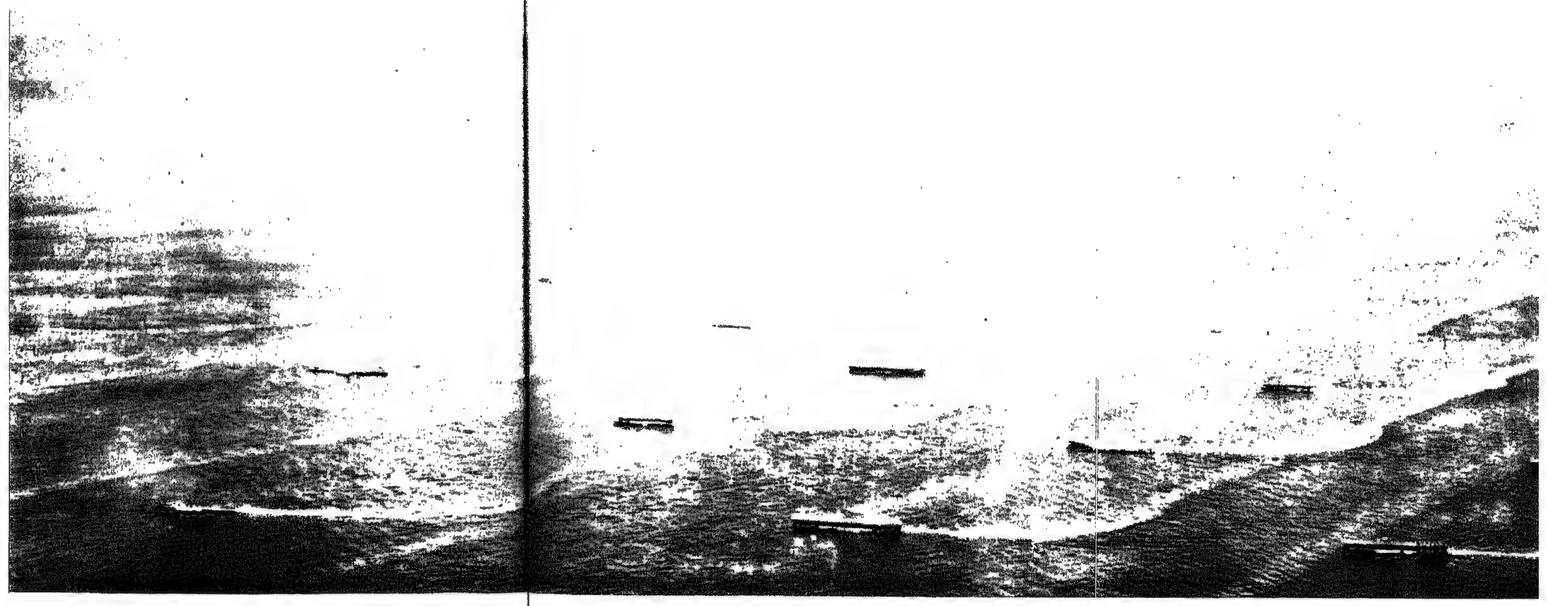

أسطول المحيط الهادىء، ضمانة القوّة البحريّة الأميركيّة.

في تلك الأثناء استمرّت الحرب رتيبة كالمعتاد. كان الأميرال «هالسي» يدور في الهادىء بأسطول جبّار، هو الفرقة ٣٨ المؤلّفة من: ١٧ حاملة طائرات، و٦ بوارج، و١٣ طرّاداً، و٥٨ مدمّرة. وقد أُرهقت القواعد اليابانيّة بلا هوادة الواحدة تلو الأخرى، ودُمّرت الطائرات بالمئات في الجوّ وعلى الأرض على السواء. وكانت ردّات الفعل بالغة الضعف. وخاصّة نهار ٩ أيلول حين قصفت هذه القوّة البحريّة الأميركيّة «مندناناو»، وفي ١٢، حين هاجمت جزر بحر «فيزايا». وفي ١٣ توصّل «هالسي» إلى استنتاج: لقد تحطّم عمود العدوّ الفقريّ، وقدّم الاقتراح التالي: لماذا لا يُعمَد إلى الانقضاض السريع، لماذا يُضاع الوقتُ هكذا في «ياب» وفي «مندناناو». لماذا لا يُطبّق على «ليتي» للحال. وهي مركز الأرخبيل جزء لا يُجزأ من الامبراطوريّة اليابانيّة منذ ١٨٩٥؛ واحتلالها يعني قطع «اليابان» عن مغانمها جميعاً، بما فيها «برمانيا» و«ماليزيا» و«الفيليبين» الّتي كانت تجمّد أكثر من مليون رجل. ولسوف تغدو «طوكيو» على بعد ٣ ساعات من مدى طائرات «ب-٢٩»، ولسوف تتضافر المؤهّلات كافّة، وبصورة قصوى، لإخضاع «اليابان» بالحصار والقصف.

من الناحية العسكريّة كانت نظريّة «نيميتز» مقنعة. إلاّ أنّ براهين «ماك أرثر» قد تعدّت حاجز الستراتيجيّة، فتناولت اعتبارات سياسيّة، ونفسانيّة، وعاطفيّة: فالفيليبينيّون قد حصلوا على وعد أميركيّ بأن ينالوا الحريّة، وكانوا ينتظرون، يحدوهم الإخلاص والثقة، وهم يخوضون ضدّ العدوّ حرب أدغال. ولم يكن باستطاعة «أميركا» أن تترك ١٧ مليوناً من الفيليبينيّ ومفتاحه؟

وكأنّني بريح مسحورة قد هبّت تحمل هذا الاقتراح المرتجل: فقد نقله «نيميتز» إلى مؤتمر «كيبيك» مباشرة. فما كان من «كينغ» و«مارشال» و«أرنولد» إلاّ أن قطعوا غذاء أبّهة كانوا يتناولونه وانصرفوا إلى دراسته. وبعد انقضاء ٩٠ دقيقة انطلقت الموافقة نحو الهادىء الجنوبيّ: إنّ الجنرال «ماك أرثر» والأميرال «نيميتز» مدعوّان إلى التخلّي عن العمليّات الوسيطة. باستثناء إحتلال جزر «بالو». لتنفيذ نزول في «ليتي» في أقرب مهلة ممكنة. وألحق الفيلق ٢٤ بمنطقة الهادىء الجنوبيّة الغربيّة. بعدما كان قد ركب البحر شطر «ياب». فانضمّ إلى الفيلق ١٠ وكوّنا معاً الجيش السادس بقيادة الجنرال «والتر كروغر». وغيّرت المخطّطات وعُدّلت الطرق الفنيّة للتزويد والتموين. ودُفن الجدال القائم بين الجيش والبحريّة في خضمّ الارتجال والعمل.

في ٢٠ تشرين الأوّل بدأت معركة «ليتي» البريّة. فهذه الجزيرة الّتي يبلغ طولها ١٥٠ كلم، وعرضها ٣٠ كلم، تمتدّ بين «مندناناو» و«سامار». يفصلها عن الأولى مضيق «سوريغاو» العريض. ويفصلها عن الثانية مضيق «سان جوانيتو» الضيّق الوعر. وتغطّي الجبال والمستنقعات ثلاثة أرباع الجزيرة. وأمّا الجزء النافع فواقع إلى الشمال، في واديين، وادي «ليتي» ووادي «أورموك» اللذين تفصل بينهما سلسلةٌ تجاوز ذراها ٤٠٠٠ متر. وهي مكسوّة بالأدغال. ومنذ غزو «أفريقيا الشماليّة» لستين قصيرتين خلتا كان التكتيك الأميركيّ المتعلّق بعمليّات الإنزال قد تحسّن تحسّناً جبّاراً. فإنزال «ليتي»، أي ٧٠٠ سفينة و ١٧٥،٠٠٠ رجل، قد حصل وكأنّه تمثيليّة ذات أدوار متعدّدة: فالفيلق ١٠- فرقة الخيّالة ١، فرقة المشاة ٢٤- قد نزل في خليج «سان بدرو» الصغير، في أقصى خليج «ليتي»، في جوار العاصمة الصغيرة «تاكلوبان». وأمّا الفيلق ٢٤- فرقتا المشاة ٩٦ و ٧- فقد نزل على نحو من ٢٠ كلم إلى الجنوب قرب مدينة «دولاغ» الصغيرة ومطارها. وإذ أنّ اليابانيّين كانوا عالمين بقوة السحق الّتي تتمتّع بها النيران الأميركيّة فوق رمال الشواطىء، لم يحصّنوا الساحل، بل نظّموا دفاعهم عمقاً. وتمّ الاستيلاء على «تاكلوبان» ومطارها. وكذلك على «بالو» و«دولاغ». منذ اليوم الثاني. وبعد ظهر اليوم الأوّل. كان «ماك أرثر» قد نزل إلى الشاطىء، فخاض الماء بوقار حتّى بلغ ركبتيه. ومن الشاطىء نفسه وجّه إلى الأمّة الفيليبينيّة خطبة تشوبها حرارة شبه روحانيّة. وبعد ذلك بيومين نصّب باحتفال في «تاكلوبان» خليفةً «للمانويل كويزون» هو «سيرجيو أوسميناء». وكازن سابقاً قد رفض المفوّض السامي الذي أرادت «واشنطن» أن تلحقه به للمحافظة على الأرخبيل. وها انّ الشرعيّة قد أُعيدت إلى الحياة، وعادت المؤسّسات إلى العمل على أوّل رقعة من الأرض المحرّرة.

إلاّ أنّ معركة «ليتي» البريّة بقيت في المرتبة الثانية. فمصير الجزيرة لم يكن ليتقرّر في الجزيرة نفسها. بل في البحر. حيث كانت تجري معركة بحريّة معقّدة ومؤثّرة.

في ١٨ تشرين الأوّل أصدر الأميرال «توياداء» أمراً بتنفيذ المخطّط «شو ١». وأمّا حاملات الطائرات. التي كان دورها يقضي بأن تستدرج نحوها قوّة الصدام الأميركيّة، فلم تكن تعدّ غير ١١٠ طائرات يقودها طيّارون كانوا في الغالب لا يعرفون أن يهبطوا على مدارج الحاملات. وأمّا البارجتان المحوّلتان، «إيزي» و«هيوغا»، فلم تكونا تملكان طائرة واحدة. وإذ كانت مدفعيّتهما الرئيسة قد انتُزعت منهما، فقد بقيتا عاجزتين من الناحية العمليّة. ولكنّ قرار اصطحابهما اتّخذ لدعم التأثير الذي سيوفّره الأسطول الفدائيّ، أو الأسطول الطُعم. ولسوف يقول الأميرال «أوزاوا»: «كنت أتوقّع تدمير أسطولي بكامله، ولكنّ الأمر الوحيد الذي كان يهمّني هو أن يتمكّن «كوريتا» من إنجاز مهمّته...» وفي ٢٠ تشرين الأوّل انصرف جهاراً مصطحباً «إيزي» و «هيوغا» و«زويكاكو» و«زويهو» و«شيتوزي» و«شيبودا». و٣ طرّادات. و٨ مدمّرات. وسفن نقل، وناقلات بترول عديدة. وغايته من هذا الحشد أن يوهم ويؤثّر.

كان «كوريتا» من جهته قد غادر «لنغارودز». متّجهاً نحو «برونيء» على ساحل «بورنيو» الشماليّ. وفي ٢٢ غادر «برونيء» وقد انقسم جيشه البحريّ كتلتين، كانت أقلّ هاتين الكتلتين أهميّة. وهي بإمرة الأميرال «نيشيمورا». مولّفة من البارجتين «فوزو» و«ياماشيرو». ومن الطرّاد الثقيل «موغامي». ومن ٤ مدمّرات. وكان مُتّفقاً أن تلحق بها سفن الأميرال «شيما» السبع. وأن تسير شطر مضيق «سوريغاو» للالتفاف حول «ليتي» من الجنوب. وأمّا القوّة الرئيسة. الّتي كانت بقيادة «كوريتا». فقد كانت تضمّ البوارج «ياماتو» و«موشاشي» و«نوغاتو» و«كونغو» و«هارونا». و ١١ طرّاداً. و ١٥ مدمّرة. وكان عليها أن تعبر مضيق «سان برناردينو». بين «لوسون» و«سامار». وأن تستدير حول «سامار» لتنبثق في خليج «ليتي» مع «نيشيمورا» في آن معاً. كانوا يرتجون أن يكون الأميرال «هالسي» قد انخدع بأسطول «أوزاوا» في تلك الأثناء. وكانوا واثقين من أنّ مجزرة ستحلّ بالسفن الأميركيّة العتيقة الباقية أمام «ليتي». ومن أنّه سيجري عزل القوّات المنزلة إلى الشاطىء. فيُخفق بالتالي غزو «الفيليبين»...

وأقبل يوم ٢٣ تشرين الأوّل. وعاد الهادىء إلى صفائه شيئاً فشيئاً، بعدما عصف به إعصار في الأيّام السابقة. وكانت إحدى مجموعات حاملات الطائرات التابعة «لهالسي» تتزوّد في «أوليتي». وكانت الثلاث الأخر تحوّم في عرض «سامار». وأمّا الأسطول الأميركيّ الآخر. وهو

أوّل آذار - ٢ أيلول ١٩٤٥

نهاية العمليّات في أوروبا ونهاية الرايخ الثالث

آذار

فرنسا

١٤ الحكم بالسجن المؤبد على الأميرال «إستيفا».

الجبهة الغربيّة

الزحف الحليف يبلغ «الرين» ، ثم يتجاوزه .
٦–٧ . سقوط «كولونيا» وجسر «ريماغين» .
١٤ . زحف عام على خط «سيغفريد» .
٢٣–٣١ . عبور «الرين» بالقرب من «مايانس» (باتون)، و«دويزبورغ» (سيمبسون)، و«وورمس» (باتش)، و«ايمريخ» (كريرر)، و«سبير» (دي لاتر) .

الجبهة الشرقيّة

الروس يدخلون «النمسا» و«ألمانيا الشرقية» .
١٢ . «جوكوف» يغدو على مئة كلم من «برلين» .
٥–١٥ . إخفاق هجوم معاكس ألماني (سيب ديتريخ) في المجر .
٢٠ . «كونييف» يعبر «السيري» في «بونزن».
٢٨ . «تولبوخين» يدخل «النمسا» .

نيسان

اتصال الجنود الانكليزية - الأميركية والسوفياتية على نهر الالب

١٤–١٨ . أجناد «لارمينا» تخضع جيب «روبان» .
١٩ . تحرير رأس «غراف» .
٢١ . الحكم بالاعدام على «دينتز» .
٢٦–٢٧ . «بيتان» يمثل أمام «فالورب» فيوقف ويعتقل في حصن «مونبروج» .
٢٩ . الانتخابات البلدية في ما عدا المحافظات الشرقية .

٢ . «لافال» و«بونار» يلجآن إلى «برشلونة» .
٦ . الأميركيون يفرجون عن «دالاديه» و«رينو» و«غاملان» و«فيغان».

٢ . نطويق قوات «الرور» الألمانية .
٥ . «دي لاتر» في «فارتمبرغ» ، و«باتون» في «توريج» . و«باتش» على «المين». و«سيمبسون» يعبر «الفزر» .
١٧ . استسلام ألمان «الرور» .
١٨ . باتون يتوغل في «تتبكوسلوفاكيا».
٢٢–٢٤ . «دي لاتر» ينتزع «شتوتغارت» ويستولي على «أولم»
٢٥ . اتصال أجناد «باتون» و«كونييف» بالقرب من «نورنبرغ» .
٢٦ . «روكوسوفسكي» يستولي على «ستيتين» ويدخل «ملكيمبورغ» .
٢٨ . «هملر» يعرض استسلام «ألمانيا» على «بريطانيا–العظمى» و«الولايات المتحدة» ، فلا يوفق .
٢٩ . «باتش» يستولي على «مونيخ» . — «دي لاتر» يدخل «النمسا» في «برينجنس» .
٢٩ . «هتلر» يعين «دونيتز» المقيم في «لوبيك» خلفاً له .
٣٠ انتحار «هتلر» و«غوبلز» تحت أنقاض المستشارية في «برلين» .

٣ . اتصال «ديمبسي» –«روكوسوفسكي» بالقرب من «فيز مار» .
٤ . القوات الألمانية في «هولندا» و«غربي ألمانيا» تلقي السلاح بين يدي «مونتغومري» .

أيّار

التوقيع على استسلام القوات الالمانية بكاملها بلا قيد وبلا شرط في "ريمس"، في مقر قيادة "ايزنهاور"

٨ . «ترومان» و«ديغول» و«ستالين» و«تشرتشل» يعلنون للعالم بشرى النصر الحليف .
٩ . (في الدقيقة العاشرة بعد انتصاف الليل) «كيتل» يوقع ، في «برلين» ، على وثيقة الاستسلام التي جرى التوقيع عليها عشية اليوم السابق .

٣ . «تولبوخين» يتزع «فيز –نوشتاد» .
١٠ . استسلام «كونيغزبرغ» . احتلال «فيينا» (١٢).
١٦ ١٧ . زحف «جوكوف» و«كونيف» العام على «برلين».
٢٠ . انهيار جبهة «الأودير» و«النايسي» .
٢١ . «هملر» يبقى في «برلين»
٢٢ . «جوكوف» يدخل «برلين» .

٩–١٣ . استسلام القوات الألمانية في «بوهيميا» .
١٠ . عودة «بينيس» إلى «براغ» .

العودة الى السلم في الغرب

ازمة فرنسية – انكليزية في دول «المشرق» .
٢٢ . مظاهرات معادية «لفرنسا» في «سوريا» و «لبنان» .
٢٨ . مذكرة أميركية توجه إلى «فرنسا» بشأن سياستها في «الشرق» .
٣١ . «تشرتشل» يطالب «دينول» بوقف إطلاق النار في «سوريا» و «لبنان» .

ألمانيا

٢١ . انتحار «هملر» .

حزيران

٢ . الانكليز يحتلون «دمشق» .
٢١ . اتفاق سوري–لبناني من أجل القيام بعمل مشترك ضد «فرنسا» .

فرنسا

٤–١٥ . تدابير تقديمية (تبديد أوراق النقد) .
١٢ . «دينول» يقترح اقامة جمهورية رابعة .
٢٣ . بدء محاكمة «بيتان» .
٣١ . توقيف «لافال» في «اسبانيا» .

ازمة ملكية في بلجيكا

١٧ . استقالة حكومة «فان آكر» .
٢٠ . «ليوبولد» الثالث يعلن عن عزمه على العودة إلى «بلجيكا» .
١٦ . «ليوبولد» الثالث يقرر عدم التنازل عن العرش ، ولكنه يقرر عدم العودة .
١٨ . البرلمان يقترع فيرفض عودة الملك إلى الحكم .

٢٣ . اتفاق بشأول تحديد مناطق الاحتلال (فرنسا–بريطانيا العظمى الولايات المتحدة) .

٣ ٥ . احتلال «برلين» ووقوعها تحت ادارة الأربعة «الكبار»
٢٥ . دخول الفرنسيين إلى «فيينا» .

تمّوز

تبدل الوضع في بريطانيا العظمى

٥ . فوز حزب العمال في الانتخابات العامة .
٢٦ . «تشرتشل» يستقيل فيخلفه «أتلي» .

آب

١٠ . مذكرة احتجاج فرنسية بشأن مقررات «بوتسدام» .
١٥ . الحكم بالاعدام على «بيتان» : استبدال الاعدام بالسجن المؤبد . واعتقال «بيتان» في سجن «البوربالية» .

ايلول

نهاية الحرب العالميّة الثانية

الفصلان: ٣١ و ٣٢

العمليات في آسيا وفي المحيط الهادئ

المكسيك

٨ . الحكومات الأميركية توقع على انفاق «شابولتيبيك» .

القاهرة

٢٢ . التوقيع على ميثاق الجامعة العربية .

ايطاليا

١ . «فينينغهوف» يحل محل «كيسلرنغ» .
٢ . زحف حيش «الالب» الفرنسي على «الاونيون» .
١٩ . «تروسكو» يهاجم «بولونيا» فيعبر «البو» و يستولي على «مودين» (٢٣) .
٢٢ . سقوط «سبزيا» و «فراري» .
٢٧ . اعدام «موسوليني» .
٢٩ . لقاء الفرنسيين والحلفاء بالقرب من «نوريمو» .
اتفاقية «كازيرت» المنظمة لاستسلام الألمان في «ايطاليا الشمالية» و «النمسا» و «ستيريا» و «كارنتيا» .

١ . سقوط «نورينو» و «سوزي» . لقاء الانكليز وقوات «تيتو» في «مونتيفالكوني» .
احتلال «تريستا» .
٢ . توقف الحرب .
٢١ . «فال أوست» يعلن استقلاله .

الولايات المتحدة الاميركية

١٢ . وفاة «فرنكلين روزفلت» وحلول «ترومان» محله .

"سان فرنسيسكو"

٢٥ . إفتتاح «مؤتمر الأمم المتحدة» .

٧ . أول اجتماع لممثلي الخمسة «الكبار» .
١٥ . «فرنسا» تعين عضواً دائماً في «مجلس الأمن» .

٨ . حق النقض في مجلس الأمن .
١٣ . اعتماد ميثاق الأمن العالمي .
٢٦ . التوقيع على «شرعة الأمم المتحدة» .

"الكتلة" السوفياتية

٩ . اتفاق حول ادارة «تريستا» («بوغوسلافيا» — «بريطانيا العظمى» — «الولايات المتحدة») .

٩ . معاهدة تحالف عسكري تعقدها «روسيا» مع «بلغاريا» و «ألمانيا» و «رومانيا» و «تشيكوسلوفاكيا» و «يوغوسلافيا» .

مؤتمر "بوتسدام"

٢٢ . اتفاق يقضي بأن يحتل «الصينيون» البلاد شمالي خط العرض ١٦

"الهند الصينية"

١٧ . أول اجتماع يعقد بين «ترومان» و «تشرتشل» و «ستالين» .

«هوشي منه» يعلن استقلال «الفييتنام» .

٨ . طريق «برمانيا» يفتح من جديد .

عودة يابانية الى الصف في الهند الصينية

٩ . هجوم ياباني عام على الحاميات والمنشآت الفرنسية جميعها .
١١ . «باوداي» يعلن إلغاء معاهدة الحماية الفرنسية .
٢٤ . تصريح فرنسي حول وضع «الهند الصينية» العتيد .

انتصار الحلفاء في "برمانيا"

٢٠ . زحف حلبف عام باتجاه «رانغون» .
٢٦ . الاستيلاء على «تونغو» .
٣٠ . الاستيلاء على «بيغو» .

٣ . الاستيلاء على «رانغون» .
انتهاء حملة «برمانيا» .

الصين

الصينيون يستعيدون «فو–تشيو» في ١٣ و «نانينغ» في ٢٧ .

المحيط الهادئ

٨ . الطيران الحليف يقصف «طوكيو» «وأوراكا» و «يوكوهاما» و «ناغويا» و «كوبي» .
١٢ . نزول حليف في «ميندناو» .
١٦ . انتهاء المقاومة اليابانية في «إيوشيما» .
٢٦–٢٩ . سقوط جزر «كيراما» بالقرب من «أوكيناوا» في أيدي الأميركيين .

١ . نزول أميركي في «أوكيناوا» .
٤ . «الاتحاد السوفياتي» يلغي معاهدة الحياد الروسية — اليابانية المعقودة عام ١٩٤١
٦ . طائرات الانتحار اليابانية تشن هجوماً معاكساً عاماً على «أوكيناوا» .
٧ . معركة بحرية على بعد ٨٠ كلم من الشواطىء اليابانية .
١٩ . قصف «اليابان» انطلاقاً من «إيووشيما» .
٢١ . هجوم اوسترالي على «كاراووب» (غيبا–الجديدة) .

١٥ . الوزارة اليابانية تنقض الاتفاق الثلاثي .
٢٣ . الأميركيون يعودون إلى احتلال جزيرة «بوغنفيل» .

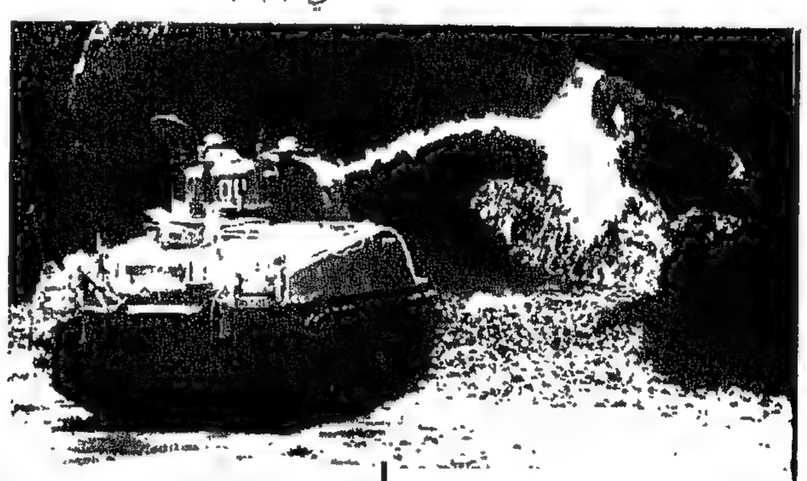

مدمرة يابانية تحت نيران طائرة «ب–٢٥» أميركية .

«أوكيناوا» . دبابة أميركية قاذفة للهب أثناء عملها .

القنبلة الذرية الاميركية ونهاية اليابان

١١ . نزول حليف في «بورنيو» .
٢١ . الأميركيون يحتلون «أوكيناوا» بكاملها .
٢٢ . «ماك أرثر» يعين قائداً أعلى حليفاً في «المحيط الهادىء» .

٧ . «اليابانيون» يباشرون الجلاء عن «الهند الصينية» .
١٦ . أول قنبلة ذرية أميركية في «الأموغوردو» («المكسيك–الجديدة») .
١٨ . قصف «طوكيو» من الجو .
٢٨ . «طوكيو» ترفض انذار «بوتسدام» .
٦–٩ . قنبلتان ذريتان تلقى أولاهما على «هيروشيما» والثانية على «ناغازاكي» .

٨ . «الاتحاد السوفياتي» يعلن الحرب على «اليابان» .
١٥ . «المكادو» يأمر بوقف القتال على الجبهات كلها .

التوقيع على وثيقة الاستسلام اليابانية على متن "الميسوري" في مرفأ "طوكيو"

إلى القارئ

بالنظر إلى العقبات الناجمة عن صعوبة نقل بعض المصطلحات العسكريّة والتقنيّة والفنيّة ، وبالنظر إلى الاختلاف بين المصطلحات المتداولة في الجيوش العربيّة ، وبالنظر إلى تنوّع الأنظمة التعليميّة والثقافيّة في الأقطار العربيّة ، رأينا أن نعرض في هاتين الصفحتين النهجَ الذي اتّبعناه ، والخططَ التي بها اهتدينا ، والوسائلَ التي لجأنا إليها ، تعميماً للفائدة ، وإتماماً لوضوح المَقصِد وتوحيد السِّياق اللّذَين توخّيناهما من نقل هذا السِّفر إلى لغة الضّـــاد .

١ ــ أوردنا الرُّتَب العسكريّة بلفظها الألمانيّ أو الفرنسيّ أو الانكليزيّ أو الروسيّ ، الخ . . . لأنّ لكلّ منها مدلولاً في لغته قد لا يَفي به لفظ آخر .

٢ ــ نقلنا إلى العربيّة الجملَ الألمانيّة و الانكليزيّة والايطاليّة ونحوها التي تخلّلت النصَّ الفرنسيَّ في حوار أو برقيّة أو رسالة أو ما إليها ، فلم نثبتها بنصّها الأصليّ لضَياع الفائدة منه على الكثيرين من القُرّاء .

٣ ــ كان جلّ اعتمادنا في نقل العديد من المصطلَحات العسكريّة الدقيقة على « المعجم العسكريّ » الذي وضعته لجنة ضمّت مندوبين عن القوّات المسلّحة للجمهوريّة العربيّة المتّحدة في « دمشق » ، وعن المجمع العلمي العربي « بدمشق » ، برئاسة الأمير مصطفى الشهابي رئيس المجمع .

وإليك نماذج منقولة لأهمّ المصطلَحات التي تردّدت في الأصل الفرنسيّ :

Aile droite	ميمنة
Aile gauche	ميسرة
Antichar	مضادّ للدبّابات
Angle d'incidence	زاوية الورود
Armée milicienne	جيش الحرس الوطني
Artillerie	مدفعيّة
Aspirant	مرشّح ضابط
Avant garde	مقدّمة
Avant poste	مخفر أماميّ
Arrière garde	مؤخّرة
Aero porté	منقول جوّاً
Bataillon	كتيبة
Bâtiment	سفينة
Bâtiment d'escorte	سفينة مواكبة
Bombardier	قاذفة قنابل
Bombardier en piqué	قاذفة انقضاضيّة
Brigade	لواء
Chaloupe (s)	سنوق . سنابيق
Chalutier armé	قارب مسلّح
Chasseur (s) (1)	قنّاص . قنّاصة
Chasseur (2)	مطارده
Cargo	سفينة شحن
Colonne	رتل
Compagnie	سريّة
Contre torpilleur	مطارده النسّافة
Corps d'armée	فيلق
Corps blindé	فيلق مصفّح
Croiseur	طرّاد
Cuirassé	بارجة

Destroyer	مدمّرة
Détachement	مفرزة
Dragons	خيّالة هجوم
Dragueur de mines	كاسحة ألغام
Division	فرقة
Echelon	نسق
Escadre	أسطول
Escadron	كوكبة
Escadrille	سرب
Etat-major	أركان
Escarmouche	مناوشة
Formation	تشكيلة
Fusilier	رام
Garnison	حاميةٌ
Grenade	رمّانة ، قنبلة يدويّة
Groupe d'armées	مجموعة جيوش
Home fleet	الأسطول البريطاني
Harpon	خطّاف
Hussard	فارس
Mine	لغم
Mineur	لغّام
Mitrailleur	رشّاش
Mitraillette	رشّيش
Mortier	مدفع هاون
Milice	حرس وطني
Mousquetaire	قنّاص
Patrouille	دوريّة
Peleton	فصيلة
Péniche	زورق نهريّ
Planeur	طائرة شراعيّة أو محوّمة
Paquebot	سفينة نقل
Pistolet	مسدّس
Quartier général	مقرّ القيادة العامّ
Régiment	فوج
Radeau	طوف
Réduit	محرز ، معقل
Sapeur	نقّاب
Secteur	قطاع
Section	فصيلة
S. S.	فرق الصاعقة
Tir tendu	رَمْي متوتّر
Tir d'arrêt	رمي الإيقاف
Tirailleur	مناوش
Torpille	طوربيد
Torpilleur	نسّافة
Troupe (s)	جُند ، أجناد
Vedette	زورق حربيّ
Vedette lance - torpille	زورق نسّاف

محتوى الكتاب

الفصل السابع عشر

أيلول ١٩٤٢ - جبهات الحرب السبع ——— ٤ - ٢١

١ — من القطب الشمالي إلى « القفقاس » ٥
٢ — المعركة الجويّة في سماء « أوروبا » ٩
٣ — معركة « الأطلسيّ » ١٠
٤ — معركة « افريقيا الشماليّة » ١٢
٥ — أدغال « برمانيا » ١٢
٦ — الحرب في « الصين » ١٣
٧ — « غينيا الجديدة » و « غوادالكانال » ١٤

الفصل الثامن عشر

تشرين الأوّل - تشرين الثاني ١٩٤٢ - إنقاذ "السويس" إحتلال مدينة "الجزائر" ٢٢ - ٤٣

دسائس واستعدادات في مدينة « الجزائر » ٢٤
« رومل » و « مونتغومري » في « العلَمين » ٢٦
غزو « أفريقيا الشماليّة » المضطرب ٢٩
« بيتان » يقرّر : « سأبقى » ٣٣
الأسطول الفرنسيّ يفلح في انتحاره بعد لأي ٣٥

الفصل التاسع عشر

تشرين الثاني ١٩٤٢ - شباط ١٩٤٣ - فاجعة "ستالينغراد" ——— ٤٤ - ٦١

جانب الكبش الزجاجيّ ٤٨
ظهور « مانشتاين » على المسرح ٥٢
إحتضار الجيش السادس ٥٦

الفصل العشرون

كانون الثاني - أيار ١٩٤٣ - "ستالينغراد" في "أفريقيا": مدينة "تونس" ——— ٦٢ - ٧٥

« هتلر » ينجو من محاوَلَتَي اغتيال ٦٧
كرب إيطاليّ : سقوط « تشيانو » ٦٨
« الدار البيضاء » والاستسلام غير المشروط ٧٠
آخر معارك « رومل » الأفريقيّة ٧٢

الفصل الحادي والعشرون
نيسان - كانون الأوّل ١٩٤٣ - طرقات "طوكيو" ـــــــــــــــ ٧٦ - ٨٧
فتح « جيورجيا الجديدة » ٧٨
أطَريق الأدغال ، أم طريق الجزر ؟ ٨٣
الفصل الثاني والعشرون
أيّار - أيلول ١٩٤٣ - ليقط "الدوتشي" ـــــــــــــــ ٨٨ - ١٠٧
إفلاس حرب الغوّاصات ٩١
« كورسك » ، مرحلة جديدة من مراحل الهزيمة ٩٢
فقدان « صقليّة » يطيح الفاشيّة ٩٣
سقوط « موسوليني » واعتقاله ٩٧
« انكلترا » تفقد قيادة غزو « أوروبا » ١٠٢
« إيطاليا » تستسلم بلا قيد ولا شرط ١٠٤
الفصل الثالث والعشرون
أيلول - كانون الأوّل ١٩٤٣ - "سالرنو"، "كيبف"، "طهران" ـــــــــــــــ ١٠٨ - ١٢٧
أسر الدوتشي وتحريره ١١١
نضال ضدّ أفعى ذات رؤوس سبعة ١١٤
طريق « طهران » ١١٨
تقلّبات في « أوكرانيا » ١١٩
« طهران » : « ستالين » و « روزفلت » ضدّ « تشرتشل » ١٢١
أوضاع « فرنسا » عام ١٩٤٣ ..... ١٢٢
الفصل الرابع والعشرون
كانون الأوّل ١٩٤٣ - حزيران ١٩٤٤ - الطريق إلى "روما" ـــــــــــــــ ١٢٨ - ١٤٩
إنتقام ومعارك في « إيطاليا » ١٣٥
الجيش الفرنسيّ يعاني ولادة جديدة عسيرة ١٣٧
إخفاق في « أنزيو » وانتصار في « كاسينو » ١٣٨

الفصل الخامس والعشرون

٦ حزيران ١٩٤٤ - يوم « نورماندي » الأكبر ـــــــــــــــــــ ١٥٠ - ١٧٧

مشاة على الدرّاجات — سماء وبحر خواء ١٥٤
إعداد جبّار لعمليّة غزو « أوروبا » الغربيّة ١٥٧
٤,١٢٦ سفينة تهاجم « أوروبا » ١٥٩
الساعة الأولى من النزول ١٦٣
من الساعة الثانية إلى الساعة السادسة من النزول ١٦٤
من الساعة السابعة إلى الساعة الثانية عشرة من النزول ١٦٧
من الساعة الثالثة عشرة إلى الساعة الثامنة عشرة من النزول ١٦٨
الساعات الأخيرة من النزول ١٧٠

الفصل السادس والعشرون

٧ حزيران - ٣١ تموز ١٩٤٤ - لا ، لم يمت « هتلر » ـــــــــــــــــــ ١٧٨ - ٢٠٣

قنابل طائرة تنهمر على « لنـــدن » ١٨٢
تقويم التحرير يتلكّأ ويتأخّر ١٨٤
في ٢٠ تموز : « هتلر » معافى ؛ لقد أخفقت المؤامرة العسكرية ١٩٠
٢,٢٤٦ طائرة تخرق جبهة « كوتنتان » ١٩٥
في « الفيركور » حيث سقط قناع المقاومة ١٩٧
إنّهـــا الحرب ، حتى في قلب « فرنسا » الفيشيّة ٢٠٠
يوم مجزرة : « أورادور — سور — غلان » ٢٠٢

الفصل السابع والعشرون

نيسان - تشرين الأوّل ١٩٤٤ - الحرب تخرج من « روسيا » ـــــــــــــــــــ ٢٠٤ - ٢٢٩

« ستالين » يقف مكتوف اليدين إزاء سحق ثوّار « فرصوفيـــا » ٢١١
مسيرة مزدوجة باتّجاه « طوكيو » ٢١٦
« نيميتز » في « كواجالين » وفي « سايبان » ٢١٨
لقد وجدت « اليابان » « ميدوي » أخرى ٢٢١
حزام أمن « اليابان » يُخرق ٢٢٣

الفصل الثامن والعشرون

١ـ ٣١ آب ١٩٤٤ ـ إنقاذ "فرنسا" ـــــــــــــــــــــــــــ ٢٣٠ ـ ٢٥٧

عودة « باتون » ٢٣٢
الحرب تمضي حثيثة الخطى ٢٣٣
نزول صاعق في « بروفانسا » ؛ تطويق مخفق في « نورماندیا » ٢٣٧
نهـاية « فيشي » ٢٤٠
« تولون » ، « مارسيليا » ، « مونتيليمار » ، « ليون » ٢٤١
هل تلقى « باريس » مصير « فرصوفيا » ؟ ٢٤٤
هدنة ، ومتاريس ، ووصول الفرقة المصفّحة الثانية ٢٥٠

الفصل التاسع والعشرون

أيلول ـ كانون الأوّل ١٩٤٤ ـ حملة "هتلر" الأخيرة ـــــــــــــــــــــــــــ ٢٥٨ ـ ٢٨١

خريـف مشؤوم ٢٦٧
رفع الحصـار عن « أنفير » ؛ إنقـاذ « ستراسبورغ » ٢٦٨
تولّد هجوم « الأردين » ٢٧٣

الفصل الثلاثون

تشرين الأوّل ١٩٤٤ ـ شباط ١٩٤٥ ـ "ليتي"، "ستراسبورغ"، "فرصوفيا"، "يالطا" ـــــــــــــــــــــــــــ ٢٨٢ ـ ٣٠٧

معارك « ليتي » الثلاث ٢٨٦
إعادة فتح « الصين » ؛ ألسّماء تمطر « طوكيو » شآبيب الموت ٢٩٤
« هتلر » بين الشرق والغرب ٢٩٥
إنهيار ألمانيّ على « الفيستول » ٢٩٨
معركـة « كولمار » ٣٠١
« يالطـا » غرفة تسجيل ٣٠٢

الفصل الحادي والثلاثون

شباط ـ نيسان ١٩٤٥ ـ موت "هتلر" ـــــــــــــــــــــــــــ ٣٠٨ ـ ٣٤١

« ريما غين » جسر على « الرين » ٣١٠
إنهيار حاجز « الرين » ٣١٤
« أيزنهاور » يرغب عن « برلين » ٣٢٢
« هتلر » في معقله ٣٢٢
لقد بدأت معركة « برلين » ٣٢٨
نهاية « موسوليني » المفجعة ٣٣٣

الفصل الثاني والثلاثون

أيار ـ ٢ أيلول ١٩٤٥ ـ إحتضار "ألمانيا"، إحتضار "اليابان" ـــــــــــــــــــــــــــ ٣٤٢ ـ ٣٧٣

استسلامات الرايخ الثالث ٣٤٦
استعادة « مانيلا » ـ احتلال « إيووجيما » ـ « اليابان » في وضع يائس ٣٥٣
« بوتسدام » و « ألاموغوردو » ٣٦٠

ثبت أحداث الحرب العالمية الثانية ـــــــــــــــــــــــــــ ٣٧٥ ـ ٣٨٥

PRINTED IN ITALY
BY MILANOSTAMPA
TLX 212428

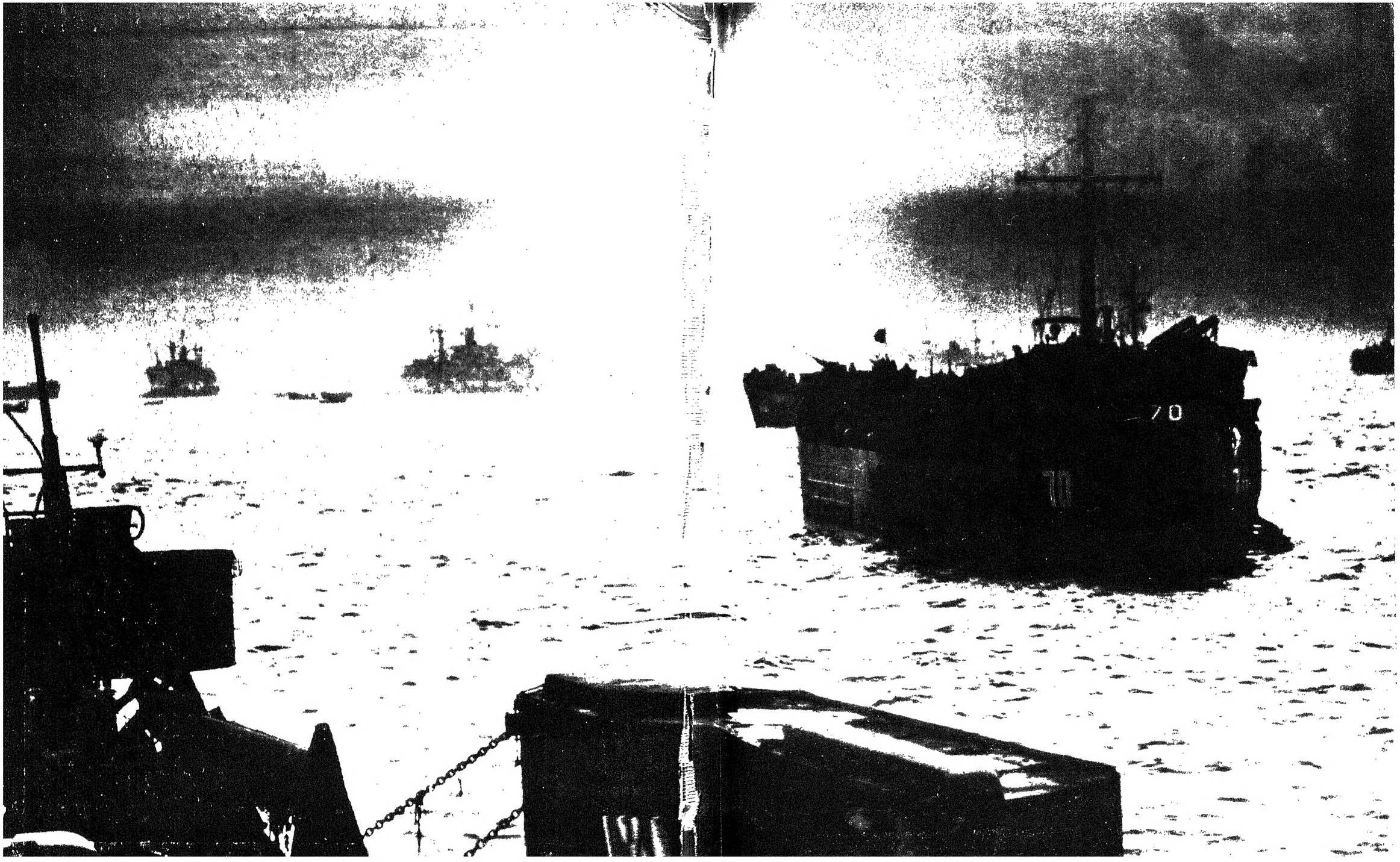

يرقى اهتمامي بتاريخ الحرب إلى يوم
كانت الأنقاض ما تزال دامية، حين أكببت
على الوثائق التي جُمّعت لمحاكمة كبار
مجرمي الحرب في «نورنبورغ»
ومنذ ذلك الحين قال الكثيرون من أبطال
الحرب وشهودها ما قالوه، فكتب
«تشرتشل» و«ايزنهاور» و«ديغول» و«مالك
ارثر» و«مانشتاين» وغيرهم مذكّراتهم،
ساردين الأحداث ومعلّلين أوجهها، فضلاً
عن الأشخاص الثانويين الذي القوا
دلاءهم موضحين بعض ما قد غمض، أو
مفصلين بعض ما كان مُجملا.
ونشرت الدول مجلّدات ضخمة من
الوثائق الدبلوماسية والعسكريّة، فلم
يبق في الأحداث الكبرى ستر إلّا ورُفع، أو
تفصيل إلّا وسُرد
والتمست في هذا الخضم تسمو لا جامعا فلم
أجد ولذلك نهضت إلى العمل، تحدوني
الرغبة في عرض وقائع الحرب كلّها في
مظاهرها العسكريّة والسياسيّة
والانسانيّة على السواء، فاتى هذا الكتاب
ثمرة للجهد المبذول إنّه لكتاب ضخم
بصفحاته، ولكنّه، مع ذلك، مختصر إذا ما
قيس بالمادة التي ضمّتها دفّتاه
ولقد بذلت في تحقيق المَمام قصاراي، فآمل
أن أكون قد وُفقت الى المبتغى. ومهما يكن
من أمر فإنّ حسن النيّة كان رائدي وديدني
في المهمّة

ريمون كارتييه

ولما كان رائدنا ان نُمد المكتبة العربية
بالجليل المفيد، وبالجميل المشوّق، فقد
عمدنا الى نشر هذا الكتاب بلغة الضاد،
و املنا ان نكون قد أسدينا الخدمة التي
دلّتنا على السبيل وسدّدت منّا الخُطى.

الناشرون